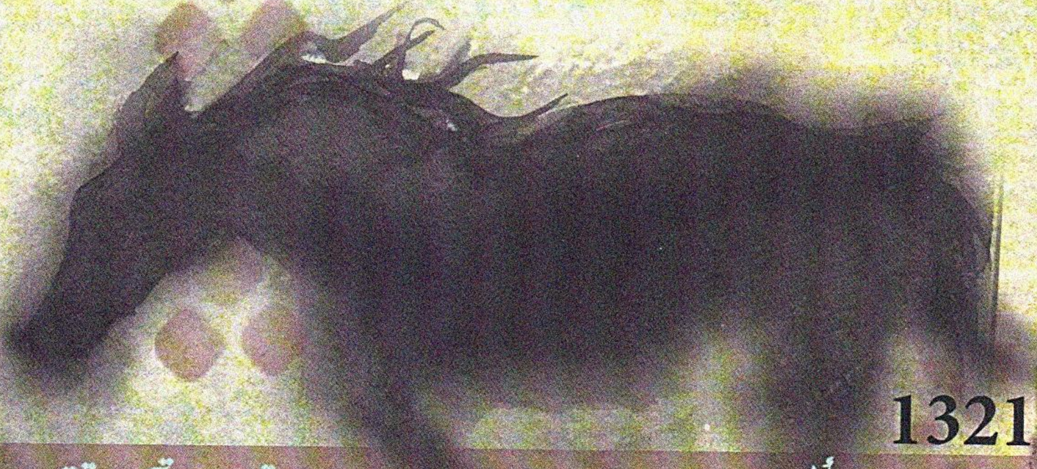
المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

السلطان جلال الدين خوارزمشاه في ميزان التاريخ



1321

تأليف
محمد دبير سياقي

ترجمة وتقديم
أحمد الخولي

السلطان جلال الدين خوارزمشاه
فى ميزان التاريخ

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٣٢١
- السلطان جلال الدين خوارزمشاه فى ميزان التاريخ
- محمد دبير سياقى
- أحمد الخولى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

السلطان جلال الدين خوارزمشاه

تاليف: محمد دبيرسياقى

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

السلطان جلال الدين خوارزمشاه
فى ميزان التاريخ

تأليـــــــف: محمد دبير سياقى
ترجمة وتقديم: أحمـــد الخـولى

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سياقى، محمد دبير.
السلطان جلال الدين خوارزمشاه فى ميزان التاريخ، تأليف: محمد دبير سياقى؛ ترجمة وتقديم: أحمد الخولى؛ ط١ – القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
١٨٣ ص؛ ٢٤ سم
١- جلال الدين خوارزمشاه
٢- الملوك والحكام
أ- الخولى، أحمد (مترجم ومقدم)
ب- العنوان ٩٢٣,١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٤٧٤٧
الترقيم الدولى: 1-091 - 479 - 977 -978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

نشر المؤلف هذا الكتاب في طبعته الأولى ضمن سلسلة كتب تصدر للشباب كمثل وقدوة. والمؤلف عالم فاضل ومحقق معروف للمصادر الأدبية والتاريخية، وقد وصلت مؤلفاته إلى ما يزيد على الخمسين عملاً. وهو يرأس في الوقت الحالي مؤسسة «لغت نامه» الإيرانية، وهي الموسوعة التي تعنى بكل جوانب الحضارة الإسلامية عامة وإيران خاصة. وقد أَلَّف كتابه بلغة فارسية جزلة باعتباره أدبيًا فحقق الهدف الذي أُعدَّ من أجله الكتاب ليتأسى به الشباب مضمونًا وإعدادًا.

وبصرف النظر عن اللغة الجزلة نلحظ رغبة خفية من المؤلف في نسبة جلال الدين إلى إيران بينما هو ينتمي إلى العنصر التركي؛ ذلك أن جده لأبيه "نوشتكين" أحد الأتراك في بلاط ملكشاه السلجوقي. من هنا لنتفق إذن على أن جلال الدين مسلم حسن الإسلام.(١)

ويحدثنا المؤلف عن المغول أو التتار حديثًا مفصلاً يصفهم فيه أنهم قوم متوحشون لم يكونوا يلوون على شيء في سبيل تحقيق المصالح الدنيوية (٢). أما لماذا توجهوا إلى إيران؟، فقد جاء ذلك منهم لتهيئة المقصد ومجاورة العالم المتحضر(٣) بما في ذلك من تحقيق أهدافهم الاقتصادية، الأمر الذي أقلق السلطان محمد وعكر صفوه إلى حد كبير خاصة بعد أن أفهموه أن القدرة العسكرية لجنكيز أكبر مما يعتقد.

ولدى توضيحه لأسباب هزيمة الإيرانيين يدلف إلى الحديث عن رفع جلال الدين – موضوع الكتاب – راية الجهاد في وجه المغول معترضًا على رأي أولئك الذين يقولون بضرورة إخلاء ما وراء النهر وخراسان، وقصد الهند قائلاً: "ينبغي حشد الجيش في مواجهة المغول وإحداث حرب هجومية"، غير أن عهده امتاز بطابع خاص اختلف عن

---

(١) حدث هذا الاختلاف في النسب بين المغول والتتار قديمًا وبين جمال الدين في إيرانيته وأفغانيته حديثًا، وبالتالي فإننا نصرف الوقت فيما لا يجدي نفعا.

(٢) يتضح أن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول، ولكن على أثر انتصار جنكيز انصرف اسمهم عليه إلى حد أنهم كانوا يعرفون في بدء غزوهم للعالم الإسلامي بالتتار وأطلق عليهم اسم المغول فاشتهروا في التاريخ بهذين الاسمين .

(٣) هذا ما يحدث في التاريخ المعاصر بالتمام.

عهود من جاءوا قبله. ومن أجل تحقق الهدف الذى ابتغاه يستفيد المؤلف من مصادر ثقة من أجل إعداد المطالب التى وردت فى ثنايا الكتاب، كما أعمل ذهنه وأجهد نفسه فى الأخذ عن هذه المصادر سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

كانت الدولة الخوارزمشاهية في عهد جلال الدين تعانى آثار التخريب الذى لحق بأقاليمها المختلفة بعد غزو جنكيزخان فاضطربت أحوالها السياسية والاجتماعية وأصبحت أقاليمها المتعددة خاوية على عروشها وباتت طعمة للمغتصبين من الحكام والقادة.

كان لرصيد جلال الدين مكانة كبيرة فى القلوب منذ أولاه الأب الركن الشرقى من الدولة حيث مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية، ومدينة باميان الواقعة فى أعالى نهر جيحون فضلاً عن بعض البلاد القريبة من حوض نهر السند التى اقتطعها الخوارزمشاهيون من أملاك الدولة الغورية.

كان جلال الدين متأجج الفكر منذ البداية، ولا أدل على ذلك من أنه خاطب المعظم عيسى صاحب دمشق يحرضه على غزو أملاك الخلافة؛ يقول: "تحضر أنت ومن عاهدنى فنتفق حتى نقصد الخليفة، فإنه كان السبب فى هلاك المسلمين، وفى هلاك أبى وفى مجيء الكفار إلى البلاد، فقد وجدنا كتبه إلى الحكام وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل"(١).

بعد دفن السلطان اتجه جلال الدين وكله عزم وإصرار على الأخذ بالثأر من العدو دون خوف أو وجل من نقص جيشه الذى بلغ سبعين فردًا منتقلين من "آبسكون" صوب خوارزم. ودخلوا مدينة "منشقلاغ" أول حدودها التى لم تكن عندئذ قد ذاقت ضراوة الحرب من فرط ازدهارها بأعظم بلاط فى دنيا ذلك الزمان واحتوائها علىٰ أسلحة وذخائر حرب وكونها مقرًا لجيش ضخم بقادته الترك والخوارزميين. إلا أنها للأسف وقعت تحت ضغط التردد والاضطراب وسوء الظن فى وحدة الرأى الناشئ عن هروب السلطان محمد. ورغم ذلك جدد السلطان جلال الدين الأمل فى ضرورة الوقوف ضد المغول ودحرهم.

يقول المؤلف: "إن تنامى الخبر بمجيء جلال الدين وأخويه وأعوانه قد أوجد رد

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٦٠-٢٦١، القاهرة ١٣٥٤-١٩٣٧م.

فعل في المدينة، وحمّس الناس فسعد الصغير والكبير باتجاه جديد فيه العزم والحزم على محاربة التتار"، أما وأن تتفوق قوة هذا الرجل على كل هذه العوائق فلنترك الحديث للمؤلف مستطردًا: "إن "قتلغ خان" قد اجتمع حوله سبعة آلاف مقاتل أغلبهم من قبيلة "تركان خاتون" ومن الترك البياروت معارضين تولى جلال الدين المُلك" (١).

وفي هذه النقطة نقول إنه في وقت البلاء والفتنة يكون الأولى تناسى الخلافات من أجل مواجهة العدو فلو بقى حرًا لما ترك الولاية لأحد، وصار الأمر وكأنه حرث فى البحر.

والرأى أن هذه الطائفة كانت قد اتفقت على قتل السلطان جلال الدين أو سمل عينيه على الأقل؛ فهم يدركون أنه رجل قوى بصير بالأمور واقف على شئون الملك. ومن ثمَّ فإزاحته عن مسرح الأحداث واجبة، وأن تأييد "اوزلاغ شاه" أنسب للتسلط على الأمور من ناحية، وبأن أمه كانت من المرتبطات بـــ "تركان خاتون" من ناحية أخرى. ولكن أحد المخلصين لجلال الدين ويدعى "بدر الدين اينانج" أطلعه على هذا القصد من جانب الأعداء، فاضطر إلى الخروج من البلاط بعيدًا عن المنافقين.

اتجه جلال بعد أن عرف بقصد الترك دون تأخير من خوارزم إلى "نسا" وفى ركابه ثلاثمائة فارس يترأسهم "تيمور ملك" حاكم مدينة "جند" ونادرة زمانه فى الفروسية على وجه السرعة، ولكنه اصطدم حوالى "استوا" من توابع قوجان الحالية بجمع من المغول، ولكن لماذا؟!

إن چنكيزخان كان يراقب أعمال خصمه بكمائن هنا وهناك حتى سرعان ما يقع أسيراً، ولو افترضنا أنه لم يكن يعرف بالاختلاف الذى وقع بين جلال الدين وقادة الترك فى خوارزم فإنه كان يتوقعه على الأقل بمعنى أن وجود جواسيسه فى الصحراوات الفاصلة بين خوارزم ومرو ونيسابور دليل على هذا الرأى. وهنا يضرب المثل بجدية جلال الدين فى الحرب فى مواجهة الأعداء. فعندما ظهر جلال الدين قادمًا من الصحراء، اصطدم بجمع من المغول كانوا قد نصبوا كمينًا له فى صحراء "نسا" فتغلب عليهم رغم أنهم كانوا يفوقونه عددًا وفرّق شملهم وقتل الكثير منهم.

---

(١) دبير سياقى: الكتاب ص ٧١

وهنا نذهب مع "محمد دبير سياقى" إلى أن هذه القوة والمنعة لو كانت قد توافرت للسلطان محمد لما كان المغول قد حققوا شيئًا، بل إننا نأخذ برواية النسوى التى تقول إن السلطان جلال الدين نفسه كان يقول إنه لو لم يكن هذا النصر، ولو لم تُغتنم هذه الجياد ومعها السلاح لما كان لنا أن نصل إلى نيسابور.

هذا الانتصار أوقع الرعب فى قلوب المغول أو التتار الذين لم يفرق المؤلف بينهما فأدى بهم إلى اليقظة والتصميم على فتح خوارزم. وعلى الجانب الآخر يرى المؤلف أن هذا الانتصار شجع جلال الدين على عقد النية لإعلان الجهاد.

وعلى هذا النحو كان جلال الدين طيلة جهاده لا ينقطع عن الحرب، وكان يستمد قوته من هذا الاعتقاد. ومن أجل أن يشتد عوده كان يطلب المدد من ملوك الأنحاء وحكامها، أولئك الذين كانوا على خلاف مع الخوارزمشاهيين وأن يمدوه بالعسكر والمال للجهاد ضد العدو المغولى.

ولما ضاق الخناق بجلال الدين اتجه إلى غزنة والغور لما له من رصيد هناك إذ كان يحكمها لدى تسخير أبيه لها، فكانت الملاذ الآمن عندئذ.

ويربط المؤلف الأحداث ببعضها فيقول إنه قد حرر فى طريقه من نيسابور إلى غزنين "شمس الملك" الوزير من سجنه فى قلعة كجوران، وكان هذا مدعاة لجمع العسكر الذين بهم قوى جانبه فى مواجهة المغول.

إذن فتوفيق جلال الدين إنما هو من باب الربط بين النية الخالصة والجهاد الحق، ولا أدل على ذلك من اغتباط أهل مدينة غزنين وسرورهم بمقدمه فقد كانوا يعرفون أى بلاء وأية فتنة سينزلهما هجوم المغول برؤوسهم.

وهنا يتحدث دبير سياقى عن معارك جلال الدين فى بروان وانتصاراته المتلاحقة، ويصفه بالشجاعة والإقدام، وكيف أنه كان يخترق صفوف العدو المغولى فرقة فرقة ويغتنم منهم الغنائم!، كما أنه يعتبر حرب بروان أول هزيمة للمغول فى حرب تقابل فيها الجيشان وجهًا لوجه، كما أنها أول حرب يفرق فيها قائد الجيوش الخوارزمشاهية قوة العدو ويضعفها إلى حد أنها شجعت البلاد على الثورة ضد المغول. بما جعل المؤلف يعد فتح هرات ومرو من آثار فتح بروان. كما أنه يرى أن هذه الانتصارات لقنت چنكيزخان

درسا كبيرًا منها السرعة والسكينة؛ الأولى ألا يجمع الجيش من حوله، والثانية فى أن يزيل سطوة جلال الدين ورعبه الذى نزل بقلوب المغول بالتدريج.

معنى ذلك أن الهزيمة قد جعلت جنكيز أكثر يقظة بينما نرى على الجانب الآخر أن ضررًا من هذا الفتح قد لحق جلال الدين، ذلك أن معاونيه قد ثملوا بالنصر وطغت الولايات المفتوحة وغفلت عن الترقب وسعدت بالغنائم حتى إنهم اختلفوا على تقسيمها والأمثلة على ذلك كثيرة بأدلة وبراهين.

باغت جنكيز السلطان جلال الدين، ووصل إليه عند معبر "تيلاب"، وحدثت حرب ضروس سجلها التاريخ، وأشار إلى شجاعته كنموذج يُعد على الأصابع فى الإقدام بل صار حديثًا للمؤرخين، وبذلك كانت الحرب حول نهر السند آخر حرب حشد فيها الطرفان الجيوش فى مقابل بعضها البعض.

ونلاحظ هنا أن تفاوتًا قد وقع فى روايات المؤرخين حول معركة السند، فرواية الجوينى غير رواية النسوى، ومن ثمَّ نرى أن قول النسوى ليس بعيدًا عن جادة الصواب بالاعتماد على:

١- كونه قد سمع من جلال الدين نفسه.

٢- اختلاطه بأعوان السلطان وأتباعه الذين اشتركوا معه فى الحرب.

٣- أن الكر والفر وفتح الأكمنة كانت من خصائص المغول الحربية.

٤- أن قتل ابن الخوارزمشاه فى عمر ثمانى سنوات فى حومة المعركة دليل على غضب السلطان.

من هنا نرجح رواية النسوى، بل نرى أنها ليست خالية من الثقة والاعتبار، أما الجوينى فربما أراد أن يسعد ايلخاناته بروايته.(١)

ويجتهد المؤلف فى رسم صورة للمعركة متبينًا خط سيرها منتهيًا إلى نتيجة هى أن انتظام جيش جلال الدين قد انفرط عقده فقتلت مجموعة وغرقت أخرى فى الماء،

---

(١) علاقة الجوينى بالمغول ثابتة فهو المنشئ لبعضهم وهو فى نفس الوقت مؤلف كتاب (جهانگشـــاه) أى فاتح العالم يقصد جنكيز.

وتوزعت ميسرة الجيش، وضعف القلب منه، وضاق الخناق على السلطان فيأمر أن يغرقوا حريمه مفضلاً ذلك على الوقوع في يد العدو، ويعلق المؤلف على هذا المشهد بأنه أكثر المشاهد حزنًا وغمًا فى صفحات تاريخ إيران(١)، ويصفه بالغيور.

ركب جلال الدين جوادًا نشطًا، ولمَّا لم يجد جدوى من المقاومة اقتحم النهر الموَّاج ووصل إلى الشاطئ الآخر بما جعل جنكيز ينظر إليه متعجبًا وواضعًا أصابعه بين أسنانه ويقول: "هذا الشبل من ذاك الأسد".

عبر النهر مع جلال الدين مايقرب من ثلاثمائة شخص، ووصلوا واحدًا فى إثر الآخر وهم عرايا وتعرفوا عليه بعد ثلاثة أيام، أما من بقى من جيشه فقد قتل بسيف التتار، واحمرَّ سطح ماء النهر من دماء القتلى ناهيك عن الغنائم التى اغتنمها العدو.

صحيح ما ذهب إليه المؤلف من أن معركة السند قد أفرغت الأسرة الخوارزمشاهية من قوامها، وأعطت الثقة للمغول، ويئس أولئك الذين يعيشون فى مدن لم تفتح بعد بحيث فرض المغول سطوتهم على زعماء المتمردين، ووسعوا دائرة فتوحاتهم.

وإذا كان لجلال الدين بعض النفوذ فى الهند، وأنه فتح كرمان وفارس والعراق وآذربيجان بعد أن عاد إلى إيران، بل هاجم جزءًا من القفقاز وتسيد آخر من غرب آسيا الصغرى، واصطنع حكام تلك الحدود لنفسه، ودخل فى حرب عظيمة مع المغول خارج أصفهان، إلا أن هناك فارقًا بين من كان يحكم فى غرب إيران ووسطها وبين الذى كان يحارب فى شرقها، ويواجه الغزاة المغول.

ونحن لا ننسى أن جلال الدين كان طوال السنوات الماضية هو المناضل البطل؛ قصده فى ذلك تحقيق آمال الآلاف من بطش المغول. فهو فى المرحلة الأولى قائد وزعيم يريد أن يمنع سقوط الملك على يد المغول، ولكنه بعد حرب السند فارس مجاهد حائر يبحث عن الملاذ فلا اسم ولا ملك ولا دولة. ذلك أنه لابد أن نفرق بين معركتى بروان والسند. فبينما أوجدت الأولى حركة عامة ضد المغول واستتبعت تمردات متتابعة ضدهم. فقد أسكتت الثانية هذه الآثار. ولم يعد لأحد من التبت حتى ساحل بحر الخزر طاقة على المقاومة، وكأننا بالمسلمين قد صاروا أسرى للمغول!

---

(١) يربط المؤلف الشكل بالجوهر رغبة منه فى استحواذ إيران على جلال ونسبته إليها.

والواقع أنه ينبغى الاعتقاد فى تفاوت كبير بين هذه الفترة القصيرة من حياة الخوارزمشاه والفترة الأطول التالية؛ أى زمن سلطنته فى إيران الغربية والمركزية. فعظمة هذا الوقت القصير هى أكثر من سنوات سلطنته العشر.

من هنا تبدو ملاحظة؛ هى لماذا عاد جنكيز بعد فتح السند إلى منغوليا عاهدًا بإكمال الغزو لأولاده؟

نقول لقد أدرك قائد المغول الذكى أن الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقف أمامه هو جلال الدين، أما وقد رحل فقد جزم بأن غزوه قد انتهى.

ولم يعرف جلال الدين صفة الانتقام، بل كان متسامحًا من خلال وقائع كثيرة منها تسامحه مع أهل تبريز. وفى مقابل هذا التسامح كان حاسمًا، فقد أمر بحرق خمسة فدائيين إسماعيليين أحياء، ولم يقبل منهم شفاعة، وفى مقابل ذلك أنقص عشرة آلاف دينار من خراج "دامغان" .

وهو أيضًا أصيل فى صفاته، فعندما عاد من العراق، وصل رسول من جانب علاء الدين حاكم قلعة الموت يدعى أسد الدين مودود معترضًا على أعمال وزيره السيئة، وطالبًا أموال التجار الإسماعيليين فأمر أن تسدد الأموال المسلوبة، وحض شرف الملك على أن يدفع غرامة التجار.

ثم نراه يجرى فى سنوات المواجهة على نحو الأبطال ومرتبتهم من حيث الآداب الخاصة فى الميدان، ففى قرية من توابع ميافارقين يختفى فى بيدر عن عيون الأعداء، وما إن استدلوا على مكانه يقتل اثنين ويعجز الباقون عن تقفى أثره فكانت شجاعته سببًا فيما حل به من وبال. وهذا يثبت فى اتجاه آخر أن حكمة القائد هى فى حنكته ومهارته فى اتخاذ القرار.

لكن الأقدار تسوق جلال الدين إلى منزل كردى يلقى حتفه فيه فينعيه النسوى بعبارات قوية حزينة حتى إن أولئك الذين لم يعرفوا بخبر موته يدَّعون أن السلطان مازال حيًا يجدد العزم على القتال. وإذا كانت هذه الإشاعات غير صحيحة إلا أن سببها كان الحب والإخلاص وأمل الناس فى رجل التاريخ الجسور الذى كانت الألسنة تلهج باسمه عنوانًا على الجهاد ضد العدو الغاصب. مما جعل بعض المدّعين يذهبون إلى أنهم

السلطان فيجمعون حب الناس ويضطرب المغول ويعودون من حيث أتوا. وفى ذلك أساطير تتناقل فادّعاء حدث عام ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦م، وآخر وقع عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٥م أى بعد وفاة السلطان بحوالى ربع قرن يقولان إن كلاً منهما هو السلطان.

ولا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن المؤلف لجأ إلى أسلوب التحليل النفسى للشخصية والحادثة التى هو إزاءها مما يزيد تأريخه لهذا البطل عمقًا بالنظر إلى بقية الدراسات الأخرى التى اعتمد عليها فى استمداد معلوماته، بل إن توخيه هذا الاتجاه انصرف أيضًا على الخصم؛ فجنكيز آخذ بطريق الذكاء متوخٍ للعدل، بل كان على قدر من بُعد النظر والتحوط بحيث إنه بقى بعيدًا عن مسرح المعارك موجهًا لها متجنبًا مواجهة مبارز مفرق للصفوف مثل جلال الدين، وينصرف منه التحليل أيضًا ليتناول شخصية شرف الملك وزيره.

وعنده أن شكله يرسم صورة لمخبره فهو قمحى اللون، معتدل القامة، فى هيئة الترك يتكلم لغتهم ويتحدث الفارسية، ولم يكن يغضب سريعًا ولا يفتح فمه بسوء أو يضحك إلا تبسمًا، بل هو قليل الكلام يغضب فى وقت الفتنة وتنقصه الخبرة إلى حدٍّ ما بحكم شبابه، ومن هنا – ففى رأيه – أنه لو لم يضبط مؤرخون ثقات وشهود على العصر مثل النسوى والجوينى الأحداث لشابت أعمال جلال الدين جوانب أسطورية كثيرة. ويعلق على حقيقته أنه لو اكتملت له الخبرة، وابتعد عن القسوة وغفل عن الإفراط فى أمور إن تبدى لكم تسؤكم لكان قد وفِّق فى تحقيق الهدف المنشود فى دحر العدو المغولى.

وإن كان هناك من مثلبة فى هذا الكتاب فهو التكرار فى العبارة والتزيد فى شرح الحدث وعدم مقابلة التاريخ الهجرى بالميلادى، وأخذ مايقتبسه من المصادر بالمعنى أكثر منه بالحرف. وهذا يرجع إلى أن المؤلف – كأديب – جرفته المحسنات البديعية والفنون البلاغية بما صبغ كتابته بالمصنوعة أو المتكلفة. ومن أنماط هذه الكتابة فى تاريخ مصر الحديث الجبرتى والرافعى.

أحمد الخولى

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب سيرة واحد من رجال التاريخ الإيرانى المناضلين، جلس على العرش فى زمن عمته الفتنة والغارة وشاع فيه الاضطراب وسفك الدماء فلم يكن له من عمل طوال سنوات حكمه الإحدى عشرة إلا تجهيز الجيوش والحروب والهجوم على مدينة إثر أخرى، والهروب من ديار إلى ديار، واللجوء من ناحية إلى أخرى.

ومرات كان يهجم بجيش غير منتظم ويهزم جيشا ضخمًا للعدو برجولة أو يُغلب منه وينهض بجواده تحت وابل الضربات ويلوذ بمهرب تاركا العدو يفرغ فاه دهشة من دأبه وجسارته وعزمه وإرادته .

وأحيانًا يحمل وحيدًا برسم أبطال التاريخ القديم ويطلب المبارز ويحارب رجلاً برجل، وأحيانا يهاجم بفرسان قلائل جيشا ضخمًا ويهزمه.

كان فى حياته يُحسب على أنه أمل الناس وملاذ البشر وسد محكم بينهم وبين العدو من بعد الله. وبعد مصرعه صارت وفاته كما لو كانت لغزًا فكانت أن تعلقت الأنظار بعودته لسنوات طوال، ولكن كلما نمى إلى سمع الناس بشرى عودته وهفت القلوب إلى ظهوره مرة أخرى سرعان ما صار هذا وهمًا، وبات هلاك رجل جسور على شاكلته أمرًا لا يصدق أو يمر بخاطر.

هذا الرجل بصفاته الممتازة كان له من التشدد والقسوة وعشق الدنيا والتسلى ما هو كثير وأحيانًا كان لتصرفه غير العاقل تداعياته كما كانت عشرته للنساء بلا حدود وبين هذا وذاك كان يسرف فى احتساء الخمر بما أضعف عناصر شهرته وصلابته وفراسته.

وقد أنقصت قلة تدبيره وسوء سياسته وخلوه من فنون الإدارة وحسن السلوك ولياقة الحفاظ على الصداقة مع حكام العصر ورعاية الرعية، كل هذا أنقص من تقدير جهوده ونضاله وقللت من دأبه وفراسته الحربية.

ومن هنا فقد أثبت التاريخ اسمه على نحوين: أحدهما فى سلك السيئين والآخر فى سلك العظماء. هذا الرجل هو السلطان جلال الدين منكبرتى الخوارزمشاه آخر مليك فى الأسرة الخوارزمشاهية. تقرأون سيرته فى هذا الكتاب، فما كنتم تعرفونه عنه قبل قراءته

ولكم حكم ما فى باب أعماله لابد أن تنحوه جانبا.

وبعد الإطلاع على المطالب المثبتة فى هذه الأوراق فما ترونه مهم. إلا أنه؛ كما يبدو سيظهر السلطان جلال الدين الخوارزمشاه فى نظركم سيئا وضعيفا، وسيبدو عظيما وكبير القدر فى الوقت نفسه، وأن حكم التاريخ فيما يتصل برجل خرج خالدًا من الدنيا آخذا معه الحب والبغض إلى رحاب الآخرة بغض النظر عن هذه الآراء المريبة والمرائية.

والمؤلف من أجل إعداد المطالب التى وردت فى هذه الصفحات قد أفاد من مراجع ثقة، وكثير من هذه المصادر والمراجع قد ساقت الحديث عن الحوادث والوقائع بشكل سلس ومتزن ومحكم بما جعل المؤلف يغوص فى بحر من الألفاظ بعضها سهل والآخر جزل وفُرض عليه أن يوائم بينها وأن يبعد كثيرًا من الفنون اللفظية والصناعات البديعية سمة العصر كالتشبيه والاستعارة والكناية؛ وبين الحين والآخر نقل بعض العبارات التى يراها مناسبة فكان يضع علامة متى وجد هذا مناسبا وواردًا ولم يذكر أرقام الصفحات للمصادر والمراجع أسفل المتن حتى لا يمل القراء وتصرف بوضع أكثر العبارات المنقولة بين قوسين بمعنى أنها ليست عبارة الكتاب بل إن لها داعيا آخر هو عدم الإشارة إلى صفحات المصدر الأصلى. أما القارئ العزيز فله أن يطمئن إلى أن ما جاء فى صفحات الكتاب يعتمد على مصدر وسند وليس به كلام معسول وأجوف، فالمباحث الأولى من الكتاب مثلاً تشتمل على مطالب توضح اسم ونسب وأسرة وبيئة حكم الخوارزمشاه، كما تكشف أيضا عن أعدائه خاصة التتار وأسلاف جنكيزخان بقدر اللزوم وتبين الأوضاع المتصلة بظهور سلطنة الخوارزمشاه كى يعيش القارئ فى محيط الأحداث.

محمد دبير سياقى

المبحث الأول

التعريف بالخوارزمشاه

يتضح من شكل الكلمة أن "الخوارزمشاه" كان عنوانًا على الشخص الذى يحكم فى "خوارزم" [1] أى واليها أو آمرها أو حاكمها بتعبير اليوم.

والسبب فى اختيار هذا اللقب "الخوارزمشاه" بدلاً عن الوالى أو الحاكم علَى خوارزم هو أن حكام الأنحاء المختلفة من إيران وولاتها إبَّان العصر الذى انعدمت فيه وحدة الدولة على مختلف أطرافها كانوا يختارون لأنفسهم لقبًا خاصًا حال تولى الإمارة على ناحية ما سواء بالاستقلال أو بالتبعية للسلطة المركزية، فكانوا يختارون هذا اللقب الخاص بهم، فمثلاً كانوا يقولون لحكام غرجستان[2] "شار" وولاة اسروشنه "افشين" وحكام منطقة شروان "شروانشاه" وأمراء بخارى "بخارى خدا". وعلى هذا النحو لُقب والى ناحية خوارزم الواقعة على ضفاف نهر جيحون بـــ "الخوارزمشاه".

ولكى نقف بشكل أفضل على أحوال السلطان جلال الدين الخوارزمشاه. من الواجب أن نتحدث كمدخل عن الأسر التى حكمت فى هذه الناحية، واختصت بلقب "الخوارزمشاه".

تعاقب على حكم خوارزم منذ القدم حكام مثل أحمد بن طاهر [3] الذى كان يحكم فيها عام ٢٦٨ هـ / ٨٧١ م تقريبًا. وكذلك حكمها آل منصور [4] عام ٣٢٢هـ/ ٩٢٥م.

---

(١) إحدى مدن دولة أوزبكستان، وهى عاصمة لإقليمها وتقع على ضفاف نهر جيحون، وتشملها منطقة خيوه الحالية.

(٢) ناحية تقع فى أفغانستان الحالية.

(٣) فتحى أبو سيف (دكتور): المشرق الإسلامى بين التبعية والاستقلالية، الدولة الطاهرية.

(٤) كليفورد أدموند بورسورث: سلسلة هاى إسلامى، الترجمة الفارسية فريدون بدره اى، ص١٥٩ وما بعدها، بنياد فرهنگ ايران.

وفى زمان السامانيين[١] حكمت فى أنحاء خوارزم أسرتان إحداهما هى الخوارزمشاهيون القدامى[٢] الذين تسيدوا الساحل الأيمن لنهر جيحون، وكانت عاصمتهم مدينة "كاث أو كات أو شهرستان" وعُرف بهم لقب الخوارزمشاه، وثانيتهما أسرة المأمونيين[٣] التى تسلطت فى الطرف الأيسر من نهر جيحون، وكانت مدينة "جرجانج أو جرجانية أو أورنج" عاصمة لحكمهم.

يقول ياقوت الحموى فى كتابه "معجم البلدان": كانت جرجانية تقع فى أول الأمر على الساحل الأيمن لنهر جيحون، يقول أبو الريحان البيرونى فى كتابه "أحوال خوارزم": "إنها كانت تسمى "فيل" ثم تبدل إلى "المنصورة"، ويضيف قوله: "إن هذه المدينة قد غاصت بسبب فيضان حدث لنهر جيحون ارتفعت أمواجه فبنيت مدينة "جرجانية" فى مواجهتها بالطرف الأيسر، واندثرت "المنصوره" تمامًا". وتأسست مدينة "خيوه" الحالية التى دخلت فى التركستان الروسية مكان جرجانية.

قلنا: إن كلمة الخوارزمشاه كانت لقبا لولاة مدينة "كات" فى عهد الأمير نوح بن منصور السامانى فى أعوام ٣٦٦-٣٨٧ هـ / ٩٦٩-٩٩٠م. وعندما حدث أن تمرد اثنان من قادته أحدهما فائق الخاصة [٤]، والثانى أبو على السيمجورى[٥]. عاد الأخير بعد عدة معارك وبموافقة من الأمير نوح أدراجه صوب مدينة جرجانية ليقيم لدى واليها مأمون بن محمد، ولم يكن أبو عبد الله الخوارزمشاه والى مدينته قد علم بأمر الأمير نوح والصفح

---

(١) هى دولة مشهورة حكمت فى المشرق الإسلامى، وكانت بخارى عاصمة لملكهم، وقد نسب ملوكها أنفسهم إلى بهرام چوبين القائد العسكرى فى العهد الساسانى، وإليهم يرجع الكثير من ترقى فنون الأدب والعلم، كما عاش فى بلاطهم العديد من الفقهاء والشعراء أبرزهم أبو الشعر الفارسى الرودكى، عبد الله رازى همدانى (دكتور) فى تاريخ كامل إيران ص ١٧٤وما بعدها، وتخصص الجوائز باسمه فى دولة طاجيكستان فى يومنا هذا.

(٢) كليفورد بورسورث : مرجع سابق، ص ١٥٩ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق ص ١٧١ وما بعدها.

(٤) هو من الغلمان فى بلاط صالح منصور بن نوح السامانى، وكان ذا أصل رومى ثم تدرج إلى أن أصبح من خاصة منصور بن نوح، ولذلك أسموه بـ (فائق الخاصة).
حسين بيرنا وعباس إقبال: تاريخ ايران از آغاز تا انقراض قاجاريه، ص٢٣٧ وما بعدها، انتشارات كتابخانه" خيام.

(٥) عهد إليه أبو منصور بحكم هرات – المرجع السابق، ص ٢٤٠.

الذى كان قد أصدره فيما يتصل بأبى على فحمل عليه وأسره وفرّق جيشه، غير أن أبا على كان قد لجأ إلى مأمون بن محمد بأمر من نوح السامانى. ومن هنا فقد أثارت حركة الخوارزمشاه المبيتة المأمون الذى هاجم مدينة " كات " واستولى عليها وفك القيود التى تسلسل بها أبو على وبدّل بها الخوارزمشاه، وبذلك جعل الأسير أميرًا والأمير أسيرًا، وعاد إلى جرجانية ثم فصل رأس الخوارزمشاه عن جسده فى حفل أقامه (١) عام ٣٨٦هـ/ ٩٨٩م، واستولى على ممتلكاته أيضًا.

ولهذا السبب انتقل لقب الخوارزمشاه من أسرة ولاة مدينة " كات " إلى أسرة حكام مدينة "جرجانية"؛ أى إلى أسرة المأمونيين الذين صاروا من هذا الوقت فصاعدًا خوارزمشاهيين.

وبعد وفاة المأمون بن محمد عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٠م خلفه فى الحكم ابنه أبو الحسن على بن مأمون، وقد صار هذا الأمير بعد سقوط السامانيين عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٢م من أتباع خوانين التركستان. ولما سطع نجم السلطان محمود الغزنوى دخل معه فى صداقة، وتزوج من أخته.

وبعد أبى الحسن؛ صار أخوه أبو العباس مأمون بن مأمون واليًا على جرجانية ولقب بـــ "الخوارزمشاه" وتزوج هو الآخر من أخت السلطان محمود، ولكنه كان ذا ميل داخلى لخوانين التركستان، ولذلك كان يبدى الوفاء للسلطان محمود فى الظاهر.

قتل مأمون الخوارزمشاهى عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٠م على يد أمراء خوارزم وأعيانها، وتولى ابن أخيه أبو الحارث محمد بن على عرش الخوارزمشاهية فحرّك السلطان محمود جيشًا إلى خوارزم بحجة رغبة أبى العباس فى سفك الدماء من ناحية وحفاظًا على روح أخته من ناحية أخرى وهزم الخوارزمشاهيين فى مكان يُدعى "هزار آسب" ودخل جرجانية لخمس خلون من صفر عام ٤٠٨ هـ / ١٠١١م، وأسر أفراد الأسرة المأمونية، وعهد بخوارزم إلى قائده المشهور بـــ "آلتون تاش"(٢). وعلى هذا النحو سقطت سلسلة الخوارزمشاهيين مرة أخرى وصار للحاجب آلتون تاش القسط الأوفر فى إسقاط الخوارزمشاهيين.

---

(١) هذا الصنيع شبيه بما فعله على بك الكبير فى تاريخ مصر الحديث.

(٢) حكم خوارزم من طرف الغزنويين عام ٣٠٨ هـ/٩١١م.

تسيد هذا القائد حتى نهاية عمره عام ٤٢٣ هـ / ١٠٢٦م على خوارزم وكان مطيعا لمحمود ومسعود الغزنويين، ولقب بـ "الخوارزمشاه"، وتولى ابناه إسماعيل وهارون[١] بالتوالى الحكم من بعده ست سنوات لكلٍ منهما، ولقبا بـ "الخوارزمشاه".

ولما سقطت هذه الناحية فى قبضة "شاه ملك جندى" [٢] أفاد هو الآخر من لقب الخوارزمشاهية أحيانًا حتى عام ٣٣٤ هـ / ١٠٣٤م.

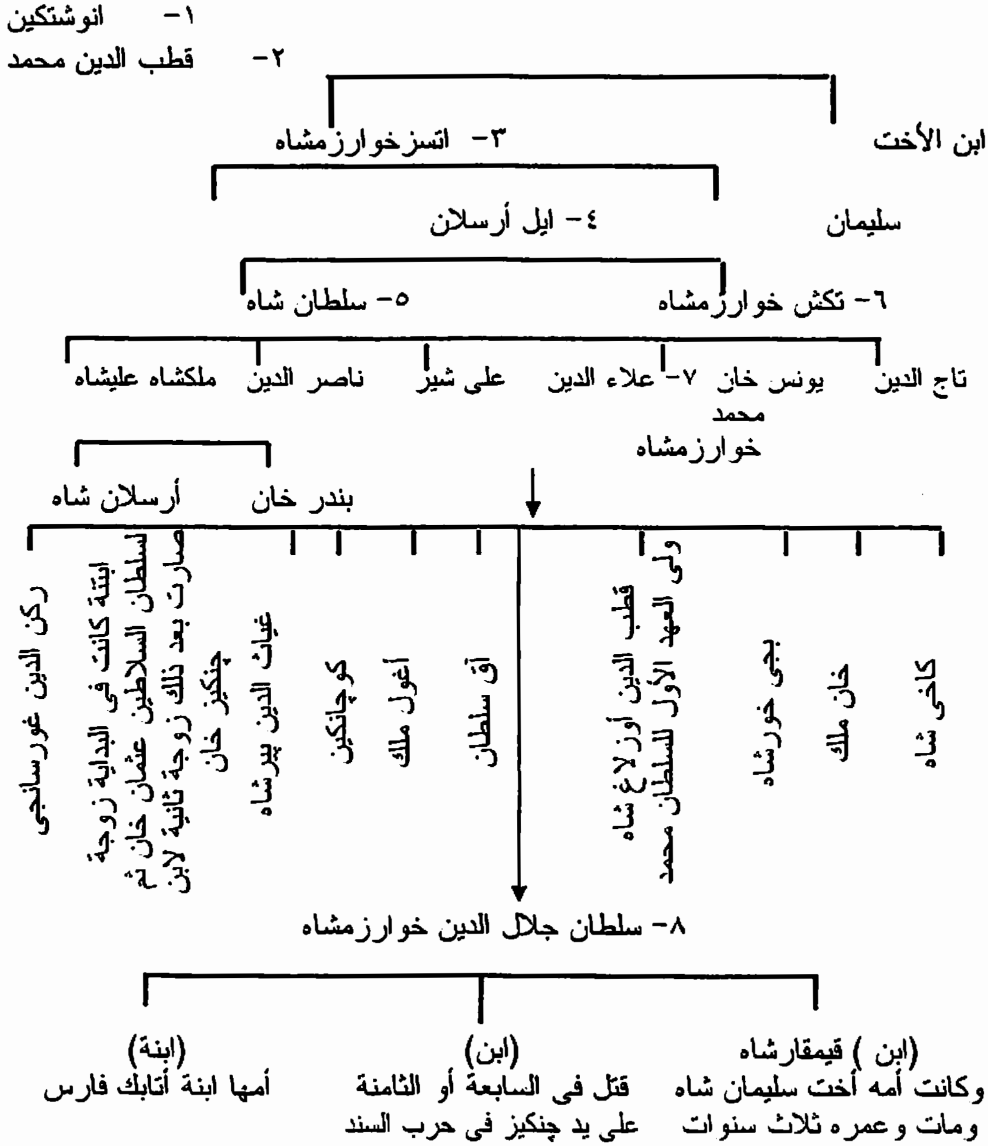
ومن هذا الوقت فصاعدًا وحتى تولى سلسلة الخوارزمشاهيين لم نجد حكمًا لخوارزم فى أسرة ذات شأن، بل إن بعضنا تولوا الحكم فيها من جانب سلاطين السلاجقة، والآن علينا أن نشرع فى ذكر سلسلة الخوارزمشاهيين.

---

(١) توليا رئاسة غزنة بين عامى ٣٠٨ هـ /٩١١م، و ٣٢٣ هـ /٩٢٦م.

(٢) هو من الأتراك الغز، كان حاكمًا على جند، غير أن السلاجقة أزاحوه مباشرة عن الحكم عـام ٣٣٢ هـ/١٠٤١م فاستقرت خوارزم تحت سيطرتهم.

المشجر الخوارزمشاهي



ومن المفيد أن نُعرّف بأسماء ملوكهم ومدد حكمهم تذكيرًا ورصدًا للأحداث على النحو التالى:

١- انوشتكين غرجه	حوالى	٤٧٠ - ٤٩٠ هـ / ١٠٧٧-١٠٩٦م
٢- قطب الدين محمد ابن انوشتكين	"	٤٩٠-٥٢١ هـ / ١٠٩٦-١١٢٧م
٣- اتسز بن قطب الدين محمد	"	٥٢١-٥٥١ هـ / ١١٧٢-١١٥٦م
٤- ايل أرسلان بن اتسز	"	٥٥١-٥٦٨ هـ / ١١٥٦-١١٧٢م
٥- سلطان شاه محمود	"	٥٦٨-٥٨٩ هـ / ١١٧٢-١١٩٣م
٦- علاء الدين تكش خوارزمشاه		
٧- أبو المظفر بن ايل أرسلان	"	٥٨٩-٥٩٦ هـ/ ١١٩٣ - ١١٩٩م
٨- علاء الدين محمد بن تكش	"	٥٩٦-٦١٧ هـ / ١١٩٩ - ١٢٢٠م
٩- جلال الدين منكبرتى(١)	"	٦١٧-٦٢٨ هـ / ١٢٢٠ - ١٢٣١م

وفيما يلى شرح مختصر لحياة كلٌ من أفراد هذه السلسلة:

نسب هذه الأسرة يصل إلى "أنوشتكين" وهوغلام تركى كان أحد الأمراء السلاجقة ويدعى بلكاتكين قد اشتراه فى غرچستان، ولهذا السبب كانوا يقولون له "انوشتكين غرچه".

وكان لــ " انوشتكين" غلام بلكاتكين مصير يشابه مصير سبكتكين مؤسس السلسلة الغزنوية (٢) فقد كان فى أول أمره غلامًا لــ "البتكين" ثم كوّن الدولة بفعل خبرته وجدارته. وقد أعطيت لــ انوشتكين أول الأمر وظيفة الإشراف على "الغسيل" التى هى حفظ الملابس والأمتعة، وطبقًا لما هو متعارف عليه عندئذ كان لكل وظيفة نصيبها من العوائد المفروضة على ناحية من النواحى. ولذلك فإن دخل - أو بعبارة أخرى عوائد - ناحية خوارزم كانت من نصيب هذه الوظيفة مثلما اختصت قاعة الألبسة بعوائد

---

(١) سقط سهوا من المؤلف أن جلال الدين يشتهر فى التاريخ بــ "منكبرتى".

(٢) دولة ذات شأن عظم أمرها فى عصر محمود، وأبلت بلاء حسنًا فــى نشــر الإســلام فــى القــارة الهندوباكستانية.

أحمد الخولى: الدولة الغزنوية ودورها فى نشر الإسلام فى شبه القارة الهندوباكستانية، مجلــة كليــة الشريعة والعلوم العربية والاجتماعية، القصيم السعودية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

خوزستان. ومن هنا ارتبط انوشتكين شيئًا فشيئًا بخوارزم بسبب عمله، وترقى تدريجيًا فى بلاط ملكشاه السلجوقى، وصار شحنتها[1].

١- قطب الدين محمد بن انوشتكين والى حكومة خوارزم من جانب حاكم خراسان، حظى بلقب خوارزمشاه. وينبغى أن يعتبر مؤسس الدولة الخوارزمشاهية، وأن سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م بداية لدولته.

ولما وصل سنجر [2] بن ملكشاه [3] من جانب أخيه محمد ليتولى أمر خراسان عام ٤٩٠-٥١١ هـ /١٠٩٣-١١١٤م أقر قطب الدين محمد فى منصبه، وبعد تتويجه سلطانا ٥١١ هـ /١١١٤م استبقاه، فبقى قطب الدين تابعا ومطيعًا للسلطان سنجر إلى أن مات عام ٥٢٢ هـ /١١٢٥م وكان يحضر كل سنة مع ابنه اتسز إلى بلاط سنجر، وغالبًا ما كان يحارب فى ركابه.

٢- أبو المظفر علاء الدولة آتسز خلف أباه قطب الدين، وكان تابعا لسنجر ما يقرب من ثماني سنوات غير أنه سلك طريق الطغيان والعناد منذ عام ٥٣٠ هـ /١١٣٠م، فطمع فى الاستقلال، وشرع يسيطر على الأنحاء السفلى من نهر جيحون، وحدث بينه وبين سنجر حرب وسلم واستسلام وطغيان وانتصار وهزيمة، كان يحذف اسم سنجر من الخطبة ويسقطه من السكة، ويحمل على خراسان زمنًا، فيغلب حينًا ويعتذر حينًا، ولم يكن السلطان سنجر بقادر على منعه حتى عام ٥٣٧ هـ /١١٤٠م.

وفى هذا العام؛ دعا اتسز نفسه مستقلاً بالتمام حال عودته من حملة على خراسان فساق سنجر عام ٥٣٨ هـ /١١٣٨م جيشًا إلى خوارزم، وهزم اتسز الذى اعتذر وقدم له الهدايا، ولكن الصفاء لم يدم بينهما مع هذا الوضع، ووقعت الحرب مرات وحدث السلم مرات أخرى إلى أن مرض اتسز فى شهر جمادى الأولى عام ٥٥١ هـ/١١٥٤م، ومات فى حدود منطقة قوجان.

---

(١) شحنتها يعنى آمرها.
(٢) مثل السلطان سنجر فترة الانتقال بين عظمة الدولة السلجوقية ونحوها نحو الضعف والانهيار.
(٣) أحد السلاطين العظام فى الدولة السلجوقية التى شهدت فى حياته هو ووزيره نظام الملك تقدما وازدهارًا كبيرين، إلا أن الأمور شهدت فى نهايات عصره اختلافا بفعل النساء. حسن بيرنيا وعباس إقبال. المرجع السابق ص ٣٢٨ وما بعدها.

٣- إيل أرسلان بن اتسز وكان من مطيعى سنجر خلف أباه فى الثالث من رجب عام ٥٥١ هـ /١١٥٤م وأرسل جيشًا إلى بخارى وسمرقند واستولى على هذه الأنحاء، ولكنه هُزم من الأتراك القراخطائيين[١]، ومات بعد فترة قليلة من هذه المعركة فى رجب عام ٥٦٧ هـ /١١٧٠م.

٤- سلطانشاه بن ايل أرسلان الأصغر الذى كان يُدعى محمودًا جلس على عرش الخوارزمشاهية بعد أبيه غير أن أخاه الأكبر تكش والى جند [٢] فيما وراء النهر كان قريبًا من نهر سيحون ولم يرد أن ينضوى تحت لواء أخيه الأصغر وطلب المساعدة من الأتراك القراخطائيين، وأبعد سلطانشاه وجلس هو على عرش الخوارزمشاهية، وطال النزاع بين الأخين حتى عام ٥٨٥ هـ /١١٨٨م، ولكنهما تصالحا فى هذا العام، ومات سلطانشاه بعد أربع سنوات من هذا الصلح؛ أى فى عام ٥٨٩ هـ /١١٩٢م وأصبح تكش فى السلطنة دون منازع.

٥- علاء الدين تكش يتوج نفسه بعد الصلح مع أخيه سلطانشاه فى طوس[٣]، ويخلع لقب السلطان على نفسه طبقًا لما هو متبع عندئذ، ذلك أن هذا اللقب كان أهم من لقب "ملك" الذى اعتاد عليه آباؤه وأجداده.

ساق السلطان تكش جيوشًا كثيرة إلى الجانب الشرقى، وكان ينتصر فى هذه الحروب حينًا ويُغلب حينًا آخر، ولكنه حظى ببعض الانتصار فى الجانب الغربى، وقضى على طغرل الثالث آخر السلاجقة الأصليين عام ٥٩٢هـ/١١٩٢م، ثم اصطدم بوزير الخليفة العباسى الذى كان يدعى "مؤيد الدين قصاب"، وتوجه قاصدًا أسره إلا أنه هرب منه. ومن هنا بدأت عداوة شديدة بين البلاط العباسى والدولة الخوارزمشاهية [٤].

---

(١) القراخطائيون من القبائل التركية التى تدين بالبوذية، ونتج عن استيلائهم على متصرفات منطقة ماوراء النهر أنهم أصبحوا يجاورون الدولة الخوارزمشاهية.
فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ، ص ٦٥-٦٦.

(٢) واحدة من المدن الإسلامية الثلاث التى تأسست فى القسم الأسفل من نهر سيحون.
بارتولد : تاريخ الترك، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان، ص ١٥٩، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

(٣) هى عاصمة إقليم خراسان القديمة، وإليها ينتسب كثير من الشعراء والأدباء والعلماء.

(٤) تفسر هذه الحادثة أحد أسباب تخلى الخلافة العباسية عن مؤازرة جلال الدين خوارزمشاه ضد الغزو المغولى فيما بعد رغبة فى التخلص منه.

ذهب تكش عام ٥٩٢ هـ /١١٩٥م إلى العراق وهرات وهزم جنود الخليفة ثم فتح أصفهان وعاد إلى خوارزم، وحمل ثانية على العراق، فأرسل الناصر الخليفة الهدايا لمنعه من غزو بغداد، ونصّبه رسميًا فى سلطنة العراق وخراسان، وخلع لقب قطب الدين على ابنه محمد.

مات السلطان تكش فى رمضان عام ٥٩٦ هـ /١١٩٩م فى الطريق ما بين نيسابور وخوارزم فى نفس العام. وتتوزع أحداث سلطنة هذا الرجل على قسمين : قسم يتعلق بفترة ما قبل الغزو المغولى، يختصر الحديث عنه وسنفصل القول أكثر عن الفترة التى واجه فيها هذا الملك هجوم المغول.

وأهم حدث أولى فى هذه الفترة هو علاقات السلطان محمد مع الخليفة العباسى وانقراض دولة الغوريين[١] وسقوط أسرة القراخطائيين وفتح بعض من أنحاء إيران مثل مازندران وكرمان وخضوع أتابك فارس وأتابك آذربيجان. ولما كانت الأحداث الثلاثة الأولى من أسباب أحداث القسم الثانى من سلطنة هذا السلطان وبواعثه وذات أثر فى الوقائع التالية فإن هذا يستوجب أن نورد شرحًا مختصرًا نذكره بترتيب تاريخى.

إن علاقات السلطان محمد الخوارزمشاه مع دولة القراخطائيين هى من الوقائع المهمة والملفتة للنظر؛ لأن حدودها كانت سدًّا محكمًا بين طوائف التتار وممتلكات الخوارزمشاهيين، وقد استوجب زوال هذا المانع المحكم يسرًا فى هجوم المغول، وسبب انقراضهم هو أن القراخطائيين منذ عهد اتسز الخوارزمشاهى كانوا يأخذون الخراج من ملوك خوارزم فصمم السلطان محمد بسبب الفتوحات التى أنجزها فيما وراء النهر من جهة، وبسبب الشكوى التى قدمها الناس من ظلم الأتراك القراخطائيين إليه على أن يخلص نفسه من عبء الخراج المخزى والناس من تحمل الظلم. وأمر بهذا العزم عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م أن يلقوا برسول كورخان فى الماء لدى وصوله لتحصيل الخراج، وقصد تسخير ما وراء النهر بنفسه. ففرح أهل بخارى بوصول السلطان، ودخل نصرة الدين عثمان حاكم سمرقند فى طاعته.

---

(١) ينتسب الغوريون إلى الضحاك الذى هرب أبناؤه إلى منطقة الغور فى وسط آسيا وهناك تناسلوا وخرجت منهم الأسرة الغورية.
انظر : ثريا محمد على فى كتابها عن الغوريين، ص٤٠، القاهرة ١٩٩٣م.

عبر السلطان نهر جيحون وسخر مدينة طراز وأسر حاكمها تاينكو وحمله إلى خوارزم حيث قتله، أما كورخان القراخطائى[1]، فقد استولى سريعًا على سمرقند مخضعًا نصرة الدين عثمان، ومدخلاً الأنحاء المسلوبة فى طاعته، ثم عاد إلى مقر حكمه فى كاشغر [2].

وجد السلطان محمد حجته فى تمرد كوچلك خان[3] رئيس قبائل النايمن فعاد مرة أخرى إلى ما وراء النهر، واستخلص بخارى وسمرقند بمساعدة عثمان خان، وزوّجه حال عودته من ابنته غير أن الأخير كان قد ضاق ذرعًا بظلم الخوارزمشاهيين وتحديهم، وطلب المساعدة من كورخان، وقتل جمعًا منهم بمساعدته، وأخرج الباقى. عاد السلطان العنيد بجيشه مرة أخرى وقتل نصرة الدين عثمان وأعمل سفك الدماء فى سمرقند.

وقد تابع هذه التجهيزات العسكرية التى كانت فى الظاهر تقترن بالنصر بفتح أكبر وهو انقراض الدولة القراخطائية. وفى نظر البعيدين عن الأحداث والذين لا دراية لهم يبدو وكأنه كبير جدًا، ويظنونه من علامات الاقتدار وبسط السلطة وتوسع الدولة. ولكن الحقيقة هى أن هذا الجمع كان واهمًا فى فكره، ذلك أن الجوار مع هذا السيل الهادر والتتاخم مع مثل هذه الطوائف المغولية الرُّحل وهدم كل الحواجز والموانع بينهما إنما هو أمر بعيد عن الصواب والتفكير المنطقى، فقد اضطر أن يتعاون مع عدوه القديم فى النهاية، وأطبق الاثنان من جانبهما على دولة القراخطائيين، وقضوا عليها تمامًا عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م. ولكن لمّا لم يحدث توافق بين الاثنين على تقسيم الممتلكات هاجم السلطان محمد كوچلك خان، وسلكت جنوده مسلكًا مشينًا تجاه أهل كاشغر وزجروهم زجرًا إلى حد أن الكشغريين فضلوا حكم المغول الكفرة على شركائهم فى الدين

---

(١) كورخان لقب اتخذه ملوك دولة الخطا لأنفسهم ومعناه خان خانان أى ملك الملوك أو سلطان السلاطين.

ابن الأثير : الكامل ج ١٢، ص ١٢١، الطبعة الأزهرية ١٣٠٢ هـ/١٨٨٤م، نقلاً عن حافظ أحمد حمدى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص ٤٣، القاهرة ١٩٥٣م.

(٢) تتبع جمهورية الصين الشعبية فى الوقت الحالى.

(٣) كان كوچلك مسيحيًا أول الأمر ثم اعتنق الوثنية فى بلاط القراخطائيين، وكان تسخيره لبلاط الكورخان عام ١٢١١م؛ أى قبل أن يخرج خان سمرقند على الخوارزمشاه الذى ما لبث أن حارب كوچلك حربًا غير موفقة، وطبقًا لرواية ابن الأثير وياقوت أنه اضطر إلى أن يترك لكوچلك بعض ممتلكاته.

والحضارة ونهضوا إلى مساعدة أتباع كوچلك خان فاضطر الخوارزمشاه إلى أن يخرب عددًا من المدن الشرقية، ويهجّر أهلها لمنع هجوم الخصم، وفتحت مازندران وكرمان متزامنتين فى ظل هذه الأحوال. أما علاقات الخوارزمشاه مع الخلافة العباسية، فكما رأينا – لدى السلطان تكش – تجمعت بين الدولة الخوارزمشاهية والبلاط العباسى بعض من الأحداث، وقام كل واحد من الجانبين بتحركات وضربات وتجهيزات عسكرية من أجل إسقاط الآخر، وأوقع الخليفة العباسى الناصر لدين الله أدهى أفراد هذه الأسرة وأمكرهم ملوك الطوائف فى الخوارزمشاهيين(١).

فهذا الخليفة الذى ظهر فى لباس التقوى والنجابة كان قد انشغل بتربية الحمام الزاجل ورمى النبال وشرع يستشعر الخوف من ملوك خوارزم منذ ذلك الوقت الذى هُزم فيه وزيره من السلطان تكش فى همدان بدلاً من أن يروج الشعائر الدينية وينشر التعاليم السماوية، ولمّا لم يجد فى نفسه القدرة على المواجهة أو لم يكن يرى من المصلحة أن يقع علانية فى براثن الدولة المتنفذة التى تقرب دائرة الإسلام من ديار الكفر، ولذلك – كما قلنا – رأى أن يستثير ملوك الطوائف ويحركهم ضد الدولة الخوارزمشاهية(٢). وفى هذا السبيل حث بادئ ذى بدء ملوك الغور ثم حكام الإسماعيلية فى قلعة الموت على التمرد. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد يكون له اليد فى استحضار المغول السفاكين إلى جانب الممالك الشرقية الإيرانية.

وتروى الوثائق التى تم الحصول عليها من خزائن الغوريين بعد هزيمتهم بل انقراضهم أن هذا الخليفة الداهية قد سعى فى إيقاع هذه الدولة فى خصومة مع الخوارزمشاهيين علنًا. إذ هاجم السلطان محمد حدود هذه الدولة بحجة لجوء هندوخان ابن أخيه إلى بلاط ملوك الغور أو بعد سلسلة من الحروب والنزاعات التى كان من نتائجها إضعاف القوى الخوارزمشاهية وأن انقرضت الدولة الغورية هى الأخرى فى النهاية. وبذلك سقط آخر حاجز محكم له من القوة العسكرية المدربة والملفتة للنظر بمواضعها المحصنة وجبالها الوعرة بما كانت تستطيع معه أن تقف فى وجه حملات المغول من جهة، وأن تمثل سندًا للخوارزمشاه وقت الضرورة من جهة أخرى.

---

(١) لإفادة أوسع انظر: سليمان التكريتى فى كتاب بغداد مدينة السلام وغزو المغول، مكتبة الشرق الجديد، بغداد.

(٢) هذا هو ما يحدث دومًا ويوقع الخلاف بين الدول.

ولم يغفل الخليفة الداهية عن إثارة جلال الدين حسن المعروف بـ " المسلم الجديد" الحاكم الإسماعيلى فى الموت مخالفًا الخوارزمشاه فوضع جمعًا من فدائييه تحت تصرف الخليفة كى يسفكوا دم الناس على طريقتهم فأمر الخليفة كسبًا لرضائه وتوهينًا للخوارزمشاه أن يقدموا راية أتباع جلال الدين على راية أتباع الخوارزمشاه فى إحدى رحلات الحج بما انعكس على مكانة السلطان محمد بالنقصان. ومرة أخرى قُتل سيف الدين أغلمش أحد المعاونين للسلطان محمد فى الرى بإشارة من نفس الخليفة.

وفى إثر هذه الأحداث؛ جاء السلطان محمد إلى العراق وأخضع أبا بكر بن سعد بن زنكى[1] أتابك فارس كما أدخل أتابك آذربيجان فى طاعته وحض على أن يقرأوا الخطبة ويضربوا السكة باسمه فى آذربيجان والقفقاز. ومن أجل أن يضع حدًا للمحرك الحقيقى والمسبب الأصلى لهذه الإثارات والقلاقل، ويتخلص من إفساد هذا الرجل الداهية وتحريضه المتواصل شرع يستعين أولاً بفتوى العلماء والفقهاء فيما وراء النهر لإسقاط اسم الخليفة من الخطبة لظنه أن الخليفة قد استعداه كملك مسلم وبالتالى فهذا الشخص ليس جديرًا بخلافة المسلمين وحكمهم، ورشح علاء الملك نامى من أشراف "ترمذ" على ساحل جيحون ليتولى الخلافة ثم تحرك قاصدًا فتح بغداد ومسخرًا مركز الخلافة العباسية غير أن فصل الشتاء واشتداد البرد مثل مانعا دون تقدمه. وفى هذه الأثناء كانت الأخبار السيئة تترى عن الجانب المغولى فعاد إلى خراسان عام ٦١٤هـ /١٢١٧م.

وحادثة أخرى هى فى الظاهر لا أهمية لها، ولكنها تقبل السرد أيضًا فى هذه المرحلة من سلطنة محمد الخوارزمشاه، ذلك أن هذه الحادثة الصغيرة كان لها التأثير الشديد فى أخذ قراراته اللاحقة.

تلك الحادثة هى أنه فى شتاء عام ٦١٢ هـ /١٢١٥م عندما كان يعبر من مدينة جند الواقعة حوالىّ نهر سيحون متجهًا صوب طوائف القرقيز والقبجاق تصادف أن التقى فى صحراء القبجاق بجمع من المغول يقودهم جوجى "دوش أو توشى" ابن چنكيزخان. وعلى

---

(١) فى أثناء حكم أبى بكر خليفة سعد بن زنكى صارت فارس مؤدية للخراج فى عهد ايلخانات المغـــول: اوكتاى ثم هولاكو، فخلعا عليه لقب "قتلغ خان"، بل زوج آخر حاكم سلغرى آبش خاتون حفيدة قتلـــغ خان لابن هولاكوخان. واسمه منكوخان إلى حد أن منكو سخر مملكة السلغريين. آدموند بوســـورث، مرجع سابق، ص١٩٣.

الرغم من أن هذا الرجل امتنع عن الحرب قائلاً: "إن قصده من سوق الجيش كان سحق أحد المتمردين وليس مداهمة السلطان إلا أنه لم يقبل ذلك منه، وهكذا قال إن الملحدين فى نظرى سواء، وكلهم يستحقون القتل". وهنا حمل عليهم فاضطر المغول إلى الحرب ونهضوا إليها.

وفى البداية هزمت ميمنة كلٍ من الجيشين ميسرة الجيش المقابل لها ثم تراجعت. ولما رأى المغول ذلك اقتحموا قلب العسكر السلطانى، وأوشكوا على الفتك بهم، وخُشى على السلطان من أن يُهلك وفجأة ظهر ابنه جلال الدين مع جمع من الفرسان من الجهة اليمنى ضاغطًا فمنع هذا الهجوم، وأنقذ أباه من التهلكة. وعلى الرغم من ذلك كانت معارك ضارية تحدث طوال اليوم بين الجيشين بينما جلال الدين يحارب بعنف بل يدير الحرب، ولما جن الليل، أشعل جوجى(١) وأتباعه النيران، وانسحبوا خفية فظن الخوارزمشاهيون أن المغول فى أماكنهم بخدعة النيران، وما إن انتهى النهار عرفوا أن الخصم قد انسحب، وبذلك صار الخوارزمشاه فى ميدان الحرب بلا منازع، وعاد السلطان إلى سمرقند فى الوقت الذى وقع فيه أول صدام مع قبائل المغول، وأخذ الخوف الشديد موقعه من القلوب.

عرفنا من شرح وقائع البداية فى سلطنة محمد الخوارزمشاهى أن زوال الحاجز المتمثل فى ملوك الغور وانقراض دولة قوية مثل القراخطائيين بتشكيلهم سدًا يحول دون ذراع المغول الطويلة ضد الممالك الإسلامية وحروب الخوارزمشاه الحربية وتجهيزاته العسكرية فى المشرق والمغرب؛ كل ذلك مهد المجال لظهور أحداث لاحقة بل وجعلها من السهولة بمكان، وأدخل المغول فى جيرة مع المسلمين أيًا ما كان جنكيز بادئ ذى بدء راغبًا فى الصداقة ورواج سوق التجارة وتنقل القوافل والتجار بين الجانبين.

وقد صار تغافل السلطان محمد وضعف رأيه بل وعلل أخرى سنوردها فى حينها من مؤديات اشتعال الحرب بين أكثر أنحاء الدنيا عمرانًا وسفاحى القبائل الصفراء بما أدى إلى بعض النتائج التى يصعب حصرها بالنسبة للدنيا المتحضرة.

---

(١) هو الابن الأكبر لجنكيز، وقد كلفه فى أول الأمر بتسخير مدينة جند وبعد أن استولى عليها نصَّب على المدن المفتوحة حكامًا مخلصين وأصدر أوامره للجنود بعبور النهر إلى خوارزم.

وها نحن نشرع فى شرح القسم الثانى من حياة السلطان محمد الخوارزمشاه التى انحصرت فى الصراع الذى ظهر مع المغول، وفى البداية نجدنا مضطرين إلى أن نقول شيئًا عنهم.

المبحث الثانى

المغـــول والتتـــار

كان اسم "التتار" أو "التتر" فى بداية ظهور جنكيز خان يطلق بين المسلمين على جميع أبناء الجنس الأصفر أتباع جنكيز، وكان يستخدم لقبًا عامًا لهم مثلما استخدموا كلمة المغول بدلاً عنها بعد ذلك بهذا المعنى الواسع، بينما "التتار" اسم قبيلة من القبائل الصفراء، و"المغول" سكان منغوليا أى السكان بين أنحاء الصين الكبيرة / مهاچين وماچيننى ومنشوريا وسيبريا.

وقد قسمت المصادر الصينية هذه الطوائف المتصحورة والرحل إلى ثلاث مجموعات هى: التتار البيض والتتار السود والتتار المتوحشين. وقالت إن المجموعة الأولى كانت مجاورة لسور الصين، وتستشرف مظاهر التمدن الصينى نسبيًا، أما المجموعة الثانية فتعيش فى الأنحاء الشمالية لصحراء چوبى وتمارس حياة متبدية ولها خبرة فى التجارة وتبادل البضائع والمجموعة الثالثة فقد كانت أناسًا يقيمون فى الغابات، ويسكنون أعلى نقطة من منغوليا، ويقضون وقتهم فى الصيد.

وكما تقول المصادر الإسلامية إنه عندما واتت القدرة چنكيزخان، وشرع فى الاستيلاء على أنحاء بلاده وأيضا طوائف وقبائل أخرى باسم القنقرات(١) والتتار الذين كانوا من أكثر الأقوام الصفراء وحشية ثم قبائل الأرلاد وقيات وأويرات وجلاير(٢) وأتراك القرلق(٣)

---

(١) القنقرات قوم كانوا يعيشون فى المنطقة المحدودة بساحل نهر أرقون من (روافد أموداريا) ومملكة قوم القرقيز من الشمال ومن الشرق بالصين الشمالية أى الخطا ومن الغرب بمملكة قوم الأويغور ومن الجنوب بالتبت.

(٢) قبائل الآرلاد والأويرات والجلاير كانت تعيش ما بين نهر افن وبحيرة بايكال.

(٣) قوم القرلق ومملكتهم فى جنوب مساكن الأويغور. وكانت هذه المنطقة تشمل الوادى الأعلى من نهر تاريم. وهم هؤلاء الذين يعرفون بأسم الخلج (الخرلج) ويشتهرون بطول القامة وحسن الصورة فى شعر الفرس

والأويغــور[١] والأتراك القراخطائيين وأتباع المــذهب المســيحى كرايبــت[٢] ونـــايمن "النايمان" التى كانت تعيش بين الحدود الشرقية الإيرانية والصين الوطنية وجنوب ســيبريا فى أودية الجبال والواحات الداخلة فى الصحراوات وسواحل الأنهار ومــن جميــع هــذه الطوائف كان قد شكل الأتراك القراخطائيون من عام ٥١٨هـ/١١٢١م دولة كبيــرة بــين مساكن الطوائف الصفراء الأخرى والمتصرفات السلجوقية والخوارزمشــاهية، وجعلــوا الأتراك القرلق والأويغور من دافعى الخراج لهم. وكما رأينا فقد سقطت هذه الدولة علـــى يد السلطان محمد الخوارزمشاه وكوچلك خان رئيس قبائل النايمن. وبـــذلك زال الفاصـــل الذى كان بين التتار والدنيا العامرة فى ذلك الزمان.

چنكيز:

اسمه الأصلى تموچين ابن يسوكاى بهادر رئيس طائفة "قيات" من التتار السود، ومن الناحية الجغرافية فإن مسكن هذه الطائفة على ساحل نهرى أرفون وكروان قد شكل حدًا فاصلاً بين الأنحاء المملوكة للتتار السود والتتار المتوحشين.

ولد تموچين فى حدود عام ٥٤٩ هـ /١١٥٢م وكانت قبيلة قيات تدفع الخراج لأباطرة الصين الشمالية (الخطا) غير أن بسط القدرة وما أظهره يوسكاى بهادر من تسلط على القبائل القاطنة فى أطراف حدوده دفع دولة الصين إلى فكرة القضاء عليه. وتحقيقًا لهذا القصد أُرسل جيش من الصين ثانية ولكنه هُزم، وتخلص يوسكاى بهادر من دفع الخراج السنوى .

مات يسوكاى بهادر فى الوقت الذى لم يكن ابنه يزيد فيه عن ثلاث عشرة سنة. ولما كانت جماعة من المغول قد ضربت صفحًا عن طاعة طفل له من العمر هذه السن

---

(١) الأتراك الأويغور كانوا يعتقدون مذهب "مانى" وهم أكثر الأقوام التركية والمغولية تمدنًا كان مســكنهم شمال التركستان الشرقية الحالية وشمال بحيرة لب نور وأطراف نهر تاريم أى مدن تورفان وبــيش باليغ (كوجن) الحالية وبرقول وقره شهر.
انظر: تاريخ مفصل ايران از آغاز تا انقراض قاجاريه، تأليف عباس إقبال آشتيانى، بكوشش محمــد دبير سياقى، ص ٣١٢ -٣١٣، از انتشارات كتابخانه خيام.

(٢) هم قوم سكنوا الواحات الشرقية فى صحراء جوبى وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين، وكـــانوا أقوى الأقوام المغولية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين وكان ملكهم قد اعتنق الديانة المسيحية من عام ٣٩٨هـ. ومن ثم فهم معروفون فى أوروبا وتنتشر أساطير تتصل بهم وملوكهم بين الناس.

الصغيرة لجأ تموچين إلى خان كرابيت الذى كان صديقًا لأبيه طالبًا منه المساعدة والمساندة .

استقبل الخان المذكور تموچين بحرارة تقديرًا لصداقته مع يسوكاى بهادر. ولكن لمّا كان من طبع تموچين الرغبة فى التوسع والتمرد لم يكن يركن إلى الهدوء والطاعة، ومن ثم صار خان كرابيت قلقًا من أحواله إلى حد أنه أوشك على أسره فاضطر تموچين إلى أن يرحل، وقتل الخان فى الطريق وهو يشرع فى تعقبه. وهنا وجد تموچين مزيدًا من الاهتمام، واستحوذ على لقب الخان ومعناه "ملك الملوك" باللغة المغولية .

هذه هى عادة الطوائف الرحل التى تجتمع تحت راية رجل قادر وقوى ومفكر وحاد الذكاء فتشحذ السيوف فى ركابه حتى تؤمن معاشها. ومن هنا فچنكيز يحسب على أنه من الرجال المعدودين فى التاريخ بسعيه إلى الاستحواذ على مقام الحكم وترأس الطوائف والقبائل .

غير أن زعامة القبائل وقيادتها لها ما ينبغى من لوازم والتزامات ويتطلب من الطاعات ما أهمه تأمين معاش أفرادها وحشد العسكر وتوفير علف الدواب وتبادل البضائع المصنعة يدويًا بأيدى القبليين ببضائع أخرى محل احتياجهم .

قلنا إن استعداد القائد بين القبائل هو الذى يُوجد اتحادها أو يوفر تجهيزاتها الحربية، ويجمع المحاربين، ويأتى فى إثر هذه العوامل الحاجة إلى الماء والخبز والعلوفة ووسائل حمل الأمتعة، وبعبارة أفضل أن توفر القدرة بما يقتضى رفع المشاكل الاقتصادية والتجارية والضيق فى المسكن والمراتع. ومن هنا كان على چنكيز أن يتغلب بقدرته فى القيادة واستعداده العسكرى وذكائه الفطرى على هذه المشاكل لكى يحفظ تسيده وزعامته. فهل كان يستطيع أن يفعل شيئًا آخر سوى التسيد على الأنحاء والأطراف أو الانشغال بالحرب أو بالسلام وإيجاد طرق تجارية وتيسير تبادل الأمتعة وإقرار الأمن التجارى؟، وهل طبيعة الحياة البدوية والراجلة والمتصحورة يقتضى غير ذلك؟

إن ملاحظاتنا على البواعث الأصلية والأولية لحركة چنكيز والتتار ستفيدنا فى حل المسائل وإيجاد أساس للتحولات التاريخية اللاحقة. والآن فإننا بهذه النظرة أو المنظور علينا أن نتابع چنكيز خطوة خطوة فى الطريق الذى سلكه.

نهض خان التتار القوى على إثر بسط القدرة والسيطرة على منابع الثروة وامتلاك المراتع والمراعى وتأمين الطرق التجارية باحثًا عن العالمية والتعلق بناصيتها ففى عام ٦٠٠ هـ/١٢٠٣م غلب خان قبيلة النايمن تايانك خان الذى جرح فى الحرب، ومات بعد مدة. ولما لم يكن ابنه كوچلك خان قادرًا على الثبات فقد لاذ بكورخان القراخطائى الذى زوّجه من ابنته، وانتوى أن يذهب لمواجهة چنكيز ليقضى عليه، ويعيد صهره إلى ملكه المسلوب غير أنه من سوء الحظ لم يحمل كوچلك خان جميلاً لكورخان الذى قصد التعاون والمساعدة بإشارة من السلطان محمد الخوارزمشاه وحمل عليه، وأسر فى المعركة التى نشبت، فوزع ممتلكاته بين الخان الفاتح لقبيلة النايمن أى كوچلك خان والسلطان محمد الخوارزمشاه، وكما سبقت الإشارة. لما لم يحدث توافق بين الاثنين هاجم السلطان محمد بعد مدة حدود كوچلك خان، وأعمل السلب والنهب، وأخذ فى إضعافه فكانت النتيجة أن استطاع چنكيز أن يقضى على كوچلك خان فى معركة واحدة، ويتاخم السلطان محمد فى حدوده تتاخمًا مع أرض تضايق أهلها كثيرًا من ظلم السلطان مفضلين حكم عدو ملحد مسالم على حكم ملك توسعى مسلم. وينبغى أن نقول شيئًا عن چنكيز تعودًا، أخلاقًا، فكرًا وإرادة وفيما كان يعتقد حتى يتضح سر عالميته وانتصاراته المتلاحقة هو وخلفه بل لماذا صار غازيًا من خلال الأحداث بهذه السهولة؟، ولكن نوصى القراء بداية بأن مؤرخى هذا الزمان قد بالغوا وأغرقوا حينًا فيما يتصل بچنكيز وهجومه بسبب الوحشية البالغة التى أوجدها الهجوم فى أذهان العامة، وذكروا حينًا آخر أن هذه الواقعة الشؤم أو المباغتة على أنها هى حادثة السلطان محمد الخوارزمشاه من جانب آخر، وذلك أنه قد فرغ من التدبر والضعف فى الرأى ووقع تحت قهر الأمراء والأقارب وارتعد وتوتر وهرب من عدو باطش وأصدقاء لا ثقة فيهم.

إذن فدوامة الموت التى انبعثت من صحراء منغوليا قد غشت بصر أهل الديار الواسعة بسنان وأشواك، وأنزلت غبار الخراب على رأس العباد، وتضمنت فى ذات الوقت حافزًا قويًا كالثورات فى تغيير شكل الكرة الأرضية الشاسعة فى الوقت الذى لم يكن هناك من الموانع ما يحول بينها وبين الحركة.

وخان المغول[١] هو تلك الدوامة الشاخصة وطوفان البلاء الذى جمع حوله قوة ومهارة ويقظة وتجاهلاً للوقائع وإفادة من أحداث موجبة للاقتدار وبسطًا للنفوذ وحشدًا

(١) تنظر منغوليا إلى چنكيز على أنه بطل قومى فى أيامنا هذه.

للأفراد وازديادًا من القبائل بالطمع فى المسكن والمرتع فجعل الحرب والهجوم من أجل تحقق هاتين الحاجتين الدائمتين والمتلاحقتين، ثم عُرفت التجارة والتعامل فيها وتبادل بضائعها على أنها العامل الوحيد فى تحقيق هذا الهدف ونجد التاجر الذى كان يحضر البضاعة إلى خيمة التتار ضيفًا عزيزًا غير أن تأجج البلاء بسبب حروب الخوارزمشاه مع كوچلك خان والقراخطائيين جعل الطريق الرئيسى لتجارة الصين مع آسيا وأفريقيا وأوروبا الذى كان يُعرف بطريق الحرير غير آمن لتجار المغول. وكل خلل فى تجارة الشرق والغرب كان يستوجب قلق القبائل الخاضعة للخان. والحقيقة أن هدف التتار المعلن كان يتمثل فى تحقيق الحاجات الحياتية عن طريق إقرار العلاقات التجارية [(١)]، فهؤلاء القوم الذين كانوا قد تعودوا على الطعان والنزال، وحملوا على كل ناحية طلبًا للماء والخبز. بدأوا بزعامة رجل مصمم محتاط ومتعقل وبعيد النظر اختراق كل ناحية، بل نقل حياة البداوة بكل ظواهرها إلى مختلف النقاط العامرة.

والجدير بالذكر هو أننا نرى أنه فى طول حكم المغول كانت الأصول الأولية للحياة القبلية تلفت النظر، ويجوز أنها كانت واحدة من الأسباب السريعة لزوال دولتهم ؛ ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يتوافقوا مع دنيا غير دنياهم البسيطة كما ينبغى ويكون، فيغيّروا محيط حياتهم أو بعبارة أفضل لم يستطيعوا الاعتياد على حياة المدنية أو أنهم لم يريدوا ذلك.

وتموچين الزعيم القبلى، وچنكيز الغازى قائد القبائل كانا سيّان فى الحالين، بل إن لهما نفس الأسلوب. ومرة أخرى عود إلى چنكيز [(٢)].

يروى أحد المؤرخين المعاصرين: "كان لچنكيز من العمر خمس وستون عامًا عندما جاء إلى خراسان، وطول فى القامة، ضخم فى الجثة، أبيض فى الشعر ماكر فى النظرة، غاية فى الصلابة والفراسة والتعقل والكياسة والهيبة، قاتل ومتوخ للعدل ومنضبط وقاصم للخصم وشجاع وسفاك للدماء".

---

(١) هذا هو ما يحدث فى عصرنا من قوى تقصد تحقيق أهداف تجارية من خلال التوسع أو فرض هيمنة اقتصادية .

(٢) كانت النظرة إلى چنكيز بين قومه هو وأسرته أنهم مبعوثون من لدن الله.
انظر: شيرين بيانى: دين ودولت، جلد اول، ص٢٧ ومابعدها، چاپ مركز نشر دانشگاهى تهران.

وأضاف فى إثر هذا الوصف أن هذا المعنى ظاهر للعالمين قاطبة، بل إن له عدة معانٍ ملفتة: الأولى أنه امتلك القدرة على المكر والاستدراج، والثانية أنه فى توخى العدل لم يكن أحد فى المعسكر بقادر على أن يلتقط سوطًا من الأرض إلا صاحبه، ولم يكن الكذب بممكن كى يتفوه به أى شخص....

وقبل أن يكون چنكيز غازيًا لإيران أو مخربًا وقاتلاً لآلاف الآلاف فى خراسان وما وراء النهر والعراق كان رجلاً ذا إرادة وعزم، متعقلاً ومدبرًا، وكما الجبل فى مواجهة المشاكل وهو قاسٍ وصعب وصلب فى مواجهة الأحداث. أما فى الحوادث الضارية فهو بعيد النظر وبارد الأعصاب، كما أنه بعيد النظر فى المسائل المهمة يتّبع النظام والقواعد الثابتة. وهو بالنسبة للأصدقاء والأتباع "كما النار فى يد والماء فى يد" بل نار ملتهبة إزاء الذين كانوا ينحرفون عن أوامره قيد أنملة، وكان رحيمًا مع المجموعات التى تخاطر بأرواحها فى سبيل طاعته حتى فى الهزائم مثلما حدث مع القائد الذى هُزم على يد السلطان جلال الدين وهرب من الميدان ويدعى "قوتوقونيان" قال له عوضًا عن سبه وتوبيخه: " اعتدت أن تعود فى كل وقت منتصرًا من المعارك ومواجهة الأحداث، ولم تذق طعم الهزيمة مطلقًا. من الآن فصاعدًا كن بعيد النظر ومتحوطًا أكثر فى عملك"، وهو فى المذابح الجماعية على الرغم من أنه كان منعدم العاطفة والرحمة ولم يكن يجيز التفرقة أو يخرج عن حد الاعتدال حال وجود أعمال مسيئة، أى إنه لم يكن يؤازر أفرادًا معينين لسبب خاص، ولم يكن يتراجع فى تنفيذ سياسته لعلة أو أخرى، ولم يكن يبالغ فى أعمال قذرة مثل باقى السفاحين الذين عرفهم التاريخ فلم يعرف شخص عن هذا السفاح الكبير أنه أقام منارة من الجماجم أو أخرج أعين أهل مدينة من مواضعها.

والعدل الذى نسبه الجوزجانى المؤرخ وما نقلناه فيما سبق عنه وتعجبه من عدله هو هذا الاعتدال والانضباط، وإلا كان من الصعب أن يقرن اسمه بالعدل من خلال سفك الدماء والتوطن معًا!

نقطة أخرى تلفت النظر هى أن تجهيزاته العسكرية كانت تختلف عن حملات قادة الأقوام المتوحشة الأخرى فلم يكن چنكيز ينهض لتسخير مدينة ما اللهم إلا إذا طرحت خطة الحرب تسخيرها من قبل، وتحرى القصد لطرق سهلة الوصول، وكان يكتسب معلوماته من متخصصين ومرشدين وتجار على الأخص.

وكان الأب قد فصل القتلى الذين لم يقبلوا الصُلح أى ضحايا الخوارزمشاه عن الملتحقين بأسرهم وجعل التجار المسلمين ينصرفون إلى إيصال الخبز بسبب قطع الطرق وحدوث الاضطراب ونزول البلاء عارفًا أو جاهلاً بما كانت عليه نية الخان، وقد كان هؤلاء الناس سواء تركًا أو طاجيكًا يتبعون الخان أو رعايا للسلطان المسلم أو نصارى من العوامل المهمة والمؤثرة فى تقدم الحرب وإزالة الموانع والمشاكل وإطلاع المهاجم على قوة الخصم وتسهيل فتح المدن والطرق وكيفية الهجوم أو الدفاع الخوارزمشاهى ومعدل استعداده وأدوات حربه. وحدث أن كان له فى مسيره فى كل مكان يد بين هذا الصنف من الناس خاصة التجار، ذلك أن الصينيين منهم من لم يكن له القدرة على مواصلة التجارة خارج سور الصين العظيم .

وقد كان الانتظام والأسلوب والثبات والإيمان والتحوط والمعرفة بنقاط الضعف لدى الخصم والنفوذ فى ثغرات الموانع الحربية بالإثارة والخداع أو إيجاد التفرق وسوء الظن بين قادة العدو وجنده والتخويف والوحشة من جيش چنكيز نصرًا مؤثرًا وحاسمًا فى إقدامه .

وغرضنا من بيان صفات چنكيز ليس هو المدح لأنه لو كان بريئًا من العيوب تمامًا كالملائكة فإن الضرر الذى أنزله سوّق الجيش وسفك الدماء وما أوجده هذا القائد لتلك الأقوام الصفراء الراغبة فى التدمير وشديدة البأس فى الممالك العامرة والدنيا المتحضرة يُعد كافيًا لأن نحكم بالبطلان على سجل أعماله، وما دامت الدنيا فلن ينسى الناس طوفان أحداثه التى أحدثها، وأسماها المؤرخون المعاصرون "الفتنة" وساقوا اللعنات عليه هو وسلالته. أما فى مقام أسباب انتصاره وتوفيق ثعلب الصحراء[1] وتبيان العلة فى هزيمة السلطان مالك الرقاب فى نصف الدنيا العامرة فنحن مضطرون أن نتحدث بعيدًا عن الحب والبغض الخالى من كل ميل وتعصب للغالب والمغلوب. وما من شك فى أن چنكيز كان رجلاً سفاحًا توسعيًا لا رحمة عنده، ولا يستوى فى نظره قتل شخص أو مجموعة فى مدينة أو تخريب قرية أو قرى، ولم يكن يختلف أمام سيفه امرأة أو طفل

(١) كأن چنكيز قد سبق مونتجمرى بمئات السنين فى فن الحرب فى الصحراء وحشد الجيوش وإعداد الكمائن بها، فليس الأخير هو من يطلق عليه هذا اللقب فى التاريخ لأول مرة.

صغير وكبير قادر أو عاجز. فهذا العمران الذى تخرب بأوامره وهؤلاء الناس الذين استشهدوا بسيفه لم يُعرف له مثيل فى أى عصر وأوان على يد فاتح .

ومع هذا الوضع ينبغى الاعتراف أن فتح جميع هذه الممالك وتسخيرها والسيطرة على هذا القدر من الديار الفسيحة لم يكن ميسورًا التعامل به مع أناس متنوعين وعقائد وسنن وأخلاق متفاوتة إلا بالكفاءة والكياسة والانتظام واللياقة وحسن التقدير، غير أن قسوة الخان وجبروته استمرت لحين إلى حد لم يحل دونه مانع أو حاجز فاتصل التخريب والدمار حتى إنه لم يحدث أن بوابة مدينة أو قلعة قد سدت فى وجهه.

ولم يكن باعث جنكيز هو حبه للتخريب أو سفك الدماء أو تشتيت الجيوش مثلما كان الحال مع بعض آخر من السفاحين، ذلك أن الغزو الجنكيزى نشأ من حياة قبلية متبدية وحاجات اقتصادية بما جعله يتقدم فى طريقه لتحقيق هذا الهدف.

ومن عوامل التوفيق للخان المتعطش للدماء بالإضافة إلى صفاته البارزة والواضحة، وبصرف النظر عن الخوف الذى كان قد أوقعه فى قلوب العسكر والطاعة التى كان الجميع يبديها لأوامره إلى حد أنهم كانوا يعدون الإعراض عن أمره جرمًا كبيرًا فالنظم والقوانين والياسا(١) التى وضعت على أساس عقائد وآداب الطوائف المغولية وعاداتها وتم تصويبها وإقرارها فى طوامير صوبها ووقعها فى كتاب "الياسا الكبيرة" نظر إليها المغول بقدسية كبيرة، كما لم يبق على شخص يقوى على عصيانها.

وحسن أن نعلم أن الياسا الجنكيزية تشمل أوامر وأحكامًا تتعلق بحشد العسكر وتجهيز الجيوش وتدمير البلاد ومصالح الملك وترتيب الشورى وأنواع العقاب وأسلوب الحياة المغولية فى التحرك والتوقف.

والخلاصة أن الرغبة الخفية فى سفك الدماء والمصحوبة بنصيب من التوسع المنتظر وتصميم من أهل الشورى ويقظة من المستبدين فى تصرفهم الذى بدا قاسيًا مشفوعًا بالألم معتادًا على الشدائد تحت قيادته جعلهم يتبعونه كزعيم وقائد، وكلاهما من النظم الراسخة والأوامر المتسقة غير القابلة للتعديل والقانون المبجل الذى جعلهم فى كر

---

(١) الياسا هى مجموع الأحكام المكتوبة بالخط الأويغورى التى أقرها جنكيز خان ويطلق عليها "نامه‌ء بزرگ" أى " الكتاب الكبير".

انظر فؤاد الصياد فى كتابه المغول فى التاريخ، ص٣٣٩، القاهرة ١٩٧٤.

وفر، وكذلك العوامل الاقتصادية والتجارية والحياتية وخصائص الحياة القبلية، وأنها دائمًا ترحل لتتبادل البضائع وتضع يدها على مساكن متسعة جديدة، كما أنها أوصلتهم إلى تتاخم دنيا عامرة وأخرجتهم من صحراء محرقة وبوادٍ متسعة ومجاورة للعمران والنعم.

صارت الإقامة فى جيرة المتمدينين والميل لعلاقات حسنة مع الممالك المجاورة ورواج سوق التجارة والتعامل فيها نتيجة حاسمة لهذه المقدمات. ولم يكن لدى چنكيز من حيلة إلا أن يخرج عن حدود اللياقة فى مواجهة فاتح مثل الخوارزمشاه يتجاوز الأدب من باب تطييب الخاطر ورعاية المودة. ولكن ما حدث أن الأمر تجاوز التطييب إلى الغلظة، وانتهى التعامل فى التجارة إلى قطع الرؤوس وهدم المدن. وصار الرفيق الباحث عن السلم عدوًا حقودًا، والمطالب التى تلى فى الفصل اللاحق تزيح الستار عن هذه الأسرار(١).

(١) لم يكن الخوارزمشاهيون قد استطاعوا أن يحوزوا شهرة كبيرة أو يضعوا جميع المناطق تحت نفوذهم ويكسبوا ثقة الإيرانيين بعد على الرغم من توسعهم خارج حدودهم الشرقية، فقد كانت النظرة عندئذ مبنية على أنهم أجانب مغتصبون فرضوا أنفسهم على الشعوب بالقوة. هذه النظرة الخطيرة لم تغرب حتى ذلك الوقت عن بالهم بل كانت من أسباب هزيمة الإيرانيين أمام المغول.

المبحث الثالث

لماذا ولى المغول وجوههم شطر إيران؟

فكر السلطان محمد الخوارزمشاه بعد أن تجول حربيًا فى آسيا الوسطى فى أن يفتح بلاد الصين، ولكن نمى إلى سمعه أن جنكيزخان قد سخر بكين عاصمة الصين الشمالية (الخطا) عام ٦١٥هـ/١٢٠٨م. ولمّا كانت صحة هذا الخبر مجهولة من ناحية، وأن الخوارزمشاه يطمح فى فتح هذه الديار من ناحية أخرى؛ فقد أرسل وفدًا بصحبة السيد الأجل "بهاء الدين الرازى" ليتثبت من هذا الأمر.

استقبل جنكيز هذا الوفد بحرارة، وأرسل برفقته التحف والهدايا الكثيرة لدى العودة وحمّله رسالة إلى الخوارزمشاه فحواها أنه راغب فى الصداقة والصلات الحسنة وبسط العلاقات التجارية وحرية التنقل للتجار فيما بين الجانبين وأن هذا هو غاية الأمل لدى القبليين المتصحورين بل شريان حياتهم الاقتصادية مما حدا بجنكيز إلى أن يرسل برسالة إلى الخوارزمشاه تقول: أنا الملك المشرق وأنت الملك الغارب، فليتك تحكم بيننا عهد المودة والسلم والمحبة ويأتى التجار ومعهم القوافل من الجانبين ويحضرون الغرائب والبضائع إليك من ولايتى ولبلادك نفس الحكم.

وكان تسيد جنكيز واقتداره وطاعة الطوائف والقبائل من حوله قمينًا بتنفيذ محتوى هذه الرسالة. ولمّا تقارب الطرفان الجنكيزى والخوارزمشاهى من بعضهما بسبب الفتوحات خاصة بعد زوال القراخطائيين[١] سطع هذا الأمل وتحققت هذه الرغبة، وذهب البعض من تجار المسلمين لدى جنكيز ليشترى بضاعتهم بسعر حسن، وأرسل جمعًا من تجاره أيضًا إلى خوارزم بهدايا نفيسة على سبيل التبادل.

---

(١) هم من الأتراك وكانوا يشكلون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولى تقع بين مملكة الخوارزميين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق وأصلهم من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين، وقد ورد اسمهم فى المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادى.
فؤاد الصياد، المرجع السابق، ص٢٢.

نزل مبعوثو چنكيز ورسله في خدمة الخوارزمشاه فيما وراء النهر، وكان من بينهم على خواجه البخارائي، ويوسف الأتراري ومحمود الخوارزمي الذي كان يحمل الرسالة، وقدموا على سبيل الهدية قطع الذهب والفضة ونوافج المسك والأحجار الكريمة وألبسة كانت تصنع من وبر الجمال البيضاء وتعلو قيمتها قائلين: ليصر معلومًا لكبير ديار الإسلام والعارف بعظمة الدائرة السلطانية وشأنها ووسعتها والمأمورة بقولك إننا رغّاب صلح، ولك أن تعرف كما يعتقد أغر أولادك أن الملك عارف أنني قد ملكت ديار الصين وجميع أطرافها من بلاد الترك. وأن القبائل في كل هذه الأنحاء قد أطاعت أمري، وأن بلادي مليئة بالعسكر وخصبة ولست في حاجة لتسخير بلاد أخرى، فإذا كنت ترى من المصلحة أن يستقر أسلوب الصلح والوئام، وينفتح طريق التنقل أمام التجار من الجانبين فإن نفعا زائدًا سيحل بالطرفين. إذن فقد أُهمل التوسع والغزو في رسالة الخان، ويمكن أن يبدو للنظر أن عظمة السلطنة وقدرها واتساع متصرفات الخوارزمشاه قد استوجب هذا الوئام، وينبغي أن تُعد حاجة المغول لرواج التجارة سببًا آخر.

ولا ينبغي أن يغرب عن البال أن السلطان محمد غضب في البداية من أن چنكيز كان قد عدَّه في منزلة الابن ثم استوضح محمودًا عن تعداد عسكر چنكيز واتساع ملكه. ومن سوء الحظ أن الخوف تملك محمودًا حينما ادّعى كذبًا أن النسبة بين عسكر چنكيز خان والخوارزمشاه هي نسبة القطرة للبحر، ومع هذا الحال لم يرفض السلطان مطلب السلم مع چنكيز. سعد خان المغول الذي كان قد نال مقصده من هذا الحسن في الوفادة، وظل السلم والصفاء متبادلاً بين الجانبين حتى وقت متأخر إلى أن ذهب عمر خواجه الأتراري وجمال المراغي وفخر الدين البخاراتي وأمين الدين الهروي وجمع آخر من التجار الذين تراوح عددهم بين أربعمائة وخمسين إلى خمسمائة شخص إلى أترار للتبادل التجاري.

كانت أترار(١) مدينة في مقدمة ديار الخوارزمشاه ويحكمها ابن خال السلطان محمد تحت حماية تركان خاتون أم السلطان وكان يسمى غاير خان أو اينال خان أو ينال خان(٢).

---

(١) وعد الله هذه المدينة بالشهرة، فكما كانت منطلقا للغزو المغولي مات بها تيمور عام ١٤٠٥م وهو في طريقه لمحاربة ملك الصين.

(٢) يحتمل أن يكون غايرخان لقبًا وينال خان اسمًا أو بالعكس أو كما كتب المؤرخـــون المعاصـــرون أن اسمه ينالحق المعروف بـــ غايرخان. (المؤلف)

طمع هذا الحاكم فى أموال التجار المذكورين، وكتب رسالة إلى السلطان، وادّعى كذبًا أنهم جواسيس، وأنهم جاءوا لجمع أخبار عن المملكة وليس للبيع والشراء وأنهم يخوّفون العامة سرًا بما يستتبع فتنة كبيرة وسيأخذكم منهم بلاء لن تقووا على منعه. دفع الأمير بكلامه المعسول السلطان محمد إلى أن يسمح له بوضع متاعهم وأموالهم تحت المراقبة أو على حد قول المؤرخين طمع فى أموالهم، وما إن منحت له هذه الإجازة سلك مسلكه أخذًا وتقتيلاً ونهبًا لأموالهم، فقد نجا أحدهم، وأوصل الخبر إلى جنكيز.

طلب خان المغول من السلطان أن يرسل غايرخان إليه إلا أن الخوارزمشاه امتنع عن تسليمه للقرابة بين حاكم أترار وأمه تركان خاتون المتنفذة من جهة، وأن أغلب العسكر الترك من قبيلتها وفى نفس الوقت من أقرباء غاير خان "ينال خان" من جهة أخرى. وبالإضافة إلى ذلك ظن جهلاً أنه إذا قال كلامًا ناعمًا ولطيفًا فى الرد على جنكيز، واعتذر عما حدث فسيزيد هذا من طمع خان المغول فى مملكته بينما كان العقل السليم يقتضى فى أن يحصل جنكيز على تعويض عن سوق البيع والشراء أكثر من تسخير المدن والقلاع.

وصلت الأمور إلى أن أمر الخوارزمشاه المتهور أدى إلى أنهم قتلوا أحد ممثلى جنكيز. ويقال إن الحيلة الظاهرة فى هذا العمل القبيح تتمثل فى أن ابن "كفرج بغرا" كان مسلمًا وابنًا لشخص كان قد ارتكب خيانة فى منصب عسكرى على عهد السلطان تكش الخوارزمشاهى ومعه مبعوثان آخران من التتار.

والحاصل أن الخوارزمشاه أثار حفيظة جنكيز والقبائل الرحل والعنيفة والفقيرة بهذا العمل الشؤم والأبله للهجوم على الديار العامرة، فتحركوا بالسرعة التى كانت من صفاتهم البارزة وبانضباط منعدم النظير والذى كان يبدو فى "ياساتهم" التى كانت فى حكم كتاب سماوى، وأن الجنة قد ظهرت لهؤلاء القوم أمامهم بينما الجحيم المحرق والبائس من خلفهم.

على هذا النحو عبر التتار بلاد الإسلام، ولم يتركوا شيئًا من شدة القتل والتخريب، ولم يغرسوا فسيلة فى ركن، ونهبوا الثروات، وأغرقوا الناس فى الدماء فلم يعد غير البوم

ينعق ناعيًا هذه المصيبة المفجعة، ولم يدعوا فى الديار ديارًا كى يقوم بالتعزية فى هذا المأتم (١).

سقط المسلمون ضحايا، وسالت دماء الأبرياء فى كل شبر، وامتدت يد چنكيز المتعطش للدماء انتقامًا، ومحيت حياة سكان مدينة مقابل تترى قتل وانبعثت فتنة لم يكن قد سمع بها شخص فى أى زمان ولم تكن قد خطرت بذهن بشر.

بدأ چنكيز لدى الحرب فى دفع كوچلك خان فهزمه وقضى على دولته عام ٦١٥هـ/١٢١٧م، وأدخل كل ترك التركستان الشرقية فى طاعته. ولما لم يكن له علاقة بمذهب الناس وآدابهم، ولم يكن يرى مانعًا من حرية المذاهب، فقد أعز المسلمون مقدمه، ولم يضعوا المصاعب فى سبيل تقدمه، بل إنهم كانوا سعداء بهذا التقدم، فهم بذلك يتخلصون من ظلم الخوارزمشاه ونزاعاته مع كوچلك خان وكورخان الخطائى(٢). أخاف وصول خبر هذه التقدمات الخوارزمشاه بشدة سواء التخوف بكل ما لديه من قوة وعسكر من مواجهة كوچلك خان أو الهزيمة بهذه السهولة. وهو ما أفهمه به قائد تترى من أن قدرة خان المغول الحربية أكثر من تلك التى ظنها، والأهم من هذا أنهم قد ذكروا له كلامًا معسولاً وأن الخوف الذى كان قد استبد بقلبه من حرب جوجى بن چنكيز قد بدا من جديد.

---

(١) يقول ابن الأثير كمؤرخ معاصر فى هذا الصدد "وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى". انظر الكامل فى التاريخ، المطبعة الدمشقية والمكتبة التجارية، القاهرة ١٣٤٨-١٣٥٨هـ، ج١١، ص٢٤٢ .

(٢) كان كوچلك خان هذا فى أول الأمر مسيحيًا ولكنه اعتنق الوثنية فى بلاد القراخطاى ويحتمل أن تكون الوثنية هنا هى البوذية، وكان استيلاء كوچلك على بلاد الكورخان فى عام ١٢١١م؛ أى قبل أن يخرج خان سمرقند على الخوارزمشاه الذى ما لبث أن حارب كوچلك حربًا غير موفقة. فقد روى ابن الأثير وياقوت أنه اضطر إلى أن يترك لكوچلك بعض ممتلكاته ومنها اسفيجاب (سايرام) وطشقند والقسم الشمالى من فرغانه، ويقال أنه دمر هذه البلاد قبل انسحابه وأنه سحب معه سكانها. انظر: و. بارتولد فى كتابه تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، ص١٥٧، القاهرة ١٩٥٨م.

المبحث الرابع

هجـــوم چنكيـــز

هاجم چنكيز الممالك الخوارزمشاهية بعد تهيئة العمل واستكمال الاستعداد بجيش كان قوامه – كما يقول الباحثون المحدثون – بين مائة وخمسين إلى مائتى ألف جندى من الوادى الأسفل لنهر سيحون وحواليَّ بحيرة الآرال.

كانت السرعة فى الحركة والمهارة المتميزة فى التجهيز والإنجاز فى نصب الخيام والمقر الرئيسى وإنزال الأغطية فى فترة وجيزة بالإضافة إلى تجميع الآلات وعتاد الحرب مع أسباب العيش وفك الخيام المنصوبة والاستعداد للكر والفر فى زمن مختصر من خصائص هذا الجيش الضخم. وكانت المصاعب وتحمل البلاءات والمواجهة فى الشدائد والتعود على الانضباط والانصياع لأوامر قادة الجيش ميزة أخرى تحسب لهم، إذ كان هؤلاء القوم طوال حياتهم يتحركون فى إثر المعارك أو يتجولون فى الصحراء حينًا أو الصيد حينًا آخر وحينًا ثالثًا فى مداهمة المدن وسكانها إلى حد أن هجوم هذه الجماعات الخطيرة لم يطلق عليه "الفتنة" عبثًا.

ذات مرة صفَّ قائد عسكره أمام قلعة مدينة أترار فى شهر رجب عام ٦١٦ هـ/١٢١٩م، ذلك أنه كان يستمد معلوماته بكل تبصر وذكاء عن طريق التجار وأهل الخبرة ويتقدم بتحوط فى طريقه لفتح البلاد ودحر العدو، ولم يكن يهدأ فى إيقاع الفرقة والتحزب بين أفراد جيشه .

بذلك كان خان المغول مطلعًا على ضخامة الجيش واستعداده الحربى، وكان يعلم أن السلطان يعتمد على الممالك العامرة والآهلة بالسكان، وأن أوامره سارية فى شرق أقاليمه وغربها، وبناء على ذلك فقد صمم على أن يقسم جيشه إلى عدة مجموعات، ويحارب فى أكثر من جهة، وحتى لا يقطع عسكر السلطان طريق العودة عليه فجأة، ولا يسمحوا له باتصال مع موطن إقامة القبائل التترية. كان لابد من عدة جبهات حربية واستطلاعية. هذا الأمر يثبت أنه كان يدرك خطر إقدام عمله العجيب، ويعرف أنه إن لم

يقترن هجومه بالسرعة، وإن لم يسخر المدن بمنع خطر الحصار الحربى وقطع الطريق عليه فسيكون الخروج من الفخ الذى نصبه بيديه من باب المستحيل.

وينبغى أن نلتفت إلى أن هدم المدن فيما وراء النهر التى كان چنكيز يخلفها وراء ظهره لم يكن إلا من باب الحقد والانتقام الذى كان سببًا فى سوق الجيش، كما أن خان المغول لم يكن يخشى من أن يقطع علاقته بدياره الأصلية ولو مؤقتًا بتخريب المدن وقتل أهلها ومحو الآذوقة والعلوفة؛ ذلك أنه كان فى كل خطوة يتخذها وكل قلعة ومدينة يسيطر عليها يضع يده على كل نبت ويابس فلم يكن يتحمل ضيقًا فى المرتع وقلة فى الأرزاق ونقصًا فى معدات الحرب بما يؤثر فيه توترًا أو قلقًا؛ فخشيته كانت فى أن تأتيه ضربة من الخلف، أو أن ينحصر بين قوات الخوارزمشاهية الفتية فتغلق عليه طرق العودة.

وكان يصحب معه بعد تسخير كل مدينة أولئك الذين قد سلموا؛ كعسكر يحملهم فى أسوأ وضع برفقته. وهذا العمل كان يبدو فى الظاهر أنه خدعة من حيل الحرب حتى يظن الخصم أن الجيش المهاجم من الضخامة بمكان. غير أن تفكيره كان ينحصر أصلاً فى أنهم قد يلتفوا حوله ويسدوا عليه طريق العودة فجأة. وبناء على ذلك كان لابد أن يرحلهم معه إلى كل ناحية من ديار التتار أو يستخدم بعضهم كحرفيين وعمال يدويين، ويعهد بالباقى كعاطلين وعاجزين إلى الجلادين حتى يريقوا دماءهم. وكما أشير فقد قسم خان التتار جيوشه منذ بدء الهجوم على الممالك الخوارزمشاهية إلى عدة مجموعات؛ مجموعة برفقة أبنائه " اوكتاى وچغتاى" لفتح أترار، مجموعة بقيادة "جوجى" الابن الآخر للهجوم على البلاد الواقعة على ساحل نهر سيحون. ومجموعة ثالثة برفقة واحد أو اثنين من القادة للزحف على عدة مدن فيما وراء النهر، بينما قصد الخان نفسه مع القسم الأعظم من الجند، وابنه الرابع "تولى" إلى بخارى حتى يغلق طريق العودة على الخصم. وبدون شك توجه چنكيز فى حربه إلى نقاط متعددة لا يقصدها الخوارزمشاه لا بقصد مواجهته، بل ليجمع عسكرًا كثيرًا فى نقطة ويحمل عليه. كانت العيون قد أخبرت خان المغول أن السلطان قد نشر جيشه الكثيف بين المدن والقلاع والحصون والبلاد. ولكن هذا الانتشار الحربى على هذا النحو فى جميع البلاد كان يؤمّن خان التتار من حرب ضروس فى

صحراء شاسعة من جهة، ويقلق خاطره من أن يواجه جماعات عدائية مختلفة من جهة أخرى[1].

وهو دائم التفكير فى أمر الحصار والحرب والتقدم والهجوم والسحق والمذابح والتهجير. ومثل چنكيز فى هذا مثل بقية الجبارين المتلاعبين على صفتين؛ سوء الظن والخوف والتخوف من أن لا يغزو، أو أن لا يستطيع العودة إلى دياره مرة أخرى؛ وسوء الظن من أن ينشط كلٍ من الخادم والخائن للعمل. هاتان الفكرتان كانتا مبعث قلقه، بل كان يأخذهما فى اعتباره كل وقت لرفع الخطر المحتمل. أحدهما سرعة التحرك والآخر إيقاع الخلف بين قادة الخوارزمشاه والتخوف من السلطان والعكس صحيح. وسنتناول نتائجه السريعة فى تسخير المدن اختصارا، أما الأصدقاء الأوفياء والمطيعون لچنكيز فلهم دخل مباشر فى حدوث هذه النتائج الموفقة، ولم يكن لدى چنكيز أى تخوف من ناحيتهم. وعن أولئك الترك الذين كانوا يخدمون السلطان ويرتبطون به؛ فعلى الرغم من كل الخدمات والنصائح المفيدة التى كانوا يسدونها لم يكونوا ليستطيعوا أن يبعدوا فكر خان التتار عن سوء الظن اللهم إلا إذا أشاح شخص بوجهه عن سيده؛ أى الخوارزمشاه ولاذ بالعدو وحنث بالعهد وخان سيده الجديد.

نعم؛ كان هذا محتملاً حتى إنه بات من الممكن، وعلى الأقل من رجل يتحوط مثل چنكيز الذى لم يكن ليغفل عن هذه النقطة، ولم يكن عبثًا أن يفتح الكثير من القادة الخوارزمشاهيين والترك بوابات المدن فى وجه المغول، أو لا يثبتون فى الحرب ويستسلمون له عن رغبة، ولم يبقوا بعد على الفراغ من غائلة الحدث وخضمه، وينقذوا أنفسهم بهذا الجرم الخائن من حد السيف وكانت حجتهم فى الظاهر منطقية؛ بل إنهم كانوا يقولون إن مثل هؤلاء الأشخاص الذين لم يحافظوا على عهدهم مع ولى نعمتهم، ومارسوا الخيانة مع الأجنبى وكأنهم قد نظروا إلى المصلحة فكيف يتأتى لهم أن يكونوا قلبًا واحدًا؟، وكانت هذه فى حد ذاتها حقيقة وواقعًا؛ لأن أكثر الأشخاص الذين ارتبطوا بالمغول وصاروا مرشدين لهم وخانوا بيوتهم وديارهم لم يفعلوا هذا الأمر بقصد الانتقام من السلطان محمد فقط، بل لأن السلطان كان قد ظلمهم وساق جمعًا من كل أسرة إلى التهلكة،

---

(١) كأن أساليب الحروب لم تختلف على مدى العصور، وإنما تختلف بأدواتها وإمكاناتها. فالذهن البشرى هو فقط يضعف ويقوى بالتقدم الذى يحققه عصر دون آخر.

وقد ذكر فى التاريخ عن هؤلاء من خلال شرح لأعماله بحدة وبما أثر كثيرًا فى تقدم جنكيز بما يحسب على أنه من العوامل المهمة فى هزيمة الخوارزمشاه. والقصة هى ما يلى:

لدى هجوم الخوارزمشاه على أترار، قُتل أفراد من أسرة عميد؛ أى: أبو وعم وأولاد أعمام بدر الدين عميد على يد السلطان، فأخذ بدر الدين فى نفسه حقدًا عليه من هذه المذبحة وهلاك كثرة من أفرادها وذهب إلى جنكيز بعد استيلاء التتار على أترار وقال له فى خلوة: "ليس فى قلبى مكان لحقد على أى شخص مثل ما على السلطان محمد لأنه قضى على أسرتى وأهلكها فإذا منحتنى الأمان انتقمت ولن أكون آسفًا". وعندئذ ظهر رجل متنفذ من جانب صفى الأقرع وزير السلطان فى بلاد الترك فى ذلك الوقت مرشدًا، وأطلع جنكيز صادقًا أن الخوارزمشاه سلطان كبير وقادر، ولا ينبغى أن يغتر الخان بأن جنده موزعة فى أنحاء البلاد، وأرشد خان المغول بأن عليه أن يستخدم حيلة، ويغيِّر قلب السلطان على قادته، ثم أطلع جنكيز خان أن كدرًا حدث فى العلاقة بين السلطان وأمه تركان خاتون. ولما كان أغلب قادة العسكر السلطانى تركًا من أتباع قبيلتها، فإن من المصلحة أن تُكتب رسائل مزورة بلسان الأمراء من أقارب "تركان خاتون" تخاطب جنكيز قائلة إن غرضنا من الارتباط ببلاط السلطنة كان بقصد خدمة أم السلطان، وهكذا فعلنا ووسّعنا ممالك الخوارزمشاه، أما وقد نحت العلاقة بين السلطان وأمه نحو الكدورة وأنها لا تطيع أوامره، فأمه تأمرنا أن نترك خدمته، ونتفرق من حوله ومع هذا الحال ما أفضل أن نلتحق بخدمة الخان، وننصاع له.

اقتنع جنكيز برأى بدر الدين، وكتبوا هذه الرسائل ووزعوها. وهكذا قرروا أن حملة مثل هذه الرسائل تكون بيد الجواسيس والمضارين وبعض من أتباع السلطان ولكن بأسر الموفدين بها وبكشف مضمونها غضب السلطان على كثير من قادته الأتراك فقد كان أغلب جنده الترك من القبائل المرتبطة بـــ "تركان خاتون"، ومن ناحية أخرى فإن القادة الذين كانت الرسائل قد زُيفت على ألسنتهم خشوا على أنفسهم. ونتيجة لهذا التدبير، فإن إيقاع الفرقة بين أفراد الجيش وتخوف السلطان من القادة وضعف الأمراء وجبنهم قد ثقل عليه بينما أفاد جنكيز كثيرًا من هذه الوحشة والظن السيئ والتفرق بين القادة.

لنترك مواجهة الخوارزمشاه ضد جنكيز إلى موضع آخر، ونتابع حملة جنكيز حتى

ظهور السلطان جلال الدين .

المضمون - كما قلنا - شرع "چغتاى" و"اوكتاى" فى فتح مدينة أترار، وقد قاومت هذه المدينة أكثر من مدن ما وراء النهر الأخرى، إذ طال حصارها خمسة أشهر؛ لأن غاير خان (ينال خان) حاكمها الذى كان قد صار سببًا أو ذريعة لحملة چنكيز لم يكن يميل بأى نحو أن يستسلم للتتار، وبناء على ذلك شرع فى المقاومة بالجيش الذى كان بمكنته والمساعدة التى أرسلها السلطان. ولكن خانه فى النهاية "قراچه خاص"[١] أحد قادة الجيش الذى كان قد جاء للمساعدة، وعهد بالمدينة إلى العدو[٢].

لجأ الحاكم الشجاع إلى قلعة المدينة، وجاء بقدر ما معه من صديق ورفيق، وفى النهاية بقى وحيدًا وظل يدافع[٣] إلى أن أسر فقد كان الأمر أن يمسكوا به حيًّا. وأرسلوه إلى سمرقند، وفى مكان يسمى "كوك سراى" صب التتار فضة منصهرة فى أذنيه وعينيه، وقتلوه تعذيبًا .

أخذ "جوجى بن چنكيز" و"آلوش أيدى" قائد التتار وجيوشهما مدينة "سقناق" التى كانت تقع على بعد أربعة وعشرين فرسخًا من أترار فى البداية ثم خربوها. وفى صفر عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م حاصروا مدينة " جند " واستولوا عليها، وفتح قائد آخر مدينة "كنت" فى هذه الأثناء، وتحرك آلوش أيدى إلى ناحية "قراقورم"، وتحرك الآخرون إلى جرجانية عاصمة خوارزم [٤].

وصدرت الأوامر لخمسة آلاف من العسكر بتسخير مدن خجند[٥] وبناكت "فناكت"[٦] وفرغانه فيما وراء النهر، وكان الأغ نويان قائدًا لهذا الجمع. قاوم "ايلينكو ملك" أمير بناكت ثلاثة أيام ثم استسلم، وكانت أوضاع البلاد الأخرى مثل سابقتها، فقط قاومت مدينة خجند من بينها مقاومة شديدة على يد "تيمور ملك" حاكمها الذى كان من أشجع

---

(١) شغل هذا القائد منصب إمارة السند.
(٢) هذا تمامًا ما حدث فى حرب العراق مع فارق الزمن.
(٣) لعل هذا الصنيع منه يفسر ما بدر فى حادثة أترار.
(٤) فؤاد الصياد، المرجع السابق، ص ١١٤.
(٥) هى مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها وانتعاش التجارة فيها، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم.Hawcrth :history of the Mongols purt I.P. 77
(٦) هى مدينة على ساحل نهر سيحون .

أمراء الخوارزمشاه وشرح بطولاته واحدة من قصص تاريخ إيران الجميلة، ومهما كان رأينا على نحو الاختصار فليس سيئًا أن نفصل القول فى هذا المجال فذكرى الرجال الشجعان من كل مكان وفى كل زمان وبأى لغة تكون أمرًا محببًا للنفوس.

قتل "تيمور ملك" فى خجند كثرة من المغول بعسكر قليل لشجاعته. وفى مكان يتفرع فيه حوض نهر جيحون إلى شعبتين وجدت له قلعة محكمة فكان أن صنع اثنى عشر زورقا مغطاة، وجعل الغطاء أكثر سمكا ودهنها بالطين والخل بحيث لا تؤثر فيها النار والسهام، وجعل على جسم كل منها كوات، وكانت ستة زوارق تذهب يوميًا إلى ناحية تحارب فيها، وتهلك جمعًا من المغول واضطر تيمور ملك أن يفر ببقية من جنده إلى "بناكت" عن طريق الشاطئ، وكان المغول قد نصبوا جنزيرًا وسط الطريق فى حوض النهر يمنع مسير الزوارق فضربه تيمور ملك وواصل مسيره، وكان يقتل التتار على الجانبين بسهمه الذى لم يكن يخطئ الهدف أبدًا، وبهذه الصلابة وتلك الشجاعة وصل إلى "بناكت" حيث اتجه منها إلى خوارزم، وانضم من هناك إلى السلطان جلال الدين، وقضى معه وقتًا. ويقولون إنه عندما نزل من الزورق ودلف إلى خوارزم محاربًا قتل رفقاءه فردًا فردًا، وكان ثلاثة من فرسان العدو يتعقبون جواده وقد تبقى معه ثلاثة جعب لأسهم يفتقد أحدها مقدمته فطمس بهذا السهم عين مغولى وقال للآخرين ها أنذا وجعبتين وأنتما اثنان لا أكثر، فإذا كنتما حريصين على أرواحكما ارجعا، فرجع هذان الفارسان التتريان خوفًا على روحيهما .

رياح تهب:

سلك "چنكيز" و"تولى" وأغلب العسكر طريق بخارى، وعبروا سيحون، واستسلمت لهم حصون "زرنوق" من قلاع شمال بخارى وبعدها قلعة "نور" على بعد اثنى عشر فرسخًا من المدينة، ووصلوا فى الأول من ذى الحجة عام ٦١٦هـ/١٢١٩م على مقربة منها حيث استسلمت بعد ثلاثة أيام من حصارها؛ وبذلك توغل المغول فى أكثر مدن ما وراء النهر عمرانًا. ولما كان حراس حصن المدينة قد قاوموا بعنف فقد أمر چنكيز بإشعال النار فيها وساعد على اشتعال النيران أن بيوتها من الخشب ما عدا عدة مساجد ومبانٍ من الآجر، من هنا لم يبقَ فيها شيء. وفى رواية معاصرة وناطقة عن غزو بخارى فى كتاب:

"جهان گشا: فاتح العالم" للجوينى منقولة بأجمع ما يكون وصفًا وبيانًا: أن رجلا قد جاء إلى خراسان هاربًا من بخارى بعد واقعة چنكيز المرعبة: فقال مجيبًا على هذا السؤال "ماذا فعل التتار بأهل بخارى؟"

"جاءوا واجتثوا وحرقوا وقتلوا وحملوا وذهبوا" ثم إنه بعد تخريب بخارى وحرقها كان أن سأل الإمام جلال الدين من كبار الأشراف والزهاد ركن الدين إمام زاده الذى كان من أفضل علماء الدنيا: "مولانا! الحال ما هو؟ إن ما أراه يارب علم أم حلم!"

فكان أن قال مجيبًا: "اسكت؛ الرياح التى تهب دون أمر من خالقها ليست محلاً للكلام". والعجيب أنهم ذكروا أن چنكيز نفسه ذهب إلى منبر فصلى العيد، وكان أن قال بعد ذكر أعمال السلطان محمد:

"أيها القوم؛ اعلموا أنكم قد اقترفتم ذنوبًا عظيمة، وأن كباركم مقدمون فى الذنب، اسألونى، ما دليل هذا الكلام؟ أقول: السبب هو أننى عذاب ربى، فإن لم تأتِ ذنوب عظيمة منكم لما أرسلنى الله عذابًا نازلاً برؤوسكم..."

اتفق أن حمل چنكيز على سمرقند من بخارى مصطحبًا معه البعض من أهلها فى مذلة شديدة حتى يتصور السمرقنديون أى جيش ضخم هذا. وحدث أن هذا الترتيب بات ذا تأثير؛ فقد أضعف ثبات الجيش المدافع والبالغ ستين ألفًا من حملة السهام والحراب وخمسين ألفًا من ترك وتاجيك.

وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف السمرقنديون عن المقاومة إذ خرجوا من المدينة حاملين على جيش چنكيز وضغطوا مدافعين، غير أن المدينة فتحت فى النهاية فى شهر المحرم عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م، وصدر فرمان تخريبها وسفك دماء أهلها، واستوت هذه المدينة العظيمة مع بخارى، وسويت قلعتها المحكمة وخندقها العميق وحصونها بالأرض.

وعلى أثر فتح سمرقند وزع چنكيز جيوشه على عدة محاور، وكلف كلاً منها بتسخير ناحية من النواحى؛ فعهد إلى "آلاغ نويان" بتسخير وادى جيحون الأعلى، واتجه "چغتاى وأوكتاى وجوجى" صوب جرجانية عاصمة خوارزم، وبقى چنكيز نفسه حوالىّ "نخشب" حتى تستريح الجياد ويستعد الجيش لهجوم جديد، وأرسل قادته الثلاثة المعروفين "يمه (جبه) وسيتاى وتغاجار" على رأس ثلاثين ألف فارس لتعقب الخوارزمشاه، وأصدر

أوامره بألا يتوقفوا عن التحرك حتى يجدوا السلطان محمد، وسنتحدث عن هذا الجيش الأخير قريبًا. وأيًا ما حدث فى فتح خوارزم بعد وفاة السلطان محمد وخروج السلطان جلال الدين ولكونها من الحروب المهمة فسنسوق الحديث عنها اختصارًا لما لاقاه جنكيز من مواجهة مع جلال الدين.

فتح خوارزم:

كانت خوارزم تحت حكم أم السلطان محمد بتسلط قبيلتها من الترك القنقلى كاملاً على شئون الحاضرة، أرسل جنكيز سفيرًا إلى تركان خاتون إلا أنه لم يتوافر لديها الثقة فى كلامه فى الوقت الذى سمعت فيه أن الخوارزمشاه قد عبر جيحون وتوجه إلى خراسان، فحملت الخزائن وخرجت من خوارزم التى اختل أمرها بالخروج منها. وفى هذه الأثناء مات السلطان محمد أيضًا وواجه جلال الدين الذى كان قد جاء إلى خوارزم سريعًا؛ ليحارب المغول، معارضة الأمراء والقادة الترك المؤيدين لأخيه فى ولاية العهد، ولكنه عاد مضطرًا إلى خراسان ذلك أن بعضًا من أمراء الخوارزمشاه مثل "أربوقا بهلوان" و"على كوه دروغان سپهسلار" و"اغل حاجب" كانوا قد نادوا من يدعى "خمارتكين" سلطانًا واستعدوا للدفاع بجيش قوامه تسعين ألفًا من الترك القنقلى. وطالت فترة الحصار للمدينة من شهر ذى القعدة عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م إلى صفر ٦١٨هـ/١٢٢١م؛ أى ما يقرب من أربعة أشهر. وعلى الرغم من أن "خمارتكين" قد استسلم، إلا أن الحرب قد أدت بالتتار مضطرين إلى أن يفتشوا المدينة ضاحية ضاحية منزلاً بمنزل ليخرجوا أهلها الشجعان المتحصنين من ناحية ويغرقوا جزءًا منها بالماء عن طريق كسر كانوا قد أحدثوه فى سد جيحون من ناحية أخرى، وبهذه الطريقة سُويت أحياء المدينة بالتراب إلا ثلاثة لجأ إليها الناس غير أن الزحام الذى حدث والنقص الذى وقع فى الطعام أدى إلى استسلام اللاجئين، واستبقى قائد المغول جمعًا من أرباب الحرف هجّرهم إلى الممالك الشرقية، ووزع الباقين على جنوده سفكًا لدمائهم، ويقولون إن كل أربعة وعشرين خوارزميًا كانوا يركعون أمام تترى، ولم تعد جرجانية على ما كانت عليه ازدهارًا وعمرانًا وازدحامًا واعتبارًا وحكمًا، وقضى على المنطقة الواقعة بين سواحل سيحون وعراق العرب والخليج الفارسى وما وراء القفقاز. هذا والمجال مهيأ لأن نرافق السلطان محمد الخوارزمشاه فى رحلته الأخيرة من وراء النهر حتى جزيرة آبسكون.

مع السلطان محمد الخوارزمشاه:

لم يستطع الخوارزمشاه - على الرغم من قول المؤرخين وتحقيق الدارسين إن عدد جيوشه كانت أكثر من جيوش چنكيز ويعتمد على ممالك عامرة وحصون محكمة وقادة مهرة بجنودهم المحتشدة فى أنحاء المملكة والمستعدة للحرب وبالوفرة فى العتاد الحربى - أن يمنع الجيش المهاجم بكل هذه القلاع والحصون بسبب اختلاف الآراء بين القادة فى كيفية المواجهة مع العدو علاوة على نفوذ الترك صنائع وأعوان أمه "تركان خاتون"، كما أنه لضعفه وتخوفه وزع جنوده فى المدن، وشرع فى الانسحاب دونما سبب أو من الأفضل أن نقول إنه ولى وجهه شطر الهرب .

ولدى شروع چنكيز فى تسخير مدن ساحل سيحون عسكر السلطان محمد فى "اندخوذ"[١] و"كالف"[٢] ولكنه بهت عندما سُخرت بخارى، وترك ما وراء النهر، وسلك طريق خراسان. وفى هذه الأثناء تخلى عنه سبعة آلاف جندى من الترك القراخطائيين والتحقوا بچنكيز، وأقام السلطان فى بلخ بضياع ما وراء النهر. ولما كان غارقًا فى التفكير والقلق من تقدم التتار وعرف أن الخصم بصدد الاقتراب عزم على التوجه إلى العراق بدعوة من ابنه "ركن الدين غورسانچى" الذى كان يقيم فيها عساه يجد وسيلة وفرصة هناك لمنع تقدم المغول غير أن هذا العزم من جانبه بإغراء من "عماد الملك محمد بن سديد الساوجى" صاحب العراق لم يأتِ بنتيجة. وعلى هذا النحو فإن هذا الرجل الذى كان ركن الدين قد أرسله إلى بلاط الأب هو فى الظاهر لدعوة السلطان، وفى الباطن لإبعاده عن العراق. أما عماد الملك الذى عاد إليها ثانية فقد كان يرى أن السلطان متعجل ومضطرب من اقتراب التتار ومن ثم شجعه على هذا العزم، وخدع السلطان بكلامه المعسول واعتقد أن فى العراق ما يمكن أن يكون تعويضًا لما فات والتئامًا للهزيمة على نحو أفضل وتخليصًا للمدن المحكمة والرجال المحاربين. فذهب إلى خراسان يائسًا ومأخوذًا. وهكذا كان يتنقل سريعًا إلى حد أنه لم يمكث فى نيسابور إلا ساعات. وفى مدينة بسطام أمر أن يحملوا صناديق جواهره وخزائنه إلى قلعة "أردهن" ويقولون إنها أرسلت إلى چنكيز بعد فتح القلعة المذكورة. وفى أثناء التحرك من بلخ عزم جمع من

---

(١) من مدن ما بين بلخ ومرو.

(٢) قلعة محكمة على بعد ثمانية عشر فرسخا من بلخ.

زعماء الترك الذين كانوا من أتباع تركان خاتون على قتل السلطان، واتجهوا إلى خيمته بهذا القصر إلا أن شخصنا أبلغ السلطان بقصدهم فبدّل مكانه وغيَّر مخدعه وأحدث الأمراء ثقوبًا في خيمته. وعندما أدركوا في الصباح الباكر أن السلطان لم ينم ليلته هناك فروا هاربين إلى جنكيز. وهنا تيقن للسلطان معارضة الأمراء، ورأى مصلحته في تفريق جمعهم من جهة، وعزمه على التوجه للعراق من جهة أخرى وبتعبير أفضل زادته هذه الحادثة اضطرابا وخوفا فغادر نيسابور وبسطام إلى الرى. وعندما سمع أن ابنه ركن الدين تمركز على رأس ثلاثين ألف جندى في قلعة "فرزين" من قلاع مدينة "الكرج" (كره رودارك) خفَّ إليه. وكما قلنا كان جنكيز قد وجه ثلاثة من قتدته "جبه نويان" و"ستياى بهارد" و"تغاجار نويان" إلى خراسان لتعقب الخوارزمشاه قائلاً لهم: "لا تعودوا طالما لم تحصّلوه وإذا حدث ولم تستطيعوا الثبات في مواجهته فلتبلغوني في التو والحال عن الموقف." والواضح أن جنكيز كان يعرف باضطراب الخوارزمشاه ويأسه ويدرك حيرته ويتوقع هربه من تواتر الأخبار. والحاصل أن قادة التتر الثلاثة وصلوا إلى نهر جيحون في ربيع الأول سنة ٦١٧هـ/١٢١٧م وعبروه واندفعوا صوب هرات بعد تسخير بلخ فكان أن دخل حاكمها في طاعة جنكيز مسبقًا وصار من زمرته، ولم يكن للمغول عمل في هرات ومن ثم تحركوا ناحية طوس، وهناك سلك "سيتاى" محور سمنان ودامغان بينما ذهب "جبه نويان" صوب مازندران ثم وصل إلى الرى بعد تخريب هذه الأنحاء خاصة في "آمل" وانضم إلى معسكر "سيتاى" واندفع الاثنان في أثر الخوارزمشاه الذى كان قادرًا في العراق بمساعدة ابنه وجنوده على أن يهزم العسكر المنهك لـــ "جبه نويان"، "سيتاى" غير أن الخوف من المغول كان قد زلزل ثوابت المواجهة، ولم يكن سوء تدبيره ويأسه يسمح له أن يفكر على نحوٍ صائب وأن يستفيد من الفرص. وعندما جدَّ في الفرار أرسل الحريم برفقة ابنه الآخر غياث الدين إلى قلعة قارون من القلاع الداخلة في البرز ثم أمر أن يأتى أتابك اللر[1] "نصرة الدين هزارسف" إلى البلاط. ورأى أمراء الطرق أنه من الصواب أن يلوذ السلطان بمنطقة "شيران كوه" (أسود الجبل) ويندفع من هناك لدفع العدو فذهب بنفسه لمشاهدة الجبل، وبعدها قال: "إن هذا المكان لا يمكن أن يكون ملاذًا لنا"، فوقع ما وقع من خوف في قلب العسكر بهذا الكلام. وفى أثناء العودة من "شيران كوه" دخل أتابك اللر إلى

---

(١) نسبة إلى لرستان.

البلاط مقبلاً الطريق فأكرمه السلطان وسعد القادة بمجيئه، وتشكل مجلس مشورة لطرح خطة الحرب وكيفية الدفاع فكان للأتابك رأى بأن يذهب الجميع إلى واحد من الممرات الضيقة والوعرة بين فارس ولرستان، ويسدوا الطرق على المغول هناك، ويجمعوا جيشًا ضخمًا ويُعدوا عدته. ولكن السلطان لم يقبل رأيه بظن أن الأتابك يقصد الخداع، فعاد كسيرًا إلى موطنه.

وبالتزامن مع هذه الأوضاع وصل خبر مجيء التتار إلى الرى، وكانوا قد سمعوا فيها أن السلطان فى همدان وينوى الذهاب إلى مازندران ولذلك حملوا على هذه الناحية دفعة واحدة، واصطدموا بالقرب من "ملاير" بأتباع الخوارزمشاه، وقتلوا الكثير منهم حتى إن جواد السلطان جرح، ولما لم يعرفوه فلم يتعقبوه، وهرب الخوارزمشاه من محيط العداء الذى كان قد أحاط به وذهب إلى قلعة قارون ومن هناك قصد بغداد. أما المغول فقد عرفوا به وحملوا عليه، واضطر السلطان إلى أن يلوذ بقلعة "سرجهان" الواقعة على بعد خمسة فراسخ من سلطانيه، وبعد سبعة أيام من الإقامة فيها توجه من هناك إلى جيلان، ثم وصل إلى قلعة اسپيدار من قلاع ناحية مازندران الحصينة ودخل أمراء مازندران جميعًا ماعدا الأسپهبد فى طاعته، وذهب الشاه إلى ساحل البحر، وكان يذهب هناك إلى المسجد مصليا ويقرأون له القرآن بينما هو منخرط فى البكاء وينذر النذور إن عاد إلى عاصمة ملكه فسيتجنب الظلم ويتوخى العدل. غير أن أفضل ما قالوا "ليت الأمور بالتمنى".

حمل التتار برفقة "ركن الدين كبود جامه" على السلطان ذلك أن الاسپهبد المذكور الذى كان يحكم فى جنوب أغوار استراباد كان يحقد على السلطان، واغتنم فرصة الانتقام فى هذا الوقت ورافق المغول بهذه المناسبة وأطلعهم على محل إقامة السلطان بسبب أن الخوارزمشاه كان قد قتل عمه نصرة الدين وابن عمه وعز الدين كيخسرو واستباح بلادهم. هاجم المغول تلك القرية بغتة بينما جلس السلطان محمد فى مركب تطفو على سطح الماء، فأصابتها سهام المغول، وقفز بعض منهم فى الماء بقصد أسره، ولكن اعتورتهم الأمواج، فرفع مرافقو السلطان المركب وأبعدوها عن متناول سهام المغول، وكان السلطان قد ابتلى بـــ "ذات الجنب" ويئس من حياته، بل يعيش مهمومًا ومحمومًا رغم أن وخامة الأوضاع كانت ناشئة عنه، وأن هذه الأحداث الصعبة نتيجة لأعماله. ومن هنا فإن استحضار المضمون الذى نقله منشئ جلال الدين عنه، وهو فى هذه الحال يبعث

على التأثر إذ كان يردد: "لم يعد يبقى سوى ذراعين من ملك الدنيا الذى سخرناه لندفن بهما".

وما إن وصل السلطان إلى جزيرة "أبسكون" استرد عافيته قليلاً، فنصبوا له خيمة، ولكن كان المرض يشتد عليه، واجتهد بعض المازندرانيين فى خدمته، وكان كلٌ منهم يحاول بقدر استطاعته أن يخفف عنه توقعًا لمغنم أو تفويضًا بمنصب أو منحًا لإقطاعية. ولمّا لم يكن برفقة السلطان أحد من الكتاب فقد أمر بأن يُكتب ويُعرض ما يلى: حسن أن تعلموا أن السلطان جلال الدين قد توفر على الأعمال جيدًا، وصوَّب كل التوقيعات، وهو محل للثقة.

وفى النهاية مات السلطان محمد فى شوال ٦١٧ هـ /١٢٢٠م وغسله "شمس الدين محمود بن يلاغ چاوش" و"مقرب الدين" الملقب بكبير الكبراء، ولمّا لم يكن هناك ما يكفنوه به خلع شمس الدين محمود قميصه وكفنوه به وواروه التراب وحملوا رفاته بعد عشر سنوات بأمر من السلطان جلال الدين إلى قلعة "اردهن"؛ كى ينقلوا رفاته إلى أصفهان بعد بناء مدرسة، ولكن بعد قتل جلال الدين سخر المغول القلعة، وأرسلوا الرفات إلى بلاط خان المغول، وحرقوا عظام هذا السلطان بأمر الخان.

المبحث الخامس

أسباب هزيمة الإيرانيين

١- نفوذ تركان خاتون أم السلطان محمد الخوارزمشاه وأقاربها القوى أحد هذه الأسباب، وشرح هذا باختصار على النحو التالى:

كانت تركان خاتون ابنة للخان "جنكشى" وهو من قبيلة "بياروت"[١] فخذ "يمك"، وعنونه السلطان تكش الخوارزمشاهى عنوان الملوك، وعندما تولى السلطان محمد الملك أحضر قبائل "يمك" إلى البلاد لتعلقهم بالملكة، وعهد إليهم بالأعمال بتوصية من الأم، ووضع إدارة الشئون الإدارية والعسكرية فى أيديهم، واختفى خلف هذه القبائل القوية. ولكن الحقيقة أن ترك الأمور فى يد هذه القبائل زاد من نفوذ تركان خاتون.

وكان زعماء هذه القبائل يعدّون أعمالهم ومناصبهم ونفوذهم مرهونة بوجود هذه السيدة ونفوذها وليس السلطان محمد، وكانت تركان خاتون نفسها امرأة على مهابة وحصافة ولكنها عنيفة لا تعرف السماح، ومن هنا جاءت أوامرها مساوية للسلطان فى كل الأمور، ففتحت لها بذلك طريقًا بين الحكام والزعماء والأمراء، ووجدت ميدانًا فسيحًا ونفوذًا لائقًا إلى حد أنه إذا وصل توقيعان واحد من السلطان وآخر من الملكة كانوا يؤجلون الأول، ويعملون بالآخر. وهذا نموذج لاختلاف الرأى بين هذه الأم وذلك الابن وقدرتها التى أبانت عن حكمها الفعلى للديار الخوارزمشاهية.

كان للسلطان محمد وزير يدعى "نظام الملك ناصر الدين بن صالح" من غلمان تركان خاتون فأصرت على أن تعهد بالوزارة إليه بعد عزل سلفه المدعو "نظام الملك محمد بن بهاء الدين مسعود الهروى" غير أن الأول لم يكن على كفاءة ولياقة فى إنجاز أمور الوزارة فعزله السلطان فى أواخر عام ٦١٤ هـ /١٢١٧م. ذهب ناصر الدين إلى خوارزم لمقابلة تركان خاتون فتغيرت كثيرًا على الخوارزمشاه، وعهدت إليه بمنصب

---

(١) فرع من قبائل كانكالى ويرجع أصلها إلى السهول الواقعة فى شمال خوارزم وفى الشمال الشرقى من بحر قزوين. حافظ حمدى، المرجع السابق، ص ٩٩.

الوزارة لولى العهد أى " قطب الدين أوزلاغ شاه " ولمّا سمع السلطان محمد هذا الخبر أرسل عز الدين طغرل من أخص غلمانه إلى خوارزم حتى يقتل نظام الملك ناصر الدين ويأتى برأسه إليه. ولما وقفت تركان خاتون على مقصده أجبرته على أن يحترم نظام الملك على ملأ، وأن يبارك له المنصب من جانب الخوارزمشاه، وفعل عز الدين طغرل ما أمر به خوفا، ولم يملك السلطان ردًا من الضعف.

نعم؛ من المسلم به أن نفوذ تركان خاتون كان له الأثر السريع والعميق فى زوال حكم السلطان محمد وخليفته السلطان جلال الدين ذلك أن قدرتها على صدور الأمر ونفاذه قد وقفت حائلاً دون أن يتولى ابن قمين بولاية العهد وجدير بها منذ البداية، وهو فى نفس الوقت مشمول بحب وشغف الأب ومحل اعتماده عضدًا وصلابة فيهدأ من وحشة الحرب وزحمة العسكر المعتدى تاركا إياها لابنه وولى عهده الجسور سواء من حيث إدارة الجيش وانتظامه خاصة فى وقت الحرب التى لم تكن لتقع إلا بوجود قائد محنك مقتدر يجعل من الجيش الموزع فى المدن أو المحتشد فى الميدان على حال واحد، وكلاهما فى حاجة لقائد وزعيم.

ولكن النتيجة أنه على الرغم من أن السلطان كان واقفا على ثبات وحسم الابن وجسارته إلا أن رأيه فى مواجهة التتار لم يعد ذا بال، ولم يكن له وقع على الابن واعتقاداته الصحيحة، وعندما أفاق الأب لصوابه كانت الطامة قد وقعت وكان الخصم قد استولى على الديار وكان الجنود قد تفرقوا وأصحاب المناصب لا هم لهم إلا المصالح. وعلى الرغم من أن جلال الدين قد أوصل فى النهاية إلى ولاية العهد إلا أنه لم يستطع أن يجمع الكل على قلب رجل واحد أو يؤلف بينهم وهرب بعد موت الأب وجاء إلى خوارزم حاضرة الدولة، فقد هرب بهذا السبب كما سنعود إلى ذلك بالتفصيل، ثم إنه من حيث إن نفوذ تركان خاتون منع أن تستقر أزمة الأمور قاطبة فى يد السلطان محمد الخوارزمشاه، وأن يتولى معه الوزراء المفكرون والأمراء المتبصرون والمستشارون الخيرون الواقعيون الذين لا رابطة تربطهم بالقبائل ولا تشدهم علاقة رهينة إلى الترك والتاجيك، فيديروا أمور الدولة بكفاءة ودراية وتدبير. هذا الاختلاف فى الكلمة والتمسك بالرأى بين الرؤساء صنائع أم السلطان ينهض أهم عامل فى تقدم جنكيز لتحقق مثل هذه العقائد الموزعة

والتدابير الخاطئة والآراء الفاشلة. ولو أن هناك اتفاقًا واتباعا لسياسة صحيحة، لكان من الممكن ألا يذهب السلطان محمد إلى جزيرة "آبسكون" ولأخذت الحرب مسارًا آخر.

ولكن وآسفاه لم يكن هناك من رجال على قلب رجل واحد ورأى ثابت بل إن الاختلاف والتراوح الشديد كان متوافرًا بين أعوان السلطان وأتباع تركان خاتون، وعرف چنكيز جيدًا بهذا التوزع فى الرأى والتشتت فى الهدف، فكان يزيد نيران النفاق استعارًا بما جعل أميرًا من الأمراء صنائع تركان خاتون يجفل عن السلطان ويضيف بذلك مزيدًا على سوء ظن السلطان وفقدانه لثقته فى أعوانه وقادته، ويجعله أكثر خوفًا وتصميمًا على الفرار. ولما هرب السلطان حل الدور على تركان خاتون، وجاء "دانشمند الحاجب" برسالة من جانب خان التتار مفادها أن غرض چنكيز من هذا الهجوم هو السيطرة على السلطان بسبب أنه لم يرع حرمة لك كأم، ولم يُبدِ رعاية لحق الأمومة، تلك الأم التى تتكئ قدرة ابنها على قبائل وأقوام عهدت إليهم بخدمته، فها هو السلطان الذى هرب من ديارك. إنى أبقى على الأنحاء الخاضعة لأوامرك تحت تصرفك وأصوِّب هذا العهد والوعد وأوثقه وعليك أن ترسلى شخصًا ليأخذ الوثيقة منى بأنى قد عهدت بخوارزم وحدود خراسان حتى جيحون لك. ولكن تركان خاتون لم تكن لتعتمد على چنكيز وأقواله، وخرجت مضطرة من المدينة بعد ذلك التوزع الذى كان قد استحكم.

ولكن ما من خروج سهل دون ضرر؛ فلم يكن أى من أعمالها الأخرى سهلاً وخالصًا من ضرر ليعود على الرجال إذ أمرت أن يقتلوا جمعا من القادة والأمراء الذين كانوا فى سجون الخوارزمشاه، أو أن يغرقوهم فى مياه جيحون، فقد كانت عادة هذه المرأة سفك الدماء وحب الدنيا؛ بل إن لها جسارة خاصة فى هذا الاتجاه. وكلما كان السلطان محمد يأسر أميرًا ويرسله إلى خوارزم كانت تصدر أوامرها ليلاً بأن يغرقوه فى الماء حتى يبقى ملك ابنها بلا منازع. وبالضمن كان السلطان محمد يعد الطاعة لمثل هذه الأم فريضة عليه فقد كان يعتقد أن انقراض دولة القراخطائيين إنما كان بجهد رجال قبائلها، ورسخ فى ذهنه أن المعارضة مع هذه القبائل ليست من الصواب، ولم يكن يدرى أن إسقاط القراخطائيين كان خطأ بالغًا فى حد ذاته. نعم لم تكن تركان خاتون تقلع عن تصرفاتها المقيتة وأعمالها القبيحة فى حلها وترحالها، وضمنا فمن سوءات سفرها ما ننقله باختصار عن لسان أولئك الذين رافقوها خلال الخروج من خوارزم. كان عمر خان

صاحبًا لمنطقة "يازر" وهو أخ لـــ "هندوخان" ابن أخى السلطان محمد، وكان هندوخان هذا هو الشخص الذى تمرد ولجأ إلى ملوك الغور ثم قضى عليه، فاستولت تركان خاتون على أملاكه بحجة أن هندوخان كان قد تزوج امرأة من قبيلتها، وبعد وفاة هندوخان طلب أخوه عمر خان الأمان لدى السلطان وطالب بالأملاك المسلوبة ولكن باءت محاولته بالفشل، ولقبوه فقط بـــ "صبورخان" كان عمرخان أثناء فرار تركان خاتون من خوارزم ملازمًا لركبها ومرشدًا له طبقًا لما هو متعارف عليه، وساعدها فيما لقت من أحداث مؤسفة وأمور صعبة، ولكن بمجرد الوصول إلى "يازر" تغيَّر حال تركان خاتون كعادتها، وأمرت دون داعٍ أن يسفكوا دمه، وذهبت هى بصحبة خزائن الخوارزمشاه وعبيده وأطفاله الصغار إلى قلعة إيلال "لال" من قلاع منطقة لاريجان - مازندران واستولت عليها.

وعلينا أن نقول كلمات عن هذه المرأة؛ فقد أقامت تركان خاتون هناك، وحاصر التتار القلعة فى أوائل عام ٦١٧ هـ /١٢٢٠م بعد فرار السلطان إلى جزيرة آبسكون واستولوا عليها بعد أربعة أشهر بسبب القحط وخاصة نقص المياه نتيجة الجفاف المتصل وداسوا بأقدامهم نظام الملك ناصر الدين الوزير وتركان خاتون والأبناء الصغار وحريم السلطان محمد. ومن العجيب أن تُسلم قلعة فى مازندران بسبب نقص المياه والأعجب أن يقولوا إن المطر قد نزل يوم تسليم المحصورين إلى حد أن المزاريب قد غصتها المياه، وكانت المياه تتسرب كالسيل إلى داخل القلعة بخروج الأسرى من بابها، وأحضروا تركان خاتون إلى جنكيز الذى كان يقيم فى طالقان، وقتلوا أبناء السلطان جميعًا إلا واحدًا هو "كماخى شاه" أثناء النزول من القلعة حيث كان كماخى شاه مع تركان خاتون وأخوات وبنات وزوجات الخوارزمشاه إلى أن خنقوه بأمر من جنكيز وفى حضوره، كذلك قتل ناصر الدين فى عام ٦١٨ هـ /١٢٢١م. وأرسلوا ما بقى من الأسرى الذين كانوا قد أسروا بعد حرب ساحل السند بجرم مشاركتهم لجلال الدين إلى قراقروم(١)، وتزوج المغول ببنات السلطان، أما خان سلطان التى كانت زوجة لنصرة الدين سلطان السلاطين عثمان خان فهى التى اختارها "جوجى خان" بن جنكيز خان، كما تزوج دانشمند الحاجب من شقيقة أوزلاغ شاه.

---

(١) هى عاصمة المغول.

وصل أمر تركان خاتون فى الأسر إلى حد أنها كانت تشارك فى خوان چنكيز، وتأخذ ما يقيم الأود لعدة أيام، وتعيش بمذلة إلى أن ماتت فى عام ٦٣٠ هـ /١٢٣٢م.

٢- عامل آخر من عوامل هزيمة السلطان محمد هو توزع جنده فى المدن وبعبارة أفضل غض البصر عن الحرب الهجومية والاكتفاء بالدفاع والانسحاب من صحراوات الحرب إلى داخل جدران المدن والاستظهار بالقلاع. صحيح أن قادة جيشه وأمراء جنده لم يكونوا على اتفاق فى مواجهة چنكيز، فاعتقد البعض أنه يجب أن ينسحب إلى خراسان حتى تنهك قوات چنكيز فى تسخير ما وراء النهر وفتح قلاعها واحدة فى إثر الأخرى، كما كان لجماعة رأيها فى أنه ينبغى أن يحرر ما وراء النهر وخراسان، وأن يثبت أمام التتار فى الهند، وجمع ثالث له اعتقاده فى الهجوم وإجبار چنكيز على الانسحاب من حدود الديار، ولكن كان من الممكن أن يتغلب تصميم السلطان الحاكم ورأيه الناضج وعزمه المحكم، ويعلن تكليف الحرب والصدام مع التتار سواء فى صورة الهجوم أو فى حالة الدفاع. فقد عرف جميع المؤرخين المعاصرين عن المجربين المتألمين والرجال الأصلاء والمصممين على الحرب بخطأ توزع الجيوش منذ الأيام الأولى وسجلوه فى صفحات التاريخ؛ التسجيل الذى لا ينمحى مطلقًا ولا يغادر الذاكرة. ومن ذلك أن النسوى يذكر قائلاً: "تمثل خطأه الأكبر فى أنه عندما سمع بخبر مجىء چنكيز وزع جيوشه فيما وراء النهر على هذا النحو: ينال خان "غايرخان" على رأس عشرين ألفًا من الفرسان إلى "اترار"، "قتلغ خان" برفقة خمسة عشر ألف فارس إلى مدينة "كنت"، الأمير "اختيار الدين كشلى" أمير آخور و"أغل الحاجب" الملقب بـــ "إينانج" على رأس ثلاثين ألفًا من الفرسان إلى بخارى، خال السلطان "طغان خان" مع أمراء الغور برفقة أربعين ألفًا من الفرسان إلى "سمرقند"، "فخر الدين بش" المعروف بـــ "دغيثان النسوى" وجيش السجستانى إلى "ترمذ"، "يكجمود خان" إلى "رخش"، "آى محمد" خال السلطان إلى "بلخ"، "أترك پهلوان" إلى "جند"، "دوغلچى ملك" إلى "ختلان"، "برتاسى" إلى "قندز"، و"اسلبه خان" إلى "ولوالج".

والخلاصة أن ما من مدينة خلت من عسكر، وكان هذا عملاً خاطئًا فلو أنه أسرع بكل هذه الجيوش إلى مواجهة العدو؛ لقوى بلا شك على دحرهم. وقد قال بعض من المؤرخين المعاصرين فى تحليل هذا التوجه إن حشد جيش بهذه الضخامة فى مكان واحد

مع ما كان يواجهه من نقص فى العلوفة والإمداد بعلم السلطان نفسه قد أقعده - لهذا السبب - عن المواجهة. ولكن الحقيقة أن هذا التوجه لا يقنعنا؛ ذلك أن المؤرخين المعاصرين الذين شهدوا ميادين الحرب ومواقع الصدام الكبير، ووقفوا على جميع المصاعب لتجهيز الجيش ونقل الأمتعة والأمداد والعلوفة - لو أن مثل هذا المانع الكبير- كان يبدو فى نظرهم مهمًا لما قطعوا بصراحة وتصميم على عدم حشد الجيش فى مكان واحد، ولما وصفوا توزعه فى المدن بالعمل الخاطئ. هكذا يكتب النسوى الكاتب بوضوح قائلاً: إن العقلاء كانوا يقولون فى وقت المشورة: يجب أن يحشد الجيش فى مكان واحد وجعل جيحون بمثابة الخندق ويكون الزحف عامًا، ولا يُترك التتار يتجاوزون الماء. وهذا قول صريح؛ فالزحف يعنى حشد الجيش الضخم فى ناحية، فيسهل العمل إذ إن صعوبة العمل الوحيدة كانت فى شيء ينطق به شعر الفردوسى [1]:

- حين يسْودّ الزمن فى عين رجل؛

يدلّهُم التصرف فى العمل

٣- السبب الثالث تمثل فى جبن السلطان وخوفه الكبير من المواجهة مع التتار؛ يقال إنه ناشئ من أول صدام مع "دوشى" بن جنكيز فى صحراء القبچاق، فحيثما يوجد التتار. وأيًا يكون الحديث عنهم تأخذه الرعشة. ثم إن سهولة الهزيمة التى لحقت بـــ "كوچلك خان" على يد المغول كانت تحسب فى مواجهتها على أنه عدو كبير ومتنفذ، وكانت كغول ملأ داخله وحشة، وأخافت رجلاً امتد أمره إلى الشرق والغرب زمنا وجعله خائفًا وقلقًا ومضطرًا إلى حد وضعه يدًا على يد، وأبقته فى الحيرة دفعة واحدة.

يقول النسوى فى هذا الصدد: إنه عندما اشتد الخطب رأى السلطان أنه من الصواب أن يبنوا جدارًا[2] حول سمرقند بُعده اثنى عشر فرسخًا - كما قالوا، حتى يكون حائلاً بينه وبين التتار ومانعًا للهجوم على الممالك المجاورة. فتفرق عُمال من جانبه فى الولايات، وأخذوا خراج عام ٦١٥ هـ /١٢١٨م لبناء الجدار، لكن هجوم التتار حال دون حصول المقصود، فلم تنفق الأموال، ثم إن جباة الخراج أسرعوا إلى جميع الولايات

---

(١) هو صاحب الشاهنامه المشهورة فى تاريخ الفرس بعد الإسلام .

(٢) على نمط خط بارليف فى حرب ١٩٧٣م، وما تقوم به إسرائيل فى الوقت الحالى .

ليجمعوا الخراج، ولتحقيق هذا المنال استخدموا رجالاً يحملون السهام ومزودين بعدة وعتاد الحرب. استعد القادة بأسباب السلاح فى اتجاههم ناحية بلاط السلطان و فى هذه الأثناء كانوا يعمرون قلعة سمرقند ويقيمون خندقا .

اتصل ركن من هذا الخندق بالماء ثم ملأوه، ولكن العجب ما ستسمعونه من أن السلطان قصد الفرار قبل وصول ذلك الجيش، وقال قبل التحرك وتجاوز حافة الخندق: "أى جيش يقصد الديار مهما كان عدده وكثافته سيسقط هنا مهما قاده أى رجل وسيبتلعه هذا الخندق". والواضح، إلى أى حد انكسر قلب الجيش والرعية من خلال هذا البيان البائس بل كيف فلّت مقاومته؟، بالإضافة إلى أن سرعته فى الفرار كان خمير يأسه، ولو أنه تأخر قليلاً لوصل ذلك الجيش الذى كان فى الطريق. فما أكثر الانتصارات التى كانت ستتلاحق له فى إثر بعضها البعض، وينهض بها حظه النائم. استخدم السلطان محمد حصانين فى الفرار فانفطرت القلوب من فراره، وتزلزلت أقدام المدافعين الشجعان والمقاتلين المشهورين الصلبة فى أماكنها وضعفت همتها. ولتبيان أثر هذا الفرار يكفى أن نلتفت إلى القصة التالية:

كان شهاب الدين خيوقى أبو سعد بن عمران[١] مستشارًا للسلطان فى أمور الدولة قد وصل من خوارزم وانتظر السلطان فى مدينة "نسا" حيث سمع أن السلطان قدم إلى نيسابور سريعًا وذهب من هناك متعجلاً دون أن يصدر أمرًا أو يعطى تكليفا، فوقع فى حيرة لأنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل السلطان وأى أمر سيعطيه له؟، وبينما كان فى حيرته إذ بأمير يُدعى بهاء الدين محمد بن سهل أبى كامل يصل، ويقول: إن السلطان قد أمره أثناء الهروب أن يأتى إلى "نسا" ويحذر الناس، ويدعو إلى التحوط ويقول: إن العدو فى الظهر وليس كالأعداء الآخرين وجيشه لا نظير له بين الجيوش. والرأى أن يخلى الأهالى البلاد، ويذهبوا إلى الجبال والصحراوات فيشرع المغول فى سلب المدن ونهبها ويفرغون من إلحاق الأذى بأرواح الخلق، أو إذا استطاعوا تعمير قلعة "نسا" فليتحصنوا بها. قلعة "نسا" هذه كانت فى السابق محكمة جدا، ولم يستطع السلطان تكش تسخيرها، خرج هذا السلطان العثر فى حظه زمنا قبل هذه الأيام وكان أن زرع فى مكانها شعيرًا

---

(١) كان فقيها مبرزًا فى المذهب الشافعى وقد جمع إلى الفقه، اللغة والطب وسائر العلوم والفصاحة وحسن التدبير، وينتسب إلى خيوه من مدن خوارزم .

(وحدث أن شرع أهلها المظلومون فى تعمير خراب ظلمه من جديد). ولكن فضل أهل المدينة الشجعان الثبات على الفرار، وعمّروا القلعة، ومكثوا بقلب ثابت وعزم راسخ بداخلها.

وهذه الواقعة تثبت أن لو كان أهل البلاد الأخرى يجدون ظهرًا صلبًا لما جعلوا اليأس يدعوهم سريعًا إلى الاستسلام بمذلة. وفى النهاية لو لم يكن سكان هذه المدن من المسلمين لما عدّوا الخزى من تسلط الكفار وغلبة الأجانب على الأحرار عارًا؛ وإلا ما معنى أحد عشر عامًا من كر السلطان جلال الدين وفره باستظهار ملوك وأمراء شرق إيران وغربها؟، فها هى مدينة "نسا" قد سُويت بالأرض بسبب قتل أمير من المغول يدعى "يل كوش" ولم تعد هناك من تضحية إلا النجاة من حد السيف. نيسابور أيضًا لعبوا على ترابها الصولجان[١] بأمر من زوجة الأمير المقتول "تغاجار نويان" صهر جنكيز فى أثناء حصارها حتى إن كلابها وقططها لم تنجُ من السيف، وصارت خراسان خرابًا من هذه الحوادث وكُنست "بجاروف" النهب بينما كان سلطان البلاد ينتقل من مدينة إلى أخرى، ويلوذ بقلعة إلى أخرى.

صحيح أن وحشة كانت قد استبدت بالسلطان وأمراء أمه تركان خاتون وقادتها العملاء بسبب انتشار رسائل مجعولة إلى حد استوجب معه الاضطراب والتشتت والفرار، وهذا الموضوع فى حد ذاته كان عاملاً آخر من أجل أعمال الخوارزمشاه الفاشلة، بينما حسن التدبير والسياسة الهادئة وأخذ القرار الحاسم كان يمكن أن يصلح كثيرًا من هذه المسائل، ويسد فجوات بالتحايل والتدبير وتقطع أصابع الخصم فى التفرقة وقصم الظهر بالعقل والحزم، ومما لا شك فيه أن كل هذه الازدواجيات الناشئة من حيل خان التتار وسوء تصرف الخوارزمشاه وظلمه وزوال ملوك متنفذين وحبس أعيان مشهورين وإغراق أمراء وحكام فى الماء قد خلّف الرغبة فى الانتقام، وجعل البعض يكاتب خان التتار ليس للتقرب من جنكيز خان؛ بل إن الرسائل المجعولة التى شرحناها فيما سبق كانت على نحو من التسبب فى تفرق القادة ووحشة السلطان وصارت بذلك وسيلة للانتقام وإشعال نيران العداوة الخفية. والواضح أنها مثلت فائدة لجنكيز وضررًا للخوارزمشاه.

---

(١) انظر أحمد الخولى فى الصلات بين العرب والفرس، إمارة الحيرة، ص ٩٠، القاهرة ١٩٨٢م.

وخلاصة القول أن السلطان محمد الخوارزمشاه وقت سلطنته وعلى الأخص لدى الغزو المغولي قد ارتكب أعمالاً تحكي سوء تدبيره وضعف رأيه وجبنه.

المبحث السادس

الأمير السابع

كتب النسوى منشى جلال الدين إن العقلاء والمفكرين كانوا يقولون للسلطان محمد الخوارزمشاه فى وقت المشورة وتدارس المصلحة: "إن الجيوش يجب أن تحشد فى وقت الحرب مع التتار، ويُتخذ من جيحون خندقًا، ويكون الزحف عامًّا، ولا يترك التتار يتجاوزون الماء". ولكن السلطان سيئ الحظ فضّل الفرار على الثبات، وأسرع من ما وراء النهر إلى خراسان ومنها إلى العراق، ثم ذهب إلى مازندران كما رأينا ليلوذ بجزيرة "آبسكون" حيث أسلم الروح.

كان ابنه جلال الدين الذى يكبر إخوته بعام وما يزيد أكثر منهم تعلقًا بامتشاق الحسام واصطحابًا لأبيه فى كل الأوقات بما يكفى لجدارته، ولم يكن موافقًا لرأى الذين كانوا يقولون بضرورة إخلاء ما وراء النهر وخراسان والذهاب إلى الهند واستحداث سد هناك. وكان يقول: "مهما يكن؛ ينبغى أن نحشد الجيش ونواجه التتار مهاجمين ونصد الغزاة، إن نشر الجيوش فى المدن بعيد عن العقل السليم ولا يحرك الخصم الذى لم يواجهنا بعد من مكانه قيد أنملة، فالتعامل بالمواجهة دليل عجز ومذلة." وكان يلح فى أنه إذا كان السلطان يصر على الفرار ويعد رأيى لاشىء ولا يوافق على الحرب والنزال، فليعهد لى بالجيوش ويذهب إلى العراق؛ حتى اجتهد فى دفع الخصوم قبل فوات الوقت وضياع الفرصة وبذلك اصطدم بالمغول، وكان يقول: "دعوا الفرصة حتى نتطاول على هذه الجماعة، وندق الطبول كى نعذر أنفسنا أمام الخلق والخالق، فإذا وفقت الدولة نلنا المراد بصولجان التوفيق وإن لم يحصل النصر لا نصير محلا للوم عبيد الله تعالى". إلا أن السلطان محمد لم يصغ إلى كلماته بتأثير الحظ السيئ والتخوف وفقدان الثقة فى القادة والأعوان واستبداد الرأى فعدّ رأيه الناضج سخيفًا وصبيانيًا ولم يلتفت إليه، وسلك طريق العراق على خلاف نظر جلال الدين, ولم يأخذ بالمصلحة والصواب والنظرات المختلفة للأمراء والقادة فى الدفاع أمام الخصم. والقصة أنه مهما كان من أمر، فقد وصل السلطان محمد إلى جزيرة " آبسكون" وكما رأينا اشتد عليه المرض، بينما الأوضاع لم تصل إلى

حل، ولم ينفع الندم على الخطايا والمظالم والسوءات، ولمّا أوشك على الاحتضار، وعرف أن الوقت وقت الرحيل، بينما كان يدرك جيدا أنه يترك وراءه وطنًا ممزقًا متفسخًا، وأن ذلك الشخص الذى كان لائقًا وحريًّا بخلافته واعتلاء عرش السلطنة من بعده قد حرم بتأثير من الأم، وأن من تولى الولاية لا يستطيع مواجهة المصاعب، ولا يمكن أن يواجه العدو الذى نفذ إلى داخل الديار، وكان ينظر لأعماله وأفعاله نظرة واحدة فى الدقائق الأخيرة ويحسب سوءاته واحدة واحدة، ويتذكر أخطاءه وتغافلاته فى مهام الأمور، رأى أنه بمرور الزمان وضياع فرص الاختيار من بين يديه أن أيًّا منها غير قابل للتعويض وتلافى ما فات بينما هو فى جزيرة نائية، وفكر فى أن الأمر ينحصر فى أن يعهد بأزمّة الأمور فى الدولة إلى ابنه المقتدر جلال الدين بالاعتماد على ساعده القوى، إذ ربما تنعقد أوصال السلطنة المتقطعة وتنتظم الأمور وتساق الأعداء إلى مواطنها ويزول النفاق ولا يراق دم الأبرياء بلا داعٍ ولا تتخرب المدن العامرة بمعول التدمير.

من هنا طلب لقاء أولاده الثلاثة جلال الدين، آق شاه أبو المظفر، قطب الدين أوزلاغ ولى العهد، وكانوا قد ذهبوا ليكونوا إلى جواره فقال لهم: حتى يجئ الأعوان؛ فإنى أتحدث عن نهاية حياتى واضطراب أمور الوطن، ثم قال: إن فكره وتأمله فى اللحظات الأخيرة قد صار على هذا النحو: ما من أحد سوى جلال الدين بقادر على أن ينتقم من العدو، وأنه بالحق ولى عهده وخليفته، وينبغى أن يطيعه ويخضع له الأبناء الآخرون خاصة " أوزلاغ شاه " ولى العهد حتى هذه الساعة. ومن هنا؛ تؤول إليه ولاية العهد، وأن يكونوا قلبا واحدًا وسندًا لبعضهم البعض، ويولّوا وجوههم شطر مواجهة العدو وحفظ أرواح العامة والحفاظ على المدن العامرة. وعندئذ استل السيف من غمده إعمالاً لهذا القرار، ووضعه فى وسط ابنه ثابت الجأش قائلاً: عندما أرحل عن الدنيا؛ اغتنموا الفرصة، واهجموا بجيشين صوب عاصمة المملكة، واجتهدوا فى أن تدحروا الغزاة التتار بقوة السيف وحمية الجيش ومساندة الرعية، واقتصوا لى من عدوكم.

المبحث السابع

مجيء جلال الدين الخوارزمشاه إلى خوارزم

عندما مات السلطان محمد وفرغ الأعوان والأبناء من مواراته الثرى حمل جلال الدين على خوارزم منطلقًا من "آبسكون" بفيلق من سبعين فارسًا وبرفقة أخويه الآخرين يحدوه الانتقام من العدو ويملؤه الرجاء دون أن يخشى قلة الأفراد. وحينما وصل إلى مدينة "منقشلاغ" أول حدود خوارزم، أرسل الخبر مبشرًا ودخل فى إثره إلى المدينة مع الإخوة والأصدقاء.

لم تكن خوارزم عندئذ قد صارت بعد موطأ لحوافر الدواب المغولية ولا أطلالاً من أحجار مناجيقهم. وهى التى كانت تُعد أوسع المدن بل أعظم عواصم الدنيا فى ذلك العصر.

وعلى الرغم من أن السلطان كان قد خرج منها، وأن أمه كانت قد هربت وهى التى كانت تدير هذه الناحية تحت إمرته؛ فإن المدينة كانت مليئة بالأسلحة وأدوات النزال، وكما كان جمع من القادة الترك والخوارزميين مازالوا يقيمون بها، غير أن فقدان الثقة والاضطراب وسوء الطوية والتوزع فى الرأى قد استبد بهم، ولم تكن أعداد القتلى بقادرة على أن تنقص من حقد الأب شيئًا، وكان الجيش قد تفرق فى المدن، والقلوب قد امتلأت بالخوف الذى أوجده فرار السلطان، إذ كان يُلاحظ فرق واضح وشاخص بين عهده وهذا العهد. فقد كان العزم جازمًا والرأى راسخًا والقصد قاطعًا من جانب السلطان جلال الدين على محاربة التتار. ولكن أكانت قوة الإرادة لدى هذا الرجل بقادرة على أن تتغلب على كل هذه المصاعب؛ أو أنه المطلب الذى يأتى فى شرح أحوال "سابع أمير" فى هذه السلسلة؟. إذن لنساير الأمير الذى وصل إلى خوارزم قادمًا من "آبسكون".

أوجد مجيء رجل فى شجاعة الأسد كجلال الدين مع إخوته وأعوانه صخبًا فى المدينة، وأظهر شغفًا عند الناس وأعاد روحًا إلى الأجساد فسعد الصغير والكبير، وتسابقوا بالخيل والسلاح. ودخل جلال الدين ورفقاؤه المدينة. وفى هذا الوقت تمركز "كوجاى تكين" و"أغرل الحاجب" و"تيمور ملك" وتسعون ألفا من الترك القنقلى فى خوارزم،

واجتمع سبعة آلاف جندى بقيادة توخى "بوجى" پهلوان خال أوزلاغ شاه الملقب بـ "قتلغ خان" بعد وصول السلطان جلال الدين مباشرة. أما أكثر أفراد هذا الجيش فقد كانوا من قبيلة تركان خاتون ومن أتراك بياووت، وعندما سمعوا أن "أوزلاغ شاه" قد عزل من ولاية العهد وأن الأمور قد استقرت بيد جلال الدين شرعوا فى المعارضة من باب سوء الحظ والجهل .

ولم يدركوا أن فى وقت البلاء والفتن وظهور العداوة والازدواجية فى الرأى والفرقة فى الصف إنما هو أساس للفساد والفناء، وأن دفع العدو الغالب أوجب من النزاع على المسائل الداخلية. فسواء كان للعدو أن يتغلب بسبب هذا النفاق والتوزع كما سبق وغلب، أو لم يعد يبقى أثر من السلطنة وولاية العهد ولا للسلطان وولى العهد، فكل هذه النائبات والتحكمات والاختلافات مثلت عبئًا بلا عائد أو عصفًا لرياح أو نقشًا على ماء. ولكن من الأسف أن جذور هذا النفاق والازدواجية فى العهد القديم بفعل أم السلطان كانت قد رسخت بمعنى أنها لم تكن قد تلاشت، كما أن نوازعها القوية فى سويداء القلوب من جانب قادتها وأمرائها، بل باتت بصدد البزوغ حتى إن خطرًا مثل هجوم التتار الجارف بهذا النفاذ والمهابة لم يستطع أن يقتلعه.

اتفقت هذه الطائفة على قتل السلطان جلال الدين أو سمل عينيه على الأقل، وصممت على أن تعهد بولاية العهد لـ "أوزلاغ شاه" مرة ثانية؛ كى تحفظ أوامرها النافذة وتسلطها الكامل على أزمَّة الأمور بسبب ضعف أركان السلطنة وصغر أوزلاغ شاه. فمن الملفت للنظر أن نعلم أن كل عبد كان قد صار أميرًا وكل محكوم حاكمًا. ومن هذه الوجهة لم يكن للسلطان جلال الدين الذى كان رجلاً قويًا وبالأفعال بصيرًا وعلى أمور الملك واقفًا بقادر على أن يتوافق مع هذه الجماعة التى تخوفت من فقدان القدرة ومنع العناد ورد على التجاوزات بما شكل عاملاً كبيرًا فى الإعراض عنه والالتفاف حول "أوزلاغ شاه" والسبب الآخر - الذى أشرنا إليه فى السابق - هو أن أم "أوزلاغ شاه" كانت من المرتبطات بتركان خاتون ومحلاً لحماية قبيلتها.

هذا بالإضافة إلى أنه لو كان السلطان جلال الدين ضعيفًا فى الإرادة مثل أبيه، لما كان يستطيع أن ينتصر بامتشاق الحسام وحسن التدبير على المنافقين فى الداخل والأعداء فى الخارج، ويعطى كل شخص حقه فى المنصب والمقام. وبناء على ذلك تعاونت

الطائفة المذكورة على إزاحة جلال الدين واستخلاف "أوزلاغ شاه" غير أن أحدًا من رفقاء السلطان جلال الدين ويدعى "بدر الدين أينانج خان" عرف بفكر المنافقين الدفين وأبلغ سيده الذى وجد نفسه مضطرًا إلى أن يخرج من مقر حكمه، ويهرب من بين الطغمة المنافقة، وهو لم يزل بعد يهدأ من وعثاء الطريق، ويقف على وقائع الموافقين والمخالفين على الطبيعة ويجد الفرصة المناسبة لتعبئة الجيش واستدعاء القادة وتجميع العسكر من مختلف أنحاء الديار.

كان أتراك خوارزم قد أدركوا أن العامة وعددًا من الخاصة راغبون فى خدمة السلطان جلال الدين وأن بقية الإخوة على ما عاهدهم عليه الأب عند وفاته. وبناء على ذلك لم يجيزوا هذا التعويق واعتبروا نجاتهم فى تجنبه، وإن كنا نرى جيدًا بعد قرون وعصور أن جلال الدين لم يكن قد وضع قدمه على عرش خوارزم إلا بقصد مواجهته الكفار التتريين، ولم يكن له من نية إلا قمع المغول السفاحين، غير أن الترك قد حولوا بحنث العهد وتصرفهم السفيه وضع الحرب مع التتار، كما كان يحدث دومًا إلى صورة أخرى تتبدل من الدفاع إلى الهجوم والمواجهة. فالحروب التى أحدثها السلطان جلال الدين فى شرق إيران وغربها بعد هذه الأحداث دللت على أنه لم يألف الحرب الدفاعية مطلقًا حيثما كان يجد أمامه جيشًا مسلحًا يحفظ نظم الفروسية ويتفهم طرق الحرب مثل هذا الرجل بامتلاكه عرش المملكة وجميع مدن خراسان ونصف قلاع ما وراء النهر وعسكر محتشد كان قادرًا على أن يواجه جنكيز بلا شك بل ويهاجمه.

وإذا كنا لا نَعُد جهاده فى هذه الحملة أو الحملات حاسمًا فلا أقل من أن نستطيع القول إنه كان رجل حرب تعود على قسوة الصحراوات الواسعة الممتدة فى جبهات لا خلف جدران القلاع والحصون المحكمة. لمعت فكرة السيطرة على خوارزم فى البداية، وبعدها مدن خراسان والعراق واحدة واحدة فى أعين البداة، وألقت الأحداث بجلال الدين فى ديار أخرى. وشرح ذلك كما يلى: عندما وقف السلطان جلال الدين على قصد الترك فى سمل عينيه أو قتله خرج من خوارزم سريعًا، وحمل على "نسا" بثلاثمائة فارس بقيادة تيمور ملك "دمرملك" الذى كان واليًا على مدينة "جند" ونادرة عصره فى الشجاعة بل أمهر الرماة إذ كان يقطع المسافة التى تستغرق ستة عشر يومًا فى العادة فى بضعة أيام، واقترب من هذه المدينة، ولكنه اصطدم حوالىّ "استوا" - من نواحى قوجان الحالية بجمع

من المغول فى هضبة؛ ذلك أن چنكيز كان على يقظة وذكاء على خلاف القادة الترك الخوارزمشاهيين بل ويراقب أعمال خصمه، وكان قد عرف بمجيء أبناء السلطان محمد إلى خوارزم وأرسل الفرسان إلى صحراوات خوارزم، ونصب الكمائن حتى يأسر أيًا منهم إذا هرب إلى ناحية خراسان – وقد سبقت الإشارة – أنه قد عرف باختلاف قادة "تركان خاتون" وأعوانها مع السلطان محمد جيدًا كما ذُكر، كما أن جواسيسه كانوا يكتسبون الأخبار بوسائل مختلفة ويبلغونها له فى أقصر وقت.

وإذا كان القول صعبًا بأن چنكيز قد عرف بظهور الاختلاف بين جلال الدين وقادة الترك المقيمين فى خوارزم فإنه يمكن القول إنه كان يتوقعها، ووجود العسكر والفرسان فى كمائن تنتشر فى الصحراوات بين خوارزم ومرو ونيساپور دليل ما ذهبنا إليه.

نعم؛ عندما عاد من الصحراء، اصطدم بجمع من هؤلاء الذين وصل عددهم قرابة سبعمائة رجل كانوا قد نصبوا أكمنة فى صحراء " نسا "، ولكن لم يكن السلطان محمد الخوارزمشاه هو الذى يقود الجيش عندئذ فيجبن من الخصم وفرسانه؛ بل كان يقودهم قائد شجاع زلزل ثبات ذلك الجيش بهجمة واحدة وقتل أغلبهم واستولى على عدتهم وعتادهم. حفنة هؤلاء الذين هربوا من المعركة بالحيلة، ولم يترك الباقى أحياء وعندما أخرج الفلاحون جمعًا كانوا قد اختفوا فى الأغوار وأحواض الأنهار قطع رقابهم فى حضور الناس.

كانت مذبحة المغول إنذارًا وإيقاظًا لچنكيز وعلى حد قول النسوى؛ كان السلطان جلال الدين نفسه يقول: "إذا لم يكن هذا من باب الانتصار، ولو لم تكن تلك العدة والعتاد بيدى لما كنا نستطيع الوصول حتى إلى نيشاپور مجردين مطلقًا". وبعد هذه الوقائع؛ صمم التتار على تسخير خوارزم.

وكما سبق القول يمموا وجوههم شطر تلك المدينة. فخشى أوزلاغ شاه، وآق شاه أبناء السلطان محمد من المغول وخرجا من العاصمة فى إثر جلال الدين. وتركا خوارزم مثل الأب وتركان خاتون، وعندما وصلا إلى حدود نسا تعقبهم جمع آخر من المغول فوقعت حرب ضروس بينهم، قاوم فيها الخوارزميون الشجعان، وحملوا على التتار وقتلوا جمعًا وبدت غلبتهم ونصرتهم. غير أن التتار كانوا قد نشروا جماعات متفرقة فى الأطراف والأنحاء وصلت منها أفواج أخرى فاشتد الأمر على الخوارزميين، وفى النهاية

قتل آق شاه وأوزلاغ شاه وعلق التتار رأسيهما على الحراب وعرضوهما فى المدن عبرة وعظة.

من نيسابور إلى غزنين:

ذهب السلطان جلال الدين مع الرفقاء والجياد والسلاح الذى كان قد اغتنمه من التتار إلى نيسابور، وإن لم يكن يأمل فى مساعدة من قادة خوارزم وجنودها المقيمين، ولم يستطع أن يجد ما تناله اليد فى مدن أخرى من ماوراء النهر وخراسان اللاتى كن فى جدال وحرب مع المغول، إلا أنه ما إن وصل إلى نيسابور صمم على أن يهيئ المقدمات لمواجهة المغول وعزم على الجهاد بنية صادقة.

والمسلم الجازم فى مبادئه الإسلامية أنه يعد الجهاد ضد الملحدين المهاجمين واجبًا عليه. وعندما تكون هذه العقيدة قرينة حس الدفاع عن المتاع وحماية الأسرة فإنها تكون أكثر إحكامًا، ذلك أن المجاهد يعتبر دماء خصمه الملحد حلالاً خاصة ذلك الذى أهدر بيده وجود الكثير من رفقائه وأهل دينه، وخرب الديار وأتعب المواطنين وشردهم. مثل هذا الرجل يعتقد أنه إذا قتل فهو مثاب من الله وإذا قُتل فقد نال الشهادة .

وما أقل أن يمكن للعدو إدراك قصد مثل هذا المجاهد الحاسم. كان السلطان جلال الدين يستمد فكره من هذا الاعتقاد طوال سلطنته التى لم تنقضِ إلا فى الحرب بل كان يقوى عليها. وقد تعاون ملوك أنحاء إيران المختلفة وحكامها حتى جيران الأسرة الخوارزمشاهية ومعارضيها القدامى للخوارزمشاه بدافع هذا الحافز القوى، فكانوا يمدونه بالعسكر والمال فى صراعه مع التتار.

نعم؛ كتب جلال الدين رسائل إلى ملوك الأنحاء الذين كانوا قد شرعوا فى التمرد على أيام اضطراب السلطان محمد الخوارزمشاه وفراره وطلب منهم أن يجمعوا الجند فى أسرع وقت ويسرعوا إلى بلاطه متقدمين العسكر والعدة والعتاد، أما هو فسيقيم مدة فى نيسابور حتى وصولهم. وعن جنكيز الذى لم يكن يغفل مطلقًا عن أحوال الخوارزمشاه وقادته؛ بل وضع إيران بعامة فقد عرف بقصد السلطان جلال الدين وأرسل جيشًا لدفعه، وقبل أن يحكم هذا الجيش الخناق على الخوارزمشاه، ويصل أمراء الأطراف هاجموه فاضطر السلطان جلال الدين إلى الخروج من نيسابور ودلف صوب "زوزن" من مدن

وسط خراسان ذلك أنه كان قد شاع أن مؤيد الملك حاكم كرمان قد استحدث قلعة هناك تسمى "القاهرة" وكلف عين الملك صهره بحراستها، وما هى إلا ساعات حتى وصل التتار وجدّوا فى إثره. وقبل أن يصل السلطان إلى القلعة أصبح الطريق متشعبًا فعهد جلال الدين لجمع من المرافقين بقيادة "إيلارك ملك" برأس الطريق ليطبقوا على جيش المغول حال أن يصل المهاجمون والمحاربون وبذلك يكون على مسافة من ذلك الجيش، ويجد الفرصة فى الوصول إلى القلعة.

وبعد ذهاب جلال الدين فكر "إيلارك ملك" أنه لا يمكنه الخروج من دائرة المغول، لذا فبعد أن توقف قليلاً خلص الطريق الذى كان جلال الدين قد سلكه وضرب سيرًا فى الطريق الثانى، ولما وصل المغول إلى هناك تقصوا أثر العسكر وتعقبوا "إيلارك" فغفلوا عن السلطان والطريق الذى كان قد سلكه وقطع أربعين فرسخا فى يوم رغم أن جواده لم يكن يسرع بسبب العرج ووصل إلى قلعة "القاهرة" وطلب أن يتحصن بها؛ إلا أن عين الملك قد اعترض قائلاً: "إذا أقام السلطان فى القلعة فسيعرف المغول ذلك وسيحاصرونها قائمين عليها حتى يمسكوا بالخوارزمشاه"، وحال أن يذهب السلطان إلى نواحٍ أخرى من المملكة ليجمع جيشا فإنه يستطيع غلبة التتار. ومن أجل تشجيع السلطان ومنعه من التحصن قال: "إن حصن الملوك منزل جميل وأنت لست ذلك الرجل الذى تخشى من الخصم ومواجهته وتعرض عنه". ويقول النسوى ناقل هذه القصة: "سمع جلال الدين كلامه واندفع من هناك وذهب إلى حدود مدينة "بست" وأخبروه هناك أن چنكيز مقيم فى "طالقان" وأنه قريب منه". ورغم أنه كان يدرك أن الخطر قائم وأن العدو يحيط به من كل صوب وحدب فإن قلبه لم يرتعد وولى وجهه شطر "غزنين" ذلك أنها وبلاد الغور ونواحيها كان السلطان محمد الخوارزمشاه قد عهد بها إلى جلال الدين بعد استردادها من ملوك الغور والسلاطين الغزنويين، كما أنه كان قد أوفد برسل من جانبه إلى هذه النواحى والواضح أنه فى هذه الحال لم يكن يطمئن إلى ملاذٍ أفضل من هناك.

وفى الطريق إلى غزنين سمع أن ابن خال أبيه أمين ملك والى هرات قد ذهب إلى سبوستان من بلاد السند قاصدًا تسخيرها؛ إلا أنه لم يتمكن منه فيعود أدراجه صوب غزنين بجيش مجهز فسعد السلطان بهذا الخبر، وأرسل إلى أمين الملك مخبرًا إياه بحضوره فالتحق أمين الملك بالسلطان، ولما سمعوا أن جمعًا من التتار قد عسكروا حول

قلعة قندهار محاصرين حملوا عليهم وقتلوهم إلا نفرًا بقوا أحياء بالحيلة وأسرعوا إلى بلاط خانهم وأوقفوه على الحادثة.

كان أمين الملك كما أشرنا واليًا على هرات وكان قد خلّصها أثناء هجوم التتار وإقامتهم بها، ثم اتجه إلى "سبوستان" وشرع فى فتحها وطلب من أجل تجهيز الجيش المساعدة من حاكم غزنين "كربر ملك" فخف وهو نائب الخوارزمشاه فى غزنين إلى مساعدته غير أن غيبة الوالى عن غزنين تسببت فى أن يحمل نائب جلال الدين فى برشور أى اختيار الدين خربوست "خزبوست" الذى كان من أهل الغور على غزنين ويسخرها. وبالضمن؛ فإن أهل غزنين ونواب الخوارزمشاه وعماله خصوصًا حاكم قلعة المدينة الذى كان يدعى صلاح الدين محمد النسائى تضايقوا من تسلط اختيار الدين وكانوا ينافقونه فى الظاهر بينما كان صلاح الدين ينتظر الفرصة ليفسده حتى إنه وجد مجالاً فى وسط المدينة ذات يوم، وطعن خربوست فى صدره بخنجر وقتله وفرّق أتباعه. وفى ذلك الوقت عهد بأمور غزنين إلى رضى الملك مشرف ديوان الخوارزمشاه فى غزنة وكان رجلاً عنيدًا متمردًا يمد يده لعائدات الديوان ويشتط فى أنانيته، ولمّا لم يرَ فى صلاح الدين الموافقة على أعماله أثار عددًا من أهل "سبوستان" حتى يقتلوه، ويضع يده على جميع الأمور. وظل على حاله هذه حتى وصل الخوارزمشاه وأمين الملك إلى غزنين.

هادن جلال الدين رضى الملك(١) رغم أنه كان عارفًا بسوءاته وتعدياته لفترة إلى أن عذّبه وقتله بعد فتح پروان مستردًا المال والعائدات المنهوبة .

وتوجد رواية أخرى فيما يتصل بأمين الملك ورضى الملك وخربوست وأعمالهم نقلها مفيد لتنوير القراء وتعريفهم بموضوعات مختلفة. يقول الجوينى: "إن أمين الملك بعد سماعه خبر اقتراب التتار من هرات تركها ذاهبًا إلى غزنين حيث كان محمد بن على خربوست يحكمها من طرف السلطان، وكان يوجد بها شمس الملك الوزير وصلاح الدين النسائى حاكم القلعة والإقليم".

---

(١) كان مشرفا على الديوان الجلالى نسبة إلى جلال بغزنة. انظر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتـــى لمحمد أحمد النسوى، تحقيق حافظ حمدى، دار الفكر العربى، ١٩٥٣.

أرسل أمين الملك رسالة بأن عيّن لنا إمدادًا "تموينا" لنعيش سويًا حتى يصل خبر عن السلطان فما إن ذهب إلى العراق وتدفق التتار على خراسان أجاب خرپوست وأمراؤه أننا من أهل الغور وأنتم من الترك وحياة الاثنين مع بعضهم البعض صعبة، كما أن السلطان قد أعطى لكل قوم علفًا وإقطاعًا وغلة، والأفضل أن يذهب كل شخص إلى مكانه ويستقر. وعلى الرغم من أن رسولاً كان يتنقل بين أمين الملك والغوريين فإنهم لم يقبلوا .

صمم شمس الملك الوزير وصلاح الدين فيما بينهما على تدمير خرپوست وقالا مهما يكن من أمر فأمين الملك قريب للسلطان. والحق هو أن يعطوا طريقًا له إلى المدينة وإن لم يُفسحوا الطريق يصير معلومًا أن خرپوست يقصد العصيان. ومن هنا رتبوا ضيافة فى حديقة واستقر عسكر غزنين خارج المدينة، وفى هذه الضيافة طعن صلاح الدين خرپوست بسكين وقتله وأسرع فى إثر ذلك بصحبة الوزير إلى المدينة وسخّرا قلعتها وفرّقا عسكر غزنين وجاء أمين الملك إلى المدينة، وأصبح حاكمًا عليها ثم ذهب فى إثر جماعة من المغول حتى "بست وتنكاباد" وأخذ شمس الملك الوزير معه ثم حبسه فى قلعة "كجوران" وكانت شئون مدينة غزنين قد عُهدت فى غيبته إلى صلاح الدين محمد، إلا أنه قتل فى غيبة أمين الملك على النحو الذى سبق فتسلط الأخوان اللذان كانا قد وفدا من "ترمذ" ويدعوان "رضى الملك" و"عمدة الملك" على غزنين وجلس رضى الملك هناك للحكم. وفى هذه الأثناء اجتمع قوم من أتراك الخلج بزعامة سيف الدين أغراق ملك فى "برشاور".

قصد رضى الملك "برشاور" حتى يفرق أتراك الخلج وتسلط على الهند، ولكنه هزم من هذه الجماعة وقُتل. وفى هذه الأثناء هاجم أعظم الملك بن عماد الدين والى بلخ السابق وملك شير حاكم كابل غزنة وحاصرا عمدة الملك فى قلعة غزنين وسيطرا عليها وأقاما بها.

خلّص السلطان جلال الدين شمس الملك الوزير من سجن قلعة "كجوران" وهو فى طريقه من نيسابور إلى غزنين وأرسل الرسل لتهيئة اللوازم والأسباب والأدوات إلى غزنين. وما إن مضت أربعون يومًا على تخليصه حتى وصل لفتح قلعة مدينة "غزنين" وبشر الناس بوصول السلطان الذى وصل إليها بعده، وجاء أمين الملك والى هرات وسيف الدين إغراق رئيس أتراك الخلج من السند مسرعين إلى خدمته بما أوجد فى

اجتماع هؤلاء الأمراء وأيضًا أعظم الملك والى بلخ السابق وملك شير حاكم كابل وجندهم سندًا للخوارزمشاه، فاجتمعت جيوش كثيرة على حرب التتار من جديد.

المبحث الثامن

حرب پروان

استرد أهل غزنين معنوياتهم وسعدوا بوصول السلطان إلى المدينة عام ٦١٨ هـ/ ١١١٨م، ذلك أنهم كانوا يدركون حجم البلاء فى هجوم المغول وفتنة التتار النازلة بجميع المدن والبلاد؛ بل على مستوى المملكة جميعًا، ولم يشكوا فى أن هذا البلاء سيحل بهم إن عاجلاً أو آجلاً. ولذلك فإن حضور قائد مثل جلال الدين شد من أزرهم وقوّى من عزمهم، إذ إنه وجنوده كانوا فى حكم السند لأهل غزنين ونواحيها؛ بل هم القادرون على تقصير ذراع العدو وإخماد الفتنة العظمى. شرع السلطان بمجرد الوصول إلى المدينة فى تجميع الجند، وتزامنًا مع هذه الأوضاع - كما قلنا - طلب من الأمراء المشهورين سيف الدين إغراق ملك الخلج، وأعظم ملك بن عمد الدين حاكم بلخ السابق، ومظفر ملك رئيس الأفاغنة صاحب إيغان، وحسن قرلق قائد الترك القرلق أن يتجهزوا له بثلاثين ألف فارس فتجاوز جند الخوارزمشاه، بالإضافة إلى عسكر أمين الملك أربعين ألفًا، وصار مستعدًا للحرب بقصد الجهاد ضد المغول.

تزوج السلطان من ابنة أمين الملك، وبعد أن كان قد احتشدت حوله المؤازرة والقادة بما امتلكوا من عدة وعتاد من أجل المواجهة خرج من غزنين متوجهًا إلى قصبة "پروان" الواقعة على مقربة من غزنين بين هذه المدينة ومدينة "باميان" لضرب المعسكرات. وعندما سمع أن جمعًا من المغول بقيادة تكجك وملغور مشغولون بمحاصرة قلعة "واليان" فى طخارستان هجم عليهم بقلة من العسكر وقتل عددًا منهم بينما هرب الباقى وعبر الفارون النهر، وخربوا السد، وحال مجرى النهر بين الجيشين، وأمسك الطرفان بالسهام إلى أن جن الليل فهرب المغول تحت جنح الظلام متجهين إلى چنكيز، وأخبروه بأمر الواقعة فأرسل جمعًا كبيرًا من جنوده بقيادة قوتوقو نويان "شيكى قوتوقو" صهره إلى "پروان" فالتقى الجمعان فى هذه الناحية، وأصبحا متواجهين فى مساحة فرسخ، وكانت ميسرة جيش الخوارزمشاه لسيف الدين أغراق، وميمنته لأمين الملك، أما القلب فقد استقر هو على رأسه.

وفى اليوم الأول الذى اشتعلت فيه الحرب غلبت ميمنة الجيش السلطانى عسكر التتار ودهمت القلب وقُتل الكثير من الجانبين، واستخدم المغول فى اليوم التالى الحيلة فصنع كل فارس بأمر قوتوقو هيكلاً على شكل الإنسان، ونصبه على فرس مصنوع. وعندما طلع النهار رأى جيش السلطان صفًا آخر خلف جيش المغول فظنوا أن المساعدة قد وصلت إليه.

ومن هنا استبد بهم الهلع والقلق معًا وأرادوا أن يلوذوا بالجبال وأن يحتاطوا، ولكن السلطان جلال الدين لم يوافق وشد من أزرهم؛ كى يواجهوا الحرب كما اليوم السابق وينزلوا عن الجياد ويحاربوا التتار مشاة. وفى البداية حمل المغول على الناحية اليسرى لجيش جلال الدين التى كانت قيادتها تنعقد لسيف الدين أغراق واجتهدوا بشدة، أما الجيش الخلجى فقد أمطرهم وابلاً من السهام، فاضطر المغول أن يتكاتفوا ويدهموا الجيش من القلب. وفى هذا الوقت أصدر جلال الدين أوامره بدق الطبول وامتطاء الجياد ومفاجأة المغول والقضاء عليهم وإجبارهم على الفرار. وكانت عادة التتار عند الفرار أن يعودوا فجأة فطرحوا أرضًا خمسمائة من عسكر السلطان، ولما رأى السلطان ذلك اشتد غضبه، وهجم بقوته على قلب عسكر التتار منكسًا الأعلام مفرقًا صفوف الأعداء ففقد جيش التتار توازنه وتقطعت صفوفه، ولم يجدوا حيلة إلا الهروب، وصار الفتح من نصيب جلال الدين ورفاقه.

سعد المسلمون بهذا الفتح إلى حد أن عسكر الخوارزمشاه كانوا يثقبون آذان الأسرى المغول حتى يخمدوا نار انتقامهم قليلاً من التتار، ووصل الهاربون إلى جنكيز وأعلموه بالواقعة، وأن جيش جلال الدين شرع فى السلب وجمع الغنائم. ومن ثم فموقعة "پروان" هى أول هزيمة للتتار فى حرب تقابل فيها الجيشان وجهًا لوجه وأول حرب لم يكن لقائد جيش إيران فيها أدنى ضعف فى المواجهة أو خشية ووحشة قلت أو كثرت. وقد هاجت كثير من البلاد المفتوحة بعد سماع خبر هذه الحرب بأمل الانتصار التام للسلطان على المغول وقتلوا شحنتهم المغولى. بل إن تمرد هرات العظيم ومرو من آثار فتح پروان، وقد أثبتوا شرحًا له فى التاريخ بالتفصيل، وأيضًا فإنه بسبب هذه الحرب فإن المغول الذين انشغلوا بتسخير بعض قلاع طخارستان اضطروا إلى فك الحصار عنها وهربوا. ففى هذه الحرب على الرغم من أن جنكيز قد حقق نفعًا على الرغم من تحمل

هزيمته، وأضير الخوارزمشاه مع أنه انتصر، فإن خان التتار لم يكن قد استطاع أن يرسل جيشًا إلى ناحية ما حتى هذا الزمان على النحو الذى يهزم به ويهرب فاقدًا الجياد والسلاح. ومن هذا الفشل اتعظ وأدرك أن الحرب مع جلال الدين ليست عملاً سهلاً؛ بل لابد أن يكون موجودًا فى الحرب بنفسه يرافقه جيش ضخم؛ وإلا فلا يمكن له أن يحقق نفعًا من الحرب، كما التفت أيضًا إلى أنه يلزم لدفع خطر الخوارزمشاه السرعة والهدوء. السرعة من حيث إن الجيش من حوله لا ينبغى أن يكون ضخمًا، وألا يلتحق به القادة والمحاربون من أنحاء الديار والهدوء من حيث إن سطوة الخوارزمشاه والرعب الذى كان يلقيه اسمه فى قلوب المغول أخذ يتلاشى شيئًا فشيئًا. ومن هنا لا يتوزع انتظام الحرب وعتاد المواجهة.

إذن أيقظت هذه الهزيمة جنكيز ونبهته. وبهذه المناسبة نرى أنه لم يؤنب قائدًا منهزمًا له بل كان يخاطبه بأبوّة قائلاً: "لم تكن قد ذقت طعم الهزيمة، فمن الآن فصاعدًا كن أكثر ذكاء وحيطة"، وعندما تفقد ميدان الحرب بشخصه لدى التوجه إلى غزنين وتعقب جلال الدين وتذكر أخطاءه الحربية وتجهيز جيشه، حتى تلك التى كانت من جانب الخوارزمشاه شرح دلالاتها.

والحقيقة أن جنكيز أخذ طريق الذكاء، ولاحظ جيدًا أداء العمل؛ بل كان على قدر من بعد النظر والاحتياط وبقى منعزلاً وبعيدًا عن مواجهة مبارز مفرق للصفوف مثل جلال الدين.

والآن لنرَ فيما تمثل الضرر الذى لحق بجلال الدين من جراء فتح "پروان"، لقد تمثل هذا الضرر فى أن معاونيه ومساعديه شغلوا بالنصر وغفلوا عن العمل الكبير الذى كان قد تحقق على أيديهم، وأن أقل آثاره تمرد حدث هنا وهناك فى الولايات المفتوحة وعن جسارة أهل بعضها الآخر التى لم تكن قد تعرضت للهجوم بعد من جهة، وأن خصمًا هذا شأنه لم يفرغ بعد من التحايل والتسرع من أجل الغنيمة التى يتوصلون إليها والبحث عن النهب الذى يتحصلون عليه من دواب الحرب، فوصل هذا التغافل إلى حد أن عملهم كان ينتهى بالنقاش حول تقسيم الغنائم تصنيفًا ونهاية بالتوزيع من جهة أخرى ولا يفكر أحد فى هذا الخضم من السلب والنهب، إن الطمع ولو كان فى الظاهر أساس فى تألمه أو مجرد الجدال والتحزب؛ بل هو فى الباطن موجب للتفاخر ومحو للجميع وتفوق

على الخصم. وهنا حسنا أن نشير إلى ذلك الذى حدث بعد فتح پروان عندما هزم جيش التتار وولى هاربا ضاق الترك أى عسكر أمين الملك من تقسيم الغنائم ذرعا بعسكر الخلج والغور أى عسكر سيف الدين أغراق ومظفر الملك وأعظم الملك، ولم يعطوهم ما ينبغى إليهم بينما كما كان الأمل أو الغنم فى الماضى واحدا من دوافع الحرب وتحمل خطرها فى بذل أرواح العسكر.

والقضية أن قصد الترك من الغنيمة قد تصاعد من الطمع إلى التبجح حتى إن تركيًا من جيش أُمين الملك نازع مظفر الملك على جواد، وأوصل النفور إلى حد رفع السوط ببجاحة على رأس مظفر الملك، وكان مظفر الملك - كما نعلم - قائدًا فى جيش الخلج فأثارت هذه الفعلة حافظة عسكر الخلج، وتفرقت كلمة الجيش بسبب هذه الإهانة وأيضًا بطمع الترك فى المال والغنائم والتخريب، وتبدلت الصداقة إلى فرقة. ونجح سيف الدين أغراق وأعظم الملك وعسكرهم فى تكدير خاطر جلال الدين تجاه الترك ورحلوا متخلين عن جيش السلطان فى هذا الوقت الحرج ونقص الأصدقاء وقصورهم فى مواجهة عدو مثل جنكيز خان. ولم ينجح السلطان فى ما كان يُبذل من جهد بهدف إرضاء خاطرهم ومنع تفرقهم فى جمعهم على كلمة سواء، وحذا جيش الخلج حذو الترك. أما واقع الأمر أن جلال الدين لم يكن يعتمد على الترك القنقلى أيضًا وهم الذين يصدون مطالبه، وإذا ما مارس الضغط عليهم فما أكثر ما كانوا يتفرقون. والنتيجة أنه كان يفتقد مساندة كلتا الجماعتين. وهذه النقطة لا ينبغى أيضًا أن تُترك وهى أن أمين الملك كان قريبًا له، كما أن عسكره من أتراك خوارزم.

والخلاصة أن سوء حظ الخوارزمشاه وهذه الجماعة وربما أهل إيران قاطبة من جهة وسعادة جنكيز من جهة أخرى قد بدأ من هذا الانفصال. وعندما دلف قادة الخلج والغور والقرلق ليلاً، وذهبوا صوب الجنوب الغربى والجهات الواقعة بين بيشاور وجبال كرمان. ولكن وقعت المنازعة بينهم، فقضى على جمع منهم، وأطاح المغول بعد ذلك بالباقى منهم.

وبذهاب هؤلاء الأمراء، تحطمت قوة السلطان جلال الدين فكان أن تداعى الأمل فى قلوب أهل النواحى، وتهيأت المناطق لهجوم المغول وتدنت من حيث إن نتيجة حرب "پروان" التى شهدت المجد فى سيف جلال الدين واسمه وحضوره وكفاح جنده الفاتحين

تبدلت إلى اليأس واستسلمت للتتار، واتخذت سبل التحوط. ويحسن بنا أن نقول: إن الترك القنقلي وجدوا غنائم وفيرة. واختصارًا فإن طمع وتغافل هؤلاء الترك جعل انتصار جلال الدين الخوارزمشاه وسطوع نصر "پروان" واستعادة أهل إيران أملهم من الأمور المتعجلة.

المبحث التاسع

على ساحل السند

تحرك جنكيز فى إثر وصول الفارين والمهزومين من "طالقان" ثم ولى شطره حيث جلال الدين على رأس جيش ضخم - وكما قلنا سابقا - كانت السرعة الكبيرة ومباغتة الخصم واحدة من خصائص هذا الرجل وعوامل انتصاره، فقبل أن يعتمد العدو على مواضع محكمة ويجمع الجيش الكافى وينتظم فى عمله كان جنكيز يحمل عليه بسرعة كبيرة، ويأخذ منه كل عنصر للمفاجأة. وكان قصده هنا أن يخترق صفوف جلال الدين قبل أن يجد فرصة لاستمالة جيش الخلج ويستعيدهم إلى جانبه ويتساند بالأمراء والقادة الأقوياء.

ولما يئس السلطان جلال الدين بعد فتح "پروان" وظهور الخلف بين العسكر من إقناع عسكر الخلج، وأن هؤلاء القوم قد تخلوا عنه فى مثل هذا الظرف الدقيق، وأدرك أنه لا طاقة له فى أن يواجه جيش جنكيز الضخم بعسكر قليل جاء إلى غزنين حتى يتجه إلى حافة السند ويعبر النهر وكان يقصد من غزنين أن يرقق قلوب المتألمين والمتفرقين عن طريق الرسائل مرة أخرى ويطلعهم على أن صلاح الجميع فى التضامن والاتحاد، وأنه لا يمكن ذلك إلا بالتوحد والتساند فى القتال مع الخصم ومنازعته. غير أن سرعة جنكيز منعت جلال الدين من هذا القصد وهذه الدعوة وإرسال الرسائل فخرج مضطرًا من غزنين على الرغم من إصابته بمغص شديد. والعجيب؛ أنه امتنع عن الجلوس فى الخيمة الملكية وهو فى هذه الحالة وامتطى جواده متحملاً الألم إلى أن تحسنت صحته.

وفى منتصف الطريق صوب نهر السند أطلعوا جلال الدين أن مقدمة جيش جنكيز قد وصلت إلى مدينة "كرديز"[1] فركب السلطان جواده وحمل فجأة على مقدمة ذلك الجيش، ولم يخلف سوى عدد من الفرسان المهرة من طليعة الجيش المغولى نجوا بأرواحهم من حد السيف فبهتت هذه الصدمة جنكيز بما رأى فأينما صادف جلال الدين

---

(١) من نواحى غزنين القريبة.

بعسكره واستل سيفه على جيشه فإنه ينتصر وينزل الهزيمة به. وأدرك أنه لا يستطيع غلبة مثل هذا الشجاع إلا بمباغتته ووضعه فى مأزق نقص العدد وضيق الوقت. فكان يجعل المنزلين واحدا، ولم يكن يسمح بإعداد الطعام خشية التباطؤ، فقالوا له لدى الوصول إلى غزنين إنه قد قضى على السلطان برحيله منها منذ خمسة عشر يومًا. فذهب فى إثر الخوارزمشاه بالسرعة التى تقطع هذه المسافة ووصل إليه فى حافة السند بالقرب من معبر "تيلاب".

دهم جلال الدين خوارزمشاه مقدمة جيش التتار ليلاً وذهب إلى خيمته التى كانوا قد نصبوها له على حافة نهر السند وأمر أن يجهزوا سفنًا لعبور النهر. ولكن هجوم جنكيز حال دون تجهيزها ولم تتهيأ إلا واحدة كان جلال الدين يريد أن يمرر بواسطتها أمه وزوجته عبر الماء؛ إلا أنها تحطمت هى الأخرى بفعل طغيان الأمواج فكان أن نزل جلال الدين بينما الماء يطغى والنهر تتلاطم أمواجه واضطر جلال الدين أن يقاوم. وفى هذا الوقت جاء أورخان الذى قاد مقدمة الجيش، وكان قد بقى على مفارق طريق المغول بعد أن هزم من مقدمة التتار، وصل التتار فى إثر أورخان جاهزين للمواجهة. وبقى جلال الدين محاصرًا فيما بين مياه نهر السند وضربات جيش العدو المستعرة فقد ملأت زحمة عسكر التتاريين الجبل والوادى، واصطف المغول فى شكل حزام حده مياه نهر السند، ونصبوا عدة حلقات متعاقبة، ولحاطوا بجيش السلطان من الجوانب والأطراف.

وكان هم جنكيز أن يمسك بآخر ملك فى السلسلة الخوارزمشاهية حيًا – وكما قلنا – وصل خان التتار بهذه السرعة إلى ساحل السند ومعسكر جلال الدين، فلم يجد السلطان مجالاً إلا أن يجهز سفينة يعبر بها النهر ويجعل الساحل الممتد حائلاً بينه وبين العدو، ولم يعد يجد فرصة فى أن يكاتب قادة الخلج يهدئ من روعهم ويناديهم فى أن يسارعوا لمساندته فى هذا المأزق الحرج مرة أخرى. فاضطر إلى أن يسوق الجيش فى مواجهة خان التتار، وحصَّن موقعه مرة أخرى ولكنه كان ضيق الصدر، ولم تكن هناك من حيلة إلا الفناء أو الدفاع حتى آخر نفس، فقاد أمين الملك ميمنة الجيش، وكان قد اعتمد على انحناءة فى ساحل النهر وأقام الميسرة على جبل عالٍ.

وقد سطر التاريخ في صفحات شرح هذه الموقعة الضروس على سبيل التذكر، ولهجت ألسنة المؤرخين بالشجاعة التى أبداها الخوارزمشاه كنموذج من النماذج النادرة والخارقة للأبطال والشجعان.

وحرب الساحل في السند هي أول وآخر حرب ساق فيها الخوارزمشاه وچنكيز الجيشين في مواجهة بعضهما البعض، واستل الاثنان السيف وجهًا لوجه. ومعرفتنا بموقعة الساحل في السند مستمدة من روايات المؤرخين الذين سمعوا بوقائعها وسماعهم بها نقلاً عن أشخاص ارتبطوا بواحد من طرفي الحرب وعامليّ إحداثها. ومن هنا تتفاوت رواياتهم فالجويني صاحب كتاب "تاريخ جهانگشا" مؤرخ البلاط الإيلخاني أخذ بحملات چنكيز ويعتبر جنوده بالكثرة والتجانس ويعدّه المهاجم من البداية إلى النهاية. أما النسوى الذى سمع فيما يبدو شرح الموقعة على لسان بطلها الشجاع أى الخوارزمشاه وهو كاتب ديوانه لسنوات طويلة وعلى صلة ببقايا وأصدقاء السلطان في هذه الحرب فيتحدث عن ضراوة حملات جلال الدين قائلاً: "إن صلابة موقف السلطان وشجاعته هزت ثبات چنكيز أول الأمر واضطرته إلى التقهقر"، غير أن چنكيز كان قد أعد كمائن من قبل مزودًا إياها بنخبة من الفرسان النشطين فصار هذا الجيش المستريح والنشط موجبًا لهزيمة جيش جلال الدين.

وقول الجويني في كيفية تجهيز جند المغول وضخامة عددهم وانتصار خان المغول النهائي معتبر؛ غير أنه لو تفحصنا مسرح الحرب بنظرة مسبقة وتذكرنا في مقابله الجيش الضخم بجنده الكثيرين والمصمم على محاربة الخوارزمشاه والسلطان جلال الدين قبل المواجهة الحربية. ومن ثم فإننا نرى أن قول النسوى ليس بعيدًا عن الصواب أيضًا، فقد كان التتار قد شاهدوا سوق الجيش الخوارزمشاهى واختراقه الصفوف في بضعة مواقع، وكان أن عدّه چنكيز حضورًا كبيرًا يتطلب تعقبه قبل هذه الضربة التى أنزلها هو به، ومن ناحية أخرى كان الخوارزمشاه وجنده يضيقون ذرعًا بسبب موقع الحرب وقلة الأفراد وكان كفاحهم يتمثل في القتل والنجاة بالروح؛ فمثل هذه الروح وهذه النية ما أكثرها تأثيرًا في كيفية الحرب. والنقطة الأخرى التى تؤيد ما ذهب إليه النسوى هو أن هروب وفتح الكمائن في إثر الفرار كانت من الخصائص الحربية المغولية. والعجيب هو أن المحاربين ضد هؤلاء القوم الذين كانوا يقعون مرة واحدة في فخ مثل هذه الحيل

الحربية لم يتنبهوا؛ بل تضرروا في مواقع أخرى ضيقًا، وكانت انتصاراتهم تنتهي بالهزيمة مثلما هزم الخوارزمشاه بالوقوع في حبائل هذه الحيلة الحربية في حرب أصفهان على النحو الذي سنراه.

وقتل ابن الخوارزمشاه في الثمانية من عمره أثناء دوامة الحرب يمكن أن يعد دليلاً على الغضب الشديد للخان من صلابة السلطان جلال الدين وضرباته. وهذا يثبت أن رواية النسوى ليست خالية من الاعتبار، ويجوز أن الجويني قد اضطر إلى أن يقول كلامًا على هوى الإيلخانيين ويسعدهم وينسج قصصًا تسر أولئك الذين يتعلقون بالخان. وعلى كل حال سنورد شرحًا للحرب من خلال روايات المؤرخين.

كانت حرب جلال الدين خوارزمشاه في ساحل السند حربًا دموية بالمعنى الواقعي للكلمة؛ بل بلاء عظيمًا. فقبل أن يعيد العسكر الخلجيين، ليشاهدوا الحرب واستعداد عتادها الحربي، ويقف على طاقة المقاومة والتجهيز العسكري ضد عسكر التتار إذ بجنكيز يظهر فجأة من الطريق، ويرسل أبناءه چغتاي واوكتاي في إثر جلال الدين الذي وجد نفسه عند السحر والعدو قد أحاط به. حدث هذا في واحد من أيام شهر شوال عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م. عندما رأى المغول يطبقون عليه مسرعين بصفوف متراصة من فضاء متداخل بين الظلمة والضوء، ويستعدون للمواجهة. وفي النهاية اضطر إلى أن يصفّ عسكره، ويتقابل الجيشان، ويختلط القتل والكفاح طوال اليوم ويتواصل الجدال والصدام حتى الليل، ويتساقط جمع من الطرفين طعمًا للهلاك، وفي فجر اليوم التالي لا يزال الجميع متصافين، وفي المواجهة كان جلال الدين يتمركز بجيش قليل أمام جنكيز، وكان يحمل بنفسه على قلب جيشه، ويوزع أفراد جيشه في كل ناحية. وعندما نحا جنكيز في هذا الهجوم نحو الهزيمة رأى أن يتساند فهو والعسكر على اعتقاد بأن الغلبة في جانب الخوارزمشاه فأعلن المصوتون والمنادون أن اختلاط السيوف وضربات المعاول وطحن حوافر الجياد وأنين الجرحى كأنها قومة كبرى. ولكن كما قلنا كان الخان قد رأى قبل أن تفرغ حيل الحرب أن يتمركز عشرة آلاف من خيرة أفراد الجيش بقاء في كمين، ولذلك عندما بدأت هزيمة التتار حمل الكمين على ميمنة جيش الخوارزمشاه التي كان يقودها أمين الملك وزحزحها عن مواضعها فهرب أمين الملك باتجاه پرشور "بربشاور" الواقعة في غرب باكستان الحالية، فيسر للمغول الذين كانوا قد سدوا الطرق أن يتمكنوا من الإمساك به بل وقتله

ودهم التتار القلب بعد الهزيمة. ومن هنا اضطرب نظم الجيش وقُتل منه نفر كثير أو غرقوا فى الماء، وأُسر ابن جلال الدين ذو الثمانية أعوام، وقتل أمام چنكيز نفسه.

وكانت ميسرة الخوارزمشاه قد تمركزت على جبل شامخ فاتجهت مجموعة من المغول عبر طريق وعر بقيادة "بلانويان" إلى هذا الجبل وأبعدتها واحتوت الميسرة على النحو الذى عرف اليوم بالهجوم الخاطف، ويسمى المغول حركة الالتفاف هذه بـــ "اللغمة"، وتُهزم ميسرة الجيش أيضًا بهذا الهجوم وتختلط بالقلب. أما السلطان فيبقى فى القلب ومعه سبعمائة رجل ويضغط ويقاوم من الصباح حتى منتصف النهار، ويلتفت من اليسار إلى اليمين، ويحمل من اليسار على القلب، ويطرح عددًا فى كل هجوم على الأرض ويتقدم عسكر التتار جماعة جماعة، ويزدادون ساعة بساعة، ويضيقون مسرح المواجهة على السلطان ويعيدون الانضباط التام والاطمئنان الكامل بذلك ويتقدم الجيش.

وفى هذا الوقت كان آجاش ملك "أخش ملك" ابن خال السلطان جلال الدين يمتطى جواده فانسحب عائذًا لدى هزيمة السلطان فى ساحل السند، وودع أبناءه وحريمه بعين باكية وجاءت أمه وزوجته باكيتين نائحتين عاهدتين به إلى الله وأن يهلكهن خلاصًا من عار الأسر وبلاء السقوط فى يد العدو. فأمر السلطان أن يغرقوا المساكين فى الماء برغبته، وهذه واحدة من أحزن المناظر فى صفحات التاريخ الإيرانى(١) عندما يقع رجل غيور فى مأزق فيأمر أن يهلكوا أحباءه أمام عينيه.

يطلب الخوارزمشاه عقب هذه الحادثة المحزنة جوادًا شابًا امتطاه وتجول به مرة أخرى فى هذا المحيط الممتلئ بعسكر التتار المتوحشين ولما لم يجد فائدة من المقاومة، حمل حملاته الضارية مفرقًا العدو وملتفًا بجواده ممعنًا فى الهجوم مرتدًا إلى الخلف ومنتزعًا علمه الخاص "المظلة السلطانية الخاصة" من مكانه فاصلا يده الخشبية ملقيًا بها بعيدًا ومسرعًا إلى النهر ملهبًا صهوة جواده لينزل الماء من ساحل النهر التى تفصله عن سطح الماء عشرة أذرع أو ما يزيد، ويسبح بسلاحه مقاومًا طغيان الماء حتى يصل إلى الجانب الآخر من النهر ويحط بالساحل ويترجل. وكتب المؤرخون أن الجواد الذى خرج من فيضان طاغٍ ودوامة عميقة حاملاً السلطان ظل يرافقه فى كل مكان حتى فتح تفليس

---

(١) لماذا رحب المؤلف بهذا المنظر فى صفحات التاريخ الإيرانى؟، إنها رغبة منه فى التأكيـــد علـــى أن جلال الدين إيرانى الأصل .

فكان أن منعه من الفروسية.

ولما رأى چنكيز خان إنزال الجواد فى الماء، وسوقه إلى الناحية الأخرى من النهر، وشاهد السلطان وهو يعبره وتمركز التتار الذين كانوا يريدون أن ينزلوا الماء ليتعقبوه ويمنعوه من التحرك أدهش هذا المنظر خان التتار رغم الغضب والحقد تجاه السلطان. كتب الجوينى إنه وضع أصابعه بين أسنانه متعجبًا، وقال لأولاده بين عسكره الذين أخذتهم الدهشة: "هذا الشبل من ذاك الأسد"، فقد وصل من دوامات الماء ولهيب النيران إلى الساحل سالمًا، وخرج من مثل هذه الحرب ناجيًا، وما أكثر ما وجد من عقبات ونكبات فى طريقه.

الحقيقة أن كل هذه الشجاعة والإرادة والسرعة فى الحسم قد حيّرت خان التتار؛ وإلا لما كانت إشارة منه تكفى فينزل المغول جماعة جماعة إلى الماء ويقيمون من أجسادهم سدًا ويصلون إلى الشاطئ الآخر ليأسروا جلال الدين أو يقضوا عليه، ولكن رجلاً شجاعًا على هذا النحو لا يمكن أن يقوى عليه عسكر.

وعلى أثر عبور الخوارزمشاه للنهر تفرق جمع من جنوده وصل عددهم إلى قرابة الثلاثمائة واحدا بعد الآخر عراة ولكنهم وجدوا جلال الدين بعد ثلاثة أيام، أما بقية العسكر وكل فرد لم يكن قد غرق فى الماء كان يُقتل ببطش بالتتار.

وينقل المؤرخون عن أشخاص كانوا قد شاهدوا الموقعة بأعينهم أن المغول كانوا يرمون الأفراد الذين قصدوا الهروب داخل النهر بسهامهم، وأن عدد الجرحى وصل إلى حد أن جزءًا من مياه النهر كان قد شابته الحمرة من دمائهم.

وبعد قتل الجنود وتفريق صفوفهم حلت النوبة بالأسرى فكانوا يحضرون ما تبقى من حريم الخوارزمشاه وأبنائه الذكور ويقتلون حتى الرضع ويأسرون الباقى.

أما الذهب والفضة التى كانت بصحبة السلطان والتى كان قد أمر بإلقائها فى النهر قبل الهزيمة، فقد أنزل چنكيز غواصين فى الماء، وسلموها له.

أنقصت حرب ساحل السند من قدرة الأسرة الخوارزمشاهية وزادت من ثقة المغول بما قطّع أوصال أفراد هذه الأسرة وفرق مقاومة أفرادها. ويئس الناس فى المدن التى لم تكن قد فتحت بعد من هذه الهزيمة، ولم يعد يبقى من عمل للمغول إلا أن يأخذوا بعض

القلاع ويخضعوا بعض القادة المتمردين ثم يوسعوا من فتوحاتهم. صحيح أنه حصل لجلال الدين قدرة ونفوذ فى عدة أيام وحقيقة أنه أخذ كلاً من كرمان وفارس والعراق وآذربيجان وأدخل قسما من هذه الأنحاء تحت إمرته وهاجم نواحى القفقاز وفتح أجزاء من غرب آسيا الصغرى وأخضع ملوك تلك الحدود حتى وقعت حرب كبيرة مع المغول خارج أصفهان، ولكن حكم السنوات العشر لرجل كان يحكم فى غرب إيران ووسطها اختلف كثيرا مع الرجل الذى كان يواجه كسر - شوكة – المهاجمين التتريين.

ولا يغرب عن بالنا أن جلال الدين كان فى الأيام اللاحقة هو المناضل المحارب. وأن يقال إن النية الأولى التى تمثلت فى تحقيق أمانى آلاف الآلاف الخائفين وآمالهم من المتوحشين التتار كانت قد خمدت فيه فإن المرحلة الأولى كان جلال الدين فيها قائدا يريد أن يمنع سقوط الملك فى يد المغول، أما بعد حرب السند صار هذا الفارس كالمجاهد الشريد والحائر بلا عتاد يبحث عن مأمن ومسكن لا اسم ولا ملك ولا حكومة.

وكان لحرب پروان آثارها العظيمة فقد أوجدت الشجاعة ضد المتسلطين المغول وما تبعها من ثورات متتابعة وعصيان الكثير وتجهيزات حربية وتحصينات متعددة. غير أنه بحرب السند اندثرت هذه الآثار وصارت رمادا بعد نار. ولم يعد لشخص من التبت حتى ساحل بحر الخزر طاقة المقاومة، وبقى المسلمون أسرى الغزاة التتار. والواقع أنه ينبغى الاعتقاد فى اختلاف كبير بين هذه الحقبة القصيرة من حياة الخوارزمشاه، والحقبة الأطول اللاحقة أى عصر سلطنته فى غرب إيران ووسطها [1]. فعظمة هذا الزمان القصير بتضامنه وحروبه أكثر من تلك السنوات العشر لسلطنته. ذلك فمن الآمال التى تعلقت بظهوره أو غلبته طوال حياته حتى بعد قتله يجب البحث عن بعضها فى هذه الفترة من حياته. وسنزيد هذا البحث شرحا فى نهاية الكتاب. ويكفى هنا أن نشير إلى أنه لماذا عاد جنكيز بعد غزو السند إلى منغوليا تاركا الغزو لأبنائه؟، الحقيقة هى أن خان التتار الداهية كان قد أدرك أن الرجل الوحيد الذى يمكن أن يقف فى وجهه هو جلال الدين، ومادام قد رحل فقد اعتقد جازما أن غزوه قد تم.

---

(١) هذه مساحة كبيرة أثبتها المؤلف تدعيما لرأيه بإيرانية السلطان جلال الدين.

إذن؛ إذا قلنا فى هذه المقدمات أن عبور السلطان لنهر السند وقصده الهند كان عبورًا لآمال أهل إيران المقهورين من المغول إلى ديار العدم فإننا لم نقل عبثًا أو جزافًا.

المبحث العاشر

فــــى ديـــار الهنـــد

بعد أن زج جلال الدين بنفسه فى الماء، ووصل إلى الناحية الأخرى من النهر خرج منه ونظف سيفه وتخطى الشاطئ حتى وصل قبالة معسكره ولاحظ أنهم ينهبون خيمته وعدته وعتاده، بينما وقف جنكيز خان على حافة الماء ينظر هنا وهناك فالتحق به أولئك الذين كانوا قد فروا من المعركة، وكانوا قد نجوا من دوامة السند. أما السبيل إلى العمل فقد انحصر فى أن يختفوا فى الغابات إلى أن يتجمعوا، وبعد عدة أيام من توقف أعداد الرجال الذين خرجوا من الماء وجدوا جلال الدين، ومن هذه الجملة "جلال زراد" (١) الذى كان يعمل فى دار الأسلحة الجلالية فقد سبح عائذا فى الماء بسفينة إمداد والتحق بجلال الدين. وبهذه المناسبة فقد قدَّره السلطان وعهد إليه بدار الإسناد، ولقبه "اختيار الدين" وحسنًا أن نعرف أن صاحب دار الإسناد هو الشخص الذى يحولون إليه مبالغ من أموال الخزانة والعائدات وحوالات المدن وبعد ذلك تصل إليه بالعطاء وتحول منه تدريجيًا ثم تحول منه بتوقيع العامل عليها أو نائبه ويستهلكونها فى مقررات المخابز والمطابخ والإسطبلات ووظائف إعداد الملابس والخدمة والحاشية وغير ذلك.

وروايات المؤرخين فيما يتعلق بأعمال جلال الدين فى الهند والمدن التى سخرها والحروب التى خاضها وترتيب الفتوحات تتفاوت قليلاً مع بعضها البعض، ونحن هنا ننقل المطالب من خلال اختلافاتها مراعين ترتيب الأحداث.

روى العسس ونقلة الأخبار الذين كانوا قد توجهوا إلى الأطراف فى هذا الوقت من أجل معرفة الأخبار أن جمعًا من صعاليك الهند قد انغمسوا فى الطرب والتسلى. وعلى بعد فرسخين من قصر السلطان الذى أمر بأن يقطع كل واحد من أعوانه خشبة من الشجر، ويحملوا عليهم ليلا فهلك أكثرهم وغنموا أسلحتهم ودوابهم ومتاعهم، ووصل فى هذه الأثناء جمع من رفقاء السلطان من ناحية إيران أيضًا فزادت قوته.

---

(١) اسمه مستمد من مهنته إذ إن زراد خانه بمعنى مصنع الأسلحة. وهذا يفسر لنا أن الأسماء التى أُخذت من حرفتها أو مهنتها إنما هو عرف فى دول الشرق منذ القدم.

وفى إثر هذه الأحوال أخبروا السلطان أن واحدًا من حكام الهند المحاربين يدعى "زانه شتره" صاحب جبل جودى عندما علم أن الخوارزمشاه قد لاذ بالهند بلا أعوان وزاد وعتاد قصده على رأس ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة فصمم السلطان على أن يعبر نهر السند صوب إيران ويختفى فى الغابات كى يزداد عدد أفراده، وتُحشد عدة وعتاد الحرب فيتصور الهنود أنهم من التتار فلا يتصدون لهم. من هنا يتعقبهم بالفيلق الذى رافقه وأرسله من قبل برئاسته ومن معه من قادة. غير أن "زانه شتره" وصل فجأة برفقة عسكر الهند، وحمل عليه بتهور، ولكنه فقد اتزانه عندما شاهد جلال الدين الذى ثبت بالأعوان أمامه برجولة. ولدى اقترابه أطلق عليه سهمًا من القوس أصابه فى صدره، وسقط من فعله صريعًا، وتفرق جنوده برؤيتهم القائد على هذه الحال. وغنم عسكر جلال الدين أسلابًا وفيرة. وبعد فترة ولّى جمع من الغزاة وأناس حرفتهم الحرب شطر جلال الدين فحصل له ما بين الثلاثة والأربعة آلاف من العسكر بالإضافة إلى الأعوان من إيران، وما إن وصل خبر جيشه إلى جنكيز وهو بحدود غزنين محتشد أرسل جيشًا بقيادة توربای تقشی "دوربای نویان" أو "بلانویان" لدفعه.

اتجه هذا الجيش إلى وسط الهند ولكنه لم يواجه السلطان ولم يجده فسخر بعض القلاع وقتل أهل بعض الأنحاء فى طريقه، ومر بجانب "المولتان ولاهور" وأغار على برشاور، ولما افتقد جلال الدين عبر نهر السند وقفل راجعًا إلى خدمة سيده من جديد.

بمجىء المغول دلف جلال الدين إلى ناحية دهلى، وعندما وصلها بفاصل يومين أو ثلاثة أرسل واحدًا من معاونيه يدعى عين الملك إلى شمس الدين التتمش "ايلتتمش" ٦٠٧ – ٦٣٣ هـ/ ١٢١٠–١٢٣٦م.

شمس الدين هذا الذى كان فى البداية من غلمان سلاطين الغور هو مؤسس السلسلة الشمسية فى الهند ومن سلاطينها المشهورين. وكانت رسالة الخوارزمشاه على نحو أنه بحاجة إلى مساعدة وعدة وعتاد ومنازل لعدة أيام ولكن شمس الدين انتابه القلق وجبن، وهو الذى كان قد سمع بفروسية وشجاعة السلطان قصصًا كثيرة فقضى عدة أيام فى "طفره" سُم فيها مبعوث السلطان وأرسل إليه الهدايا من أجل رفع الشر واعتذر أن هواء منطقة دهلى ليس مناسبًا للإقامة وأن السلطان يستطيع أن يأخذ الأنحاء والأطراف من حاكمها العنيد والعاصى غلبة وقهرًا متى رأى المصلحة فى ذلك؛ ويتمركز فيها. وحينما

عرف الخوارزمشاه برسالة التتمش عاد وكان الهاربون فى الجيش والغزاة المأجورون يزدادون احتشادًا حوله يومًا بيوم. وفى الوقت الذى وصل فيه إلى جبل "بلاله وركاله"، أرسل تاج الدين ملك الخلج بجيش إلى جبل "جود" لكى يغنموا ما يستطيعون اغتنامه، وعندئذ أرسل مبعوثًا إلى كوكار ستكين "كوركان ستكين" الذى كان من راجات الهند وصرح البعض أنه كان راجا لاهور، وطلب ابنته للزواج فأبدى رأيه بالموافقة وخطب ابنته لـ "جلال الدين" وأرسل ابنه أيضًا بجيش إليه ونادى الخوارزمشاه هذا الابن بـ "قتلغ خان".

بدا حقد قديم بين ناصر الدين قباجه "قباجه" الذى كان حاكمًا على بعض ولايات السند وكوركان ستكين، ولمَّا مال الأول إلى الصلح مع السلطان رأى "قباجه" المصلحة فى أن يبرم صلحًا مع جلال الدين وأرسل إليه الهدايا حتى يأمن أذاه.

وفى هذه الأثناء نمى إلى سمع السلطان جلال الدين أن ابنة أمين الملك خرجت سالمة من نهر السند، وأقامت فى مدينة تتبع "قباجه" إذ البلاد تحت إمرته. أرسل السلطان رسالة إليه أن هذه المرأة من أقاربى، وينبغى أن تعيدها إلىّ سالمة وباحترام فاغتنم "قباجه" الظروف، وأرسل هذه الابنة معززة مكرمة إلى بلاط جلال الدين، وتقرب بفعلته هذه إلى السلطان إلى أن تبدلت هذه المحبة إلى عداوة لأسباب عدة وتكدرت النفوس.

وكان من علل الاختلاف والتوتر أن وزير جلال الدين أى شمس الملك شهاب الدين ألب قد سعى فى سحب حرب جنكيز ضد الخوارزمشاه على مقربة من ساحل نهر السند إلى حدود متصرفات قباجه وهو الذى يراه رجلا طيب الأرومة وجديرًا بمناصبه العالية والهادئ والكريم فقربه منه وجعله محط أسراره. وعندما تصور أن الخوارزمشاه قد أسلم الروح فى دوامة مياه نهر السند العميقة طرح أسراره التى لا ينبغى أن تفشى أمام شمس الملك، ولكن بمجرد أن انتشر خبر نجاة جلال الدين ووصول الخوارزمشاه إلى حدود ممتلكاته واستدعائه الوزير، إلا وحل الندم والخوف به من إفشاء تلك الأسرار أمام الوزير وتصور أن الوزير سيسر بها إلى السلطان، ولذلك أمر أن يقتلوه خفية فتموت الأسرار معه، ولا يعلم بها جلال الدين إلى أن جاء وقت توتر فيه ملك نصرة الدين محمد بن حسين الخرميل والأمير إياز المعروف بـ "هزار مرد" من "قباجه" وابتعدا عن خدمته والتحقا ببلاط جلال الدين وأطلعاه على نية قباجه بقتل الوزير. وسبب آخر تمثل فى

اختفاء ابن أمين الملك المدعو قرنخان وظهوره فى مدينة "كلور" من توابع حكومة "قباچه" حيث طمع أهلها فى متاعه وقتلوه وقدموا جوهرة نفيسة كانت فى أذنه إلى "قباچه" فأخذ قاتله ناحيته كإقطاع وضيعة من باب المكافأة.

لهاتين العلتين وعلل أخرى تضرر السلطان من قباچه وكان تضرره يزداد يومًا بعد يوم، ولكنه كان يرى المصلحة فى أن يمالئه فترة ينتظر بعدها الفرصة المناسبة؛ إلى أن جاء وقت التحق فيه جمع من أمراء غياث الدين بيرشاه أخو السلطان بخدمة جلال الدين كانوا قد أشاحوا بوجههم عن بلاطه وانضموا بخدمة جلال الدين.

صار الخوارزمشاه قويًا بوصول هؤلاء الأمراء وأتباعهم واتجه إلى سطح جبل جود بسبب حرارة الجو وعبر بـــ "سلاله وركاله" ثم طرق أبواب مدينة "كلور" وحاصرها، وفى حومة المقاومة نزل إلى جلال الدين سهم، فاضطرب الخوارزمشاه، ولم يسترح نهارًا من المواجهة حتى أخذ هذه المدينة وقتل سكانها، وكتب بعض المؤرخين قلعة "بس راور" بدلاً من مدينة "كلور". والقصة أن السلطان بعد فتح هذه المدينة أسرع صوب قلعة "برنوزج" وأغلق مدينتها وهناك أصابه سهم، ولكن لم يطل الوقت إلا وسخر القلعة أيضًا ودخل "كلور" نهارًا. ولهذه الأسباب تجمعت موجات النفور بين الخوارزمشاه وقباچه الذى كان يرى أن ممتلكاته تضيع من بين يده واحدة فى إثر الأخرى فتهيأ للحرب ضد جلال الدين وساعده فى ذلك شمس الدين التتمش أيضًا بجيش واستعد قباچه بعشرة آلاف فارس مجهزة للحرب. وكان جلال الدين يعلم أن لا طاقة له بمثل هذا الجيش الضخم؛ بل إنه لا يقوى على مواجهته، فأطلق صيحة الليل وأخذ عسكر "قباچه" بغتة فقعد الذى كان قد غفل عن تدارك الموقف، واضطر للفرار مخلفًا وراءه الخزائن والخيام المنصوبة وعدة وعتاد الحرب فآلت إلى جلال الدين ومرافقيه. وبذلك تخلصوا من اضطرابهم ونقص إمداداتهم.

والرواية الأخرى هى أن السلطان أرسل جيشًا بقيادة أوزبك ناين "أوزبك باين" لإخضاع "قباچه" الذى كان قد جهز معسكرًا على ساحل نهر السند قرابة مدينة "اوجه" واستعد للدفاع بعسكر كثير، فحمل عليه "أوزبك باين" بسبعة آلاف رجل ليلاً وفرّق جنده وغنم كثيرًا، فذهب "قباچه" بزورق إلى جزيرة عن طريق نهر السند أقام فيها القلاع الحديثة، ولكنهم هرّبوه من هناك، واضطر إلى أن يذهب إلى المولتان. واعتبر البعض من

المؤرخين هذه الحرب قبل حرب "بس راور" وعلى كل حال ذهب السلطان صوب لاهور قبل هروب قباجه وفيها تم الصلح بين الاثنين بشرط التعهد بالخراج سنويًا واعتذر "قباچه" أيضا والتمس من السلطان ألا يمد يده إلى ممتلكاته وتوجه السلطان إلى ناحية المولتان وطلب من "قباچه" الخراج مرة ثانية، ولكنه امتنع عن دفعه وأعلن العصيان معلنًا الحرب.

وقصد السلطان ناحية "أوجه" بعد مدة من الصدام إذ شرع أهلها فى التمرد فأقام حوالىّ المدينة يومين إلى أن أخذها مشعلاً فيها النيران ثم قصد "سبوستان"، وكان فخر الدين سالارى يتولى إمارتها من جانب "قباچه". وشرع قائد جنده "لاجينى خطائى" فى محاربة أورخان الذى تولى مقدمة جيش السلطان، ولكنه قتل فى الحرب وحاصر أورخان المدينة، ولما وصل السلطان إلى المدينة خرج فخر الدين منها بسيفه وكفنه معتذرًا ومعلنًا شرط الخضوع مسلمًا مفاتيح الخزائن، فأخذ الخوارزمشاه ما فيها من أموال ووزعها على مرافقيه وأقام حوالى شهر وفوض حكومة المدينة لفخر الدين أيضا ثم عزم على الرحيل إلى "دبيل (ديول)" و"دمريله"، ويعتبر النسوى أن حملة السلطان على اوجه قد تمت بعد تسخير "سبوستان"، ويقول إن المدينة قد استسلمت للسلطان بعد الحصار وتصالح الناس، ثم يقول إن السلطان أسرع من هناك إلى خانسر التى كان آمرها من أصدقاء شمس الدين، وعزم جلال الدين على الراحة. ولكن كما سنرى يكتب الجوينى عن ديول وحاكمها المدعو "خنيسر" أنه قد هرب إلى البحر. وعلى كل حال ليس لنا من طريقة سوى جمع الروايات لكشف الحقيقة، نعم يقول الجوينى نزل جلال الدين قريبًا من ديول فهرب حاكمها خنيسر وذهب إلى البحر، وبنى السلطان فى ديول مسجدا جامعًا فى محل معبد، وأرسل "خاص خان" من أعوانه على رأس جيش صوب نهر واله وغنم هذا القائد وفيرًا من هذه الحملة.

ركن جلال الدين فى هذا الوقت إلى الراحة، وفجأة وصل الخبر بأن "شمس الدين التتمش" يستعد لمحاربته بجيش ضخم مكون من ثلاثين ألف فارس ومائة ألف من المشاة وثلاثمائة فيل، ولم يضعف جلال الدين وتهيأ للحرب وأرسل جهان بهلوان باين (ناين) الذى كان مناضلاً مفرقًا للصفوف على مقدمة الجيش فقتل جمعًا وأسر آخر فى الحرب التى اشتعلت بين أزبك ومقدمة التتمش وبعد فترة طلب رسول شمس الدين الصلح فأرسل جلال الدين اثنين من معاونيه برفقة رسول التتمش ولكن بقى هذان الشخصان فى بلاط شمس الدين ولم يعودا أدراجهما.

رأى الخوارزمشاه أن البلاء يكمن له مرة أخرى من الجهات الأربع، ووجد نفسه في مأزق على الرغم من اتساع إقليم الهند - لصالحه - فتشاور مع أعوانه، ولكنهم لم يكونوا على رأى واحد واعتقدت الجماعة التى كانت قد جاءت من بلاط غياث الدين أن السلطان ينبغى أن يذهب إلى وسط إيران وعراق العجم ويأخذهما من خلفاء أخيه، وكانوا يقولون إنهم شهود على شوق قادة العراق ورغبة عسكره، وسيخضعون ويلتقون جميعا حوله بمجرد وصوله.

غير أن جهان بهلوان أوزبك باين (ناين) فكان يعتقد أن بلاء جنكيز وفتنة التتار يمكن أن يكونا مأمونين فى الهند، ولم يكن يعد من المصلحة أن يحرر الخوارزمشاه الهند ويذهب إلى إيران غير أن شوقه فى العودة إلى دياره غلبه فى النهاية وأسرع إلى كرمان قادمًا من طريق مكران؛ ذلك أن براق الحاجب الذى كان من خاصة السلطان محمد الخوارزمشاه ومن أعوان السلطان غياث الدين بيرشاه أخى جلال الدين تسلط على كواشير عاصمة كرمان وصار من أعوانهم.

عهد الخوارزمشاه إلى جهان بهلوان بتمثيله فى البلاد الهندية المفتوحة ولقب حسن قرلق بـــ "وفاء الملك" وجعله مأمورًا على مدن من أنحاء الغور وغزنين التى لم تقع بعد فى يد التتار.

بقي وفاء الملك فى الهند حتى نهاية عمره، أما عن جهان پهلوان فقد أخرجه الهنود من متصرفاته عام ٦٢٧ هـ/١٢٢٦م، وأجبروه على أن يعود إلى العراق.

كان هذا هو بعض ما مر بجلال الدين الخوارزمشاه فى الهند ولم يساعده الحظ، وإن كان من الكثرة بمكان على أولئك الذين ذهبوا إلى تلك الديار وجعلوا من السلطنة والقدرة مكمن قوتهم، فلم تكن لهم شجاعة الخوارزمشاه وهمته ومنهم مثلاً شمس الدين التتمش ابن غلام سلاطين الغور الذى سبق أن تحدثنا عنه وعلى حسب قول ظريف؛ ما من مهاجم لم يغلب فى الهند مطلقًا وربما السبب فى ذلك طبع الناس الرقيق وبحثهم عن الهدوء.

غير أن شجاعة جلال الدين وفروسيته كانت سببًا فيما حل به من وبال. والحقيقة هو أن أهل الهند كانوا يظنون فى الخوارزمشاه أول من يحمل على التتار، وبمعنى آخر

يعتقدون أنه أينما وصل فإن المهاجمين المغول سيجدّون فى تعقبه، ويجوز أن الحقَ معهم ودليل هذا أنهم كانوا يمتنعون عن حمايته واللواذ بهم. فقد كان سيف جلال الدين هو ما يسكتهم ويدفعهم إلى الطاعة، سكوت بلا رضاء وطاعة على خلاف رغبة، ولكن هذا الهدوء الظاهر والخضوع دون صفاء وواقع لم يكن ليستمر طويلاً بل كان من المنتظر إن عاجلاً أو آجلاً أن يؤول إلى التمرد والعصيان ثورة وطغيانا ليفحص معهما عمل جلال الدين فى الحرب بلا عدة وعتاد وتجوال وهجوم على ديار أخرى واستئناف لحرب من جديد وتحرك آخر. ومرة ثانية بلاد أخرى ثم حرب وتحرك وتجوال آخر.

والخلاصة؛ أن محاولات السلطان جلال الدين الخوارزمشاه فى الهند كانت للحصول على مأوى، ولكن - كما رأينا - لم يوفق واستطاع فقط أن ينجو من كل هذه الأحداث بسلام، ويعود إلى إيران. وهذه هى أعماله فى هذه الديار.

المبحث الحادى عشر

العودة إلى إيران

كما رأينا فى الفصل السابق، قصد السلطان جلال الدين ورفقاؤه إيران بعد التشاور وتوخى الأصلح، غير أنه فى المسافة بين كرمان والهند خاصة فى الصحراء القاحلة التى لا نبت فيها والواقعة بين هاتين الناحيتين ابتلوا بقيظ الحر وعدم ملاءمة الجو ونقص العلف والمياه بما ترتب عليه ضرر كبير، فكأن الصدمات الأخرى قد ضاعت من ذاكرتهم. وفى النهاية وصل بمعية أربعة آلاف رجل إلى كرمان بعضهم يركب البقر والحمير، وأرسل براق الحاجب هداياه وأعلافه بمجرد وصول جلال الدين، وقدم قائد القلعة مفتاحها وتزوج جلال الدين ابنة البراق وأقام عدة أيام فى كواشير عاصمة كرمان.

وقبل أن نتابع الأحداث يحسن بنا أن نشير إلى أوضاع إيران وقت وصول جلال الدين خاصة من حيث الحكام والملوك والسلاطين الذين حكموا هذه النواحى وأن نتحدث عن الملوك والسلاطين المجاورين فى أنحاء إيران الغربية الذين ارتبطوا بجلال الدين. ونبدأ وصولاً لهذا الهدف من أول محطة لجلال الدين أى كرمان وحاكمها أى براق الحاجب.

كان البراق فى جهاز كورخان الخطائى وكان له منصب الحجابة وحدث أن جاء رسول ومندوب لكورخان إلى بلاط محمد الخوارزمشاه فى النزاع بين الاثنين. ولكن السلطان لم يسمح له بالعودة وأقام البراق فى البلاط إلى وقت زوال دولة القراخطائيين، وبقى بعد ذلك لدى الخوارزمشاه وتولى الحجابة. ولما انزوى السلطان محمد خوفاً من التتار دخل البراق فى خدمة ابنه غياث الدين بيرشاه وسطع نجمه إلى أن جاء غياث الدين إلى العراق، وأرسل البراق الحاجب إلى كرمان فسخر مدينة كواشير عاصمة إقليم كرمان واتخذها مقرًا لإقامته. وكانت هذه الناحية فى التقسيمات التى كان السلطان محمد الخوارزمشاه قد أقرها لإدارة السلطنة وتوزيع الحكم فى أنحائها المختلفة من طرف غياث الدين بيرشاه بينما كانت غزنين والغور وأنحاء ذلك الجزء تحسب لجلال الدين وحكم ركن الدين غورسانجى الابن الآخر للخوارزمشاه على عراق العجم.

أما ركن الدين غورسانجي الذى حكم العراق فى حياة أبيه فقد توجه إلى كرمان بعد وفاته وشرع فى تجميع الجيش، واستولى على خزانة الملك زوزن ووزعها على العسكر وعاد من هناك إلى العراق وحمل على أصفهان واستولى بمساعدة رئيس الشافعية سعد الدين الخجندى[١] على قسم من ضواحى المدينة وأخذ بالخصوص ضاحية "جوباره" التى كانت مقرًا للقاضى ركن الدين مسعود ابن صاعد وقتل جمعًا من أهلها وذهب إلى فارس لائذا بالأتابك سعد بن زنكى. وقد ضاق الأصفهانيون ذرعًا بتصرفات عسكر ركن الدين، ولم يتحملوا تعديهم وتمردوا وقتلوا عددًا منهم، وذهب ركن الدين إلى الرى وشرع هناك فى الاصطدام بحكام الإسماعيلية، وعندما سمع أن المغول قد قصدوه لجأ إلى قلعة "فيروز كوه "، ولكنها استسلمت للتتار بعد عدة شهور وقتل ركن الدين.

وحتى لا ينقطع حبل الحديث فى شرح حال جلال الدين مرة أخرى فى بيان أعمال غياث الدين پيرشاه أخى السلطان جلال الدين عن بعضه، وتتضح أوضاع عراق العجم لدى وصول جلال الدين إلى إيران، فإننا نشير إلى أن غياث الدين كان قد جاء مع السلطان محمد الخوارزمشاه من خراسان إلى العراق. ولمّا أرسل الخوارزمشاه حريمه إلى قلعة "قارون" من القلاع الداخلة فى جبل البرز سيّر معهن غياث الدين الذى ذهب إلى كرمان حيث كانت ضمن متصرفاته بعد وفاة السلطان، غير أن شجاع الدين أبا القاسم قائد قلعة كواشير من ملازمى الملك زوزن لم يفتح باب القلعة فى وجهه، ولكنه أرسل الهدايا معتذرًا وأظهر الخدمة قولاً بأننى حاكم أمين وقديم.

أدرك غياث الدين من هذه الكلمات أنه عاصٍ وغير جاد فى الطاعة، واضطر للعودة إلى العراق واجتمع العسكر المتفرق وتوجه القادة وأعيان الخوارزمشاهية إليه وتجمع بعض من الرؤساء والجنود، وكان ضمنهم أغول الملك وبراق الحاجب أيضًا. وكان القائد الآخر الذى التحق بخدمة غياث الدين يدعى "يغان الطايسى" وهو خاله فى نفس الوقت. ولكن كان له من النفوذ ما هو كثير ويدعو إلى الاستقلال والتسيد على التاج والعرش. وكان الخليفة العباسى يشجعه على هذا التمرد سرًا، كما كان للأتابك سعد بن زنكى والقاضى صاعد اليد الطولى فى إثارته وادعائه، وفى النهاية شرع فى عصيانه

(١) اشتد الصراع بين الحنفية بزعامة آل صاعد، والشافعية بزعامة آل خجند إلى حد الاقتتال فى أصفهان عندئذ.

جهرة على غياث الدين ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، ولكنه هزم فى المعارك وهرب مع الزعماء المتمردين إلى آذربيجان. وبذهاب غياث الدين إليها وتصالحه مع الأتابك أوزبك وزواجه من ابنته اتجه من هناك إلى فارس وأحضر أبا بكر بن الأتابك سعد فى الخفاء على أن يثور على الأب. وجرح الأتابك سعد بيد الابن إثارة من غياث الدين غير أن الجرح لم يترك أثرًا وقيد الابن وأرسل إلى قلعة "استخر" ولجأ الأتابك سعد إلى نفس القلعة. بوصول غياث الدين الذى تابع سيره إلى شيراز عام ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤م سخر أغلب أنحاء إقليم فارس، ولكنه يتصالح فى النهاية مع الأتابك سعد ويتقاسم معه هذه الأنحاء. وعندما وصل خبر هجوم التتار على العراق عاد غياث الدين إلى الرى، وتمت هذه العودة بناء على طلب من الخليفة الناصر؛ كى يصير سدا بين الغزاة التتار والممالك الإسلامية. وسنتابع أحوال غياث الدين فى مكانها.

كان أتابكة يزدِ يديرون إقليم يزد، وكان من حكام هذه السلسلة محمود شاه بن سپهسالار ٦١٦- ٦٢٩هـ /١٢١٩-١٢٣٢م، معاصر جلال الدين الخوارزمشاه، ولما كتبوا أنه عندما عزم جلال الدين على السفر من كرمان صوب فارس، استقبله أتابك يزد علاء الدولة، وأخذ لقب "اتا خان" بما يعطى احتمالاً أن يكون هذا الشخص هو محمود شاه الملقب بعلاء الدولة وليس علاء الدولة - الذى حكم فى عام ٦٧٠ هـ /١٢٧٣م - المعاصر لجلال الدين، وسيلتفت القراء الأعزاء إلى هذا الوضع.

كان إقليم فارس فى هذا الوقت تحت إدارة أتابكة فارس أو السلغوريين، فسلغور هو اسم جدهم، وأولئك الذين حكموا فى فارس هم أحفاده، أما ابتداء ترقيهم والوصول إلى الحكم فهو منذ "بوزابه" وأخيه "مودود" وأخذ سمة الأتابكية من محمد بن محمود ابن أخ السلطان مسعود بن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى. استولى سلغر بن مودود عام ٤٣٥ هـ /١٠٣٥م على فارس، وبقى أبناؤه حتى عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٥م فى هذا العمل، حتى عام ٦٦٣هـ/١٢٦٦م، ولكنهم خضعوا دائمًا للسلاطين الكبار من معاصريهم مثل الخوارزمشاهيين والإيلخانيين. وكان الأتابك سعد بن زنكى ٥٩٩ - ٦٢٣ هـ / ١٢٠٢-١٢٢٤م وابنه أبو بكر سعد ٦٢٣ - ٦٥٨هـ / ١٢٢٦-١٢٦١م ممدوحى "سعدى الشيرازى" من معاصرى الخوارزمشاه والخاضعين له. كما كان خلفاء بغداد وحكام فارس وسلاطين إيران المتنفذون يحكمون أنحاء خوزستان ويتناوبون عليه تزامنًا مع رحيل

جلال الدين إلى هذه الديار؛ إذ كان الحاكم على شوشتر هو مظفر الدين وجه السبع من طرف الخليفة.

والخلفاء العباسيون المعاصرون لهذا السلطان هم الناصر لدين الله ٥٧٥ - ٦٢٣هـ / ١١٧٨-١٢٢٦م، ثم الظاهر بأمر الله ٦٢٢-٦٢٣هـ / ١٢٢٥-١٢٢٦م، والمستنصر بالله ٦٢٣-٦٤٠ هـ /١٢٢٦-١٢٤٣م. والخليفتان الثانى والثالث كانا على رضاء وموافقة للسلطان جلال الدين. أما الناصر الذى عاصر تكش ومحمد الخوارزمشاهيين المقتدرين وحقده عليهما فلم يكن على وفاق مع السلطان جلال الدين، وتصرف معه فى الظاهر بهدوء وفى الباطن بقلق فهو من أدهى الرجال وأمكرهم فى التاريخ. ولم يقصر قرابة نصف قرن عن أداء أى عمل من شأنه إثارة القلاقل وتعكير للصفو تجاه الأسرة الخوارزمشاهية، ووفر أسبابًا كثيرة ضد هذه الأسرة المقتدرة والأسر المشابهة كيما يخضعهم لسلطانه أو يقمعهم وينكل بهم؛ ففتح بابًا لملوك الطوائف وحكامها وحرك العداوة. وكما يعتقد الكثير من المؤرخين ويذكرون فقد مهدت دعوات هذا الرجل الخفية وتهيئته المجال لهجوم المغول وزوال ملوك الغور والدولة الخوارزمشاهية. كان هذا هو التدبير الوضيع الذى توخاه الخليفة الناصر إزاء السلاطين المتنفذين، بينما كان قد سلك تجاه الحكام الصغار ورؤساء الفرق الإسلامية والاجتماعية طريقًا آخر لإخضاعهم وأوجد طريقة خاصة فى الفتوة والجسارة وفرض نفوذهم المعنوى على الطوائف والممالك والأنحاء عن هذا الطريق فاتخذ لبس سروال الفتوة تشبهًا بخرقة الصوفية وشرب كأس المروءة (شراب الماء والملح) سببًا فى حسن وفادته فى المدن والبلاد ومحلاً لاستقبال العامة. نموذجًا لنفوذه وتأثيره. يكفى ما يقال عن سلطان آسيا الصغرى علاء الدين كيقباد السلجوقى أنه كان قد اعتقد فى هذه الطريقة بينما عقيدة حكام آخرين فى البلاد الإسلامية لم تكن على هذا النحو.

وكان عمل هذا الخليفة الآخر تربية الطيور والحمام الزاجل وتعلقه الكبير برمى الكرة الطينية. وهى عبارة عن قصبة فارغة يضعون فى ناحية منها كرة من طين يصوبونها تجاه الحيوانات والطيور الصغيرة بقصد الصيد وكانوا ينفخون فى ناحيتها الأخرى، وعلى هذا النحو يصيبون صيدهم بإطلاق الكرة الطينية.

والقصة : أن شرح حيل وأساليب هذا الخليفة بحاجة إلى حديث طويل، وقد كتب المؤرخون تفصيلاً عن تآمره وأعماله الشنيعة، وكتبوا الروايات فيما يتعلق بفتوته. ويكفى هذا القدر مما قيل لتوضيح الصورة أمام القراء الأعزاء.

وكان أتابكة اللر يديرون لرستان أو باصطلاح ذلك العهد "اللر الصغرى" وكان الأتابك هزار آسب الذى حكم حتى عام ٦٢٦ هـ /١٢٢٩م ومن بعده الابن عماد الدين هزار آسب ٦٢٦ – ٦٤٦ هـ / ١٢٢٩-١٢٤٩م وكلاهما من معاصرى الخوارزمشاه.

وحكم أبناء أبى بكر بن أيوب؛ أى أبناء أخى صلاح الدين الأيوبى المجاهد الكردى المعروف فى الأجزاء الشرقية والجنوبية من آسيا الصغرى ونواحى الشام وأقسام الشمال من بين النهرين.

وعلى هذا النحو من التفصيل كان يحكم مصر الملك الكامل محمد ٦١٥ – ٦٣٥ هـ / ١٢١٨-١٢٣٨م، والملك المعظم عيسى فى دمشق ٦١٥-٦٢٤ هـ / ١٢١٨-١٢٢٧م، والملك الأشرف مظفر الدين موسى فى حرّان والرها (٦١٥ – ٦٣٥هـ/ ١٢١٨-١٢٣٨م، وأيضًا كان الملك المظفر شهاب الدين غازى حاكمًا لقسم من الأراضى الشمالية فيما بين النهرين مثل سرو، وأخلاط وجبل جورجانى بينما حكم الملك المنصور على منطقة ماردين ومظفر الدين كوكبورى مدينة أربيل، وكان للملك المسعود من ملوك ارتقيه ٦١٩ – ٦٢٩ هـ / ١٢٢٢-١٢٣٢م مدينة آمد وما حولها.

أما الأقسام الشرقية والغربية من آسيا الصغرى التى تعرف لدى المسلمين ببلاد الروم فكانت قد استقرت تحت تصرف السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى ٦١٦ – ٦٣٤ هـ /١٢١٩-١٢٣٧م، من سلاجقة آسيا الصغرى بينما امتلك ابن عمه ركن الدين جهانشاه بن طغرل حكومة أرزنة الروم.

أما آذربيجان فأتابكها مظفر الدين أزبك ٦٠٧ – ٦٢٤ هـ /١٢١٠-١٢٢٧م، ابن محمد جهان بهلوان وحفيد شمس الدين ايلدكز مؤسس سلسلة أتابكة آذربيجان، وحكمت الملكة رسودان ٦٢٠ – ٦٤٥ هـ /١٢٢٣-١٢٤٨م فى جرجيا.

ولم يكن للحكام الصغار فى الأنحاء والمدن النائية طاقة، والحاصل أنه لم يكن هناك ما لها من التحكم والاقتدار والتآمر على جميع الأنحاء والأمراء وإيجاد قوة راسخة.

بينما السلطان جلال الدين الخوارزمشاه الذى مثل بقية السلسلة الخوارزمشاهية المقتدرة هو الذى كان يستطيع ذلك العمل فهو جدير به، بل إنه كان قد سعى إلى ذلك بأن يبعث هذه القوة من جديد، ويصبح واسطة العقد بين هؤلاء الأمراء والحكام، ولكن لماذا لم يدخل هذا القصد مرحلة التنفيذ؟، هذا هو ما سيتضح فى الآتى.

فبالتزامن مع وصول جلال الدين إلى كرمان قادمًا من الهند كان براق الحاجب مقيمًا بكرمان كنائب لغياث الدين، ولكن فكر الاستقلال كان يلعب برأسه خفية فكان أن تعلق بهذه الناحية، ووقف السلطان جلال الدين على نيته فى أيام الإقامة بكرمان فأساء الظن به وتشاور مع الأعوان فى أمره فرأى البعض مثل أورخان أن الصواب فى أن يأسر براق الحاجب وتدخل كرمان فى حوزة السلطان، ويجعل منها مقرًا له ومنطلقًا لتسخير أنحاء أخرى. إلا أن جمعًا آخر لم يلقَ هذا الرأى قبولاً لديهم ومن هؤلاء شرف الملك على بن أبى القاسم جندى المعروف بـــ "خواجه جهان" الذى كان وزيرًا لجلال الدين الخوارزمشاه فلم يعدّ هذا العمل من الصواب، وقال بغض النظر عن أن البراق هو أول شخص من حكام البلاد الذى أبدى الموافقة ودخل فى الطاعة فإذا أسرع السلطان فى أسره وعجّل فى القضاء عليه فستستريح قلوب الآخرين خاصة أنه لم يعد هناك من أحد لا يساعد أو يوافق؛ بل إن الجميع سيتوحشون وينفرون من رجل ثبت من قبل أنه ذو وجهين وبعث على الخلاف وسيتوقفون عن المساعدة والمؤازرة فقبل جلال الدين رأى الوزير، وذهب من كرمان صوب فارس.

ولكيفية وقوف السلطان على نفاق البراق رواية أخرى، وهى أن الخوارزمشاه خرج للصيد بعد إقامة لعدة أيام فى كواشير عاصمة كرمان فتحجج البراق الحاجب بأنه لن يشترك فى ركب السلطان لألم فى قدمه وبقى فى المدينة. ولما أخبروا السلطان فى أثناء الطريق أن الحاجب لم يأتِ برفقته أرسل إليه بأننا قد نقصد هذا المكان للصيد، ولما كان رأيك فى الصالح والمشورة الصائبة والمجربة ينبغى أن تشارك فى مجلس المشورة؛ أجاب البراق الحاجب أن بقائى فى المدينة كان بسبب ألم فى قدمى وليس لسبب آخر وأن السلطان لن يجد عبدًا أشفق منى عليه؛ فقد ابيضّ شعرى فى خدمة دولة الخوارزمشاهيين، وأننى رغم هذا الحال أطلع السلطان على أن ناحية كرمان ومدينة كواشير ليستا أكثر من مأزق لإقامة واستقرار ملك. ومن ثم فقد استخلصت هذه الناحية بامتشاق الحسام والحيلة

والتعب، وأمر فى إثر هذه الرسالة أن يغلقوا بوابات المدينة، وتحصن بالقلعة، وجاء الرسول إلى خدمة الخوارزمشاه محددا ما كان قد سمعه، ولما لم يكن لدى السلطان طاقة المقاومة وقدرة البقاء ووسيلة تسخير القلعة فقد عزم على السفر من كرمان صوب فارس، وبذلك استقر براق الحاجب على هذا النحو فى كرمان - وكما سنقول - استخدم حبلاً غليظًا لخنق السلطان غياث الدين وأمه إذ كانا قد لاذا بكرمان عام ٦٢٥ هـ /١٢٢٨م مستقلين بحكم كرمان، ومكث هو وأولاده مدة ثلاث وثمانين سنة من ٦١٩-٧٠٣هـ /١٢٢٢-١٣٠٦م فى حكمها، ويعرفون فى التاريخ بسلسلة "قراخطائىّ كرمان" أو "القتلغ خانيه" بالنسبة للقب القتلغ خان الذى كان للبراق.

وفى الطريق إلى فارس وصل الأتابك علاء الدولة من أتابكة يزد إلى خدمة الخوارزمشاه مقدمًا الهدايا اللائقة فأقره السلطان فى حكم يزد وأضفى عليه لقب "بابا خان"، وعندما عرف أن الأتابك سعد قد تكدر من أخيه غياث الدين بيرشاه وأن كدرًا استبد بهذا الصديق بصدد استمالة واحتواء الأتابك علاء الدولة لقبًا لمحمود شاه بن سپهسالار ٦١٦ - ٦٢٩ هـ /١٢١٩-١٢٣٢م أرسل ابتداءً وزيره شرف الملك إلى شيراز؛ ليتزوج ابنة الأتابك وأحسن الأتابك الوفادة لمقدم ممثل السلطان، وبعث بابنه سلغرشاه إلى خدمته، وفى مدينة نسا أرسل الهدايا والأطعمة والألبسة والعتاد ورتب ضيافات مجللة غير أنه اعتذر عن استقبال السلطان قائلاً إننى قد تفوهت بقسم غليظ منذ مدة طويلة بأن لا أذهب فى استقبال مخلوق وللسلطان جلال الدين أن يصفح عنى، ويقبل عذرى بسبب ذلك العهد الذى قطعته على نفسى، فقبل الخوارزمشاه عذره، ولقب سلغرشاه بـ "قرانداش" وعقد على ابنة الأتابك ملكة خاتون، وعندئذ طلب من الأتابك أن يصفح عن ابنه أبى بكر وأن يفك قيده ويطلق سراحه إذ كان الأتابك سعد مصرًا على أن يبرز للسلطان لباس الحرب الذى انشق بضربة سيف من ابنه، ويطلعه على تصرفه السيئ، وهنا تخلص من السجن بواسطة الخوارزمشاه، والتحق أبوبكر بخدمته، وظل لوقت طويل من مرافقيه.

وأبو بكر هذا الذى صار وليًا لعهد الأب ومن بعدها أتابكًا حاكمًا على فارس هو من ممدوحى سعدى الشيرازى الشاعر الذى سبق ذكره. والقصة أن جلال الدين بعد التعاضد بمصاهرة الأتابك سعد ذهب من شيراز إلى أصفهان بدعوة من القاضى صاعد،

وبالغ القاضى فى إكرامه وتجهيزه بعدة وعتاد الحرب ومتاع العسكر. فلم يسبق فى رفع حاجة أعوان السلطان أن وجد أداء لخدمات لائقة على هذا النحو إنجازاً، وأفاد الخوارزمشاه وجنده من هذا المنعطف والذخائر الأصفهانية وعدتها وعتادها وجيادها على نحو جيد.

ولمّا عرف غياث الدين پيرشاه بتحرك الأخ صوب أصفهان اتجه لدفع جلال الدين بالفرسان الذين التحقوا به من جند السلطان، وكان عددهم يصل إلى ثلاثين ألفاً. ولكن الخوارزمشاه الذى لم يكن لديه طاقة المقاومة وقصد المعارضة ضد أخيه أرسل إليه "أدك" أمير أخور حاملاً رسالة مفادها إننى بعد موت الأب أسير فى طريق استرداد الملك المسلوب وإخراج أعداء سفاحين مثل التتار وجميع القادة والجند ومواجهة المغول فى الأرض الموروثة وأتحمل وأتعب إلى هذا الحد. فجبال راسخة لا تقوى على التحمل، وقد رأيت فى ديار الغربة وبلاد الأجانب نكبات ومحن وحروب ومقاومة وفر وكر مما لا يدخل تحت وصف. وهكذا فقد ضاقت الدنيا علىّ بما رحبت ولم أجد مجالاً للراحة والإقامة، ومن هنا جئت إليك حتى أستريح من هذا النصب وتلك الشدة قليلاً؛ كى تستقبلنى بالسيف المسلول ومن ثم سأعود ولن أحارب.

تأثر غياث الدين من هذه الرسالة، ورفع يده عن الحرب، واتجه إلى الرى، ووزع العسكر فى المناطق الباردة أخذًا لقسط من الراحة. وعلى أثر هذا الوضع رغب جمع من القادة فى السلطان جلال الدين، الذى أرسل أيضًا خاتم عهد مع مبعوث إلى جمع آخر من قادة أخيه حتى يضمهم إليه خفية بالكلمة الطيبة، فنهض بعضهم لخدمته بهذا السبيل، وبقى عدد آخر على وفائهم لغياث الدين، وأطلعوه على رسالة جلال الدين وحكاية خاتم العهد فاضطرب غياث الدين، ولمّا كان قد فرّق العسكر، ولم تعد لديه الرغبة فى الحرب جلس مضطرًا ينتظر ما سيحدث!.

وفى هذا الوقت، جاء إلى جلال الدين أبو بكر ملك ابن خاله الذى كان من المندفعين إلى محاربته وأعلمه أن الغالب من قادته راغبون فيه، وحمل جلال الدين على غياث الدين بثلاثة آلاف فارس الذى امتطى صهوة جواد مسرج، ولجأ إلى قلعة من القلاع القريبة من الرى "سولقان" ودخل الخوارزمشاه خيمته مقدمًا واجب الاحترام إلى والدة غياث الدين فعاتبته على تصرفه وتجهيز الجيش ضد ابنها وقالت: إن غياث الدين أعز

عليّ من عينى وأتوقع الألفة وأنتظر المحبة والشفقة فقد رُفع السيف عليّ بدلاً من الألفة وسيق جيش ضدى بدلاً من الشفقة، ورغم هذا أعدُه مثل روحى وأعزّه كعينى.

أرسلت أم غياث الدين شخصًا يسكّن خاطره فأحضره إلى خدمة جلال الدين فكانا يتلازمان حتى وقت استوحش فيه غياث الدين من أخيه لخطأ وقع فغادر المكان،.واختفى فى ناحية ما على يد البراق الحاجب بكرمان - كما سنقول فى حينه - وبعد مجىء غياث الدين أحضر أمراء العسكر وقادتهم الكفن معلقًا فى رقابهم واحدًا فى إثر الآخر، والتحقوا بخدمة جلال الدين معتذرين عن تصرفهم فأحسن وفادتهم ولاطفهم.

ولما رأى المتمردون والعصاة الذين كانوا يطيعون غياث الدين اسمًا تدفقوا من الولايات والتحقوا بخدمة الخوارزمشاه، وبذلك خمدت الفتنة وبدت فى الأفق بوادر الهدوء.

المبحث الثاني عشر

السفر إلى خوزستان وفتح تبريز

اتجه الخوارزمشاه بعد استقرار أوضاع العراق العجمي إلى خوزستان لكي يقضي الشتاء في هذه الناحية الدافئة، ويهدأ الجنود، وجعل "ايلچي بهلوان" في مقدمة الجيش، وذهب هو إلى مدينة شوشتر "تستر أو ششتر" لتسخيرها.

ولدى تفرغ جلال الدين من أمر شوشتر وطرد مظفر الدين وجه السبع صنيعة الخليفة منها قصد "شابور خواست" في خوزستان، وأقام هناك مدة، والتحق أمراء اللر بخدمته. وأرسل ضياء الملك علاء الدين محمد بن النسوى رسولاً إلى الخليفة العباسي.

ولما كان حارس المجوهرات "سلطان ايلچي" بهلوان قد تصادم في حربه مع عسكر الخليفة والعرب وقتل جمعًا منهم وأسر آخر وأرسلهم إلى الخوارزمشاه الذي أمر بتحريرهم وإرسالهم إلى بلاط الخليفة طالبًا الصفح عن صنيع صاحب الجواهر العنيد؛ إلا أن الخليفة الناصر لم يكن يرغب في الاهتمام برسالته بسبب التكدر من الخوارزمشاهيين وعلى الأخص السلطان تكش والسلطان محمد. وعندما تخلص الأسرى من قيدهم كانوا قد وصلوا قبل الرسول إلى بغداد فتظاهر الخليفة بإكرام الرسول واحتفظ به مدة طويلة في بغداد وسمح له أن يعود بعد فتح مراغة على يد الخوارزمشاه. وعندما وصل إلى الخوارزمشاهيين تملكه الخوف والرعب من إقامة جلال الدين خوارزمشاه بجوار دار الخلافة وفتح باب المراسلة فأرسل "شاهر الدين قشتمر" على رأس عشرين ألف جندي من بغداد لدفع السلطان كما أمر مظفر الدين كوكبوري ٥٨٦–٦٣٠هـ/ ١١٨٩–١٢٣٣م، والي إربل من بلاد النواحي الشمالية في بلاد بين النهرين أن يسرع بعسكره للمساعدة، ويدفعوا متحدين الخوارزمشاه من حواليّ دار الخلافة.

ذهب الخوارزمشاه بعد انقضاء الشتاء واسترداد الجياد لعافيتها وقدوم الربيع لفتح البصرة عن طريق بغداد وكان قصده في الظاهر أن يساعد الخليفة ويرسخ من قوته المعنوية مقابل المخالفين الملحدين، ويقعد الغزاة بمساعدة ملوك المسلمين وأمرائهم. ولكن

الخليفة بدافع من الحقد القديم - كما قلنا - لم يهتم برسالته، وأرسل جيشا لدفعه من باب السهولة، فتحرك قشتمر بجنده من بغداد، دون أن ينتظر وصول مظفر الدين.

ولمّا عرف السلطان جلال الدين بنية الخليفة فى مهاجمته أرسل إليه رسالة تقول: "إن قصدى ليس تسخير بغداد وإنما أريد أن أطمئن لرضاء الخليفة ومساعدته". وعندئذ أمسك بالخصوم الأقوياء واصطدم بالغزاة الملحدين؛ ذلك أن هذه الجماعة قد نفذت فى كل مكان، وما من أحد من الملوك والأمراء فى البلاد الإسلامية حتى حكومة الخلافة بقادر على طاقة مقاومتهم بمفرده. وباتحاد وتضامن الخليفة المعنوى ومساعدة حكام الممالك الإسلامية وسلاطينها من الممكن أن يصير سببًا فى طردهم وتخليص بلاد الإسلام من الخراب، ولكن قائد عسكر الخليفة لم يسمع لهذا الكلام وشرع فى إعداد الجيش للحرب.

وعندما رأى الخوارزمشاه أن عدد أفراد الخليفة أكثر من عسكره أعد الكمائن وقاد القلب من الجيش وهاجم كرتين أو ثلاثة ثم عاد فجأة وهرب، ففطن قشتمر والجيش العربى إلى أن يجدّوا فى إثره بظن الهزيمة، وما إن قطعوا مسافة حتى خرج المتحصنون من كمائنهم وحاصروا قشتمر، وأنزلوا هزيمة قاسية بعسكره وتقفى السلطان جلال الدين أثر المهزومين، وتقدم حتى بعقوبا(١)على بعد سبعة فراسخ من بغداد، ولما لم يملك عسكره العدة والعتاد الكاملين شرعوا فى نهب العمران وأخذ الجياد والدواب بل العلف ولوازم الحرب وعدتها مما أوجد وحشة عجيبة.

ومع هذا الحال ولّى السلطان جلال الدين وجهه مسرعًا خارج بعقوبا وتوجه نحو الشمال، بينما كان يستطيع أن يدخل بغداد، ويطهر هذه المدينة والممالك الإسلامية من وجود الخليفة الداهية وسوء طويته؛ فقد كان السبب فى خراب الجزء الأكبر من الممالك الإسلامية بفعل غزو المغول الناشئ عن إثارته وتجسيد حقده والانتقام من جده وأبيه فى شخصه وتدمير الأسرة وتفريق ركائزها. ولكن ما إن فكر إلا وأعرض عن هذا العمل الذى يبدو سهلاً، ولا يعرف أحد ألم يكن لديه جيش كاف لتسخير البلاط العباسى؟ هل لم يكن يريد شق عصا الطاعة بين المسلمين؟، أو كان يعد بقاء الخلافة الإسلامية عاملاً فى اتحاد ملوكهم وبالتالى العالم الإسلامى، ويلزم غض البصر عن ذلك الاتحاد المحتمل.

---

(١) التاريخ يعيد نفسه فبعقوبا اليوم تعانى ما تعانى من جراء غزو قوات الحلفاء للعراق.

وأيًا كان الحال فإدراك خفايا الفتح والنصر الذى توقف من منتصف الطريق أمر صعب. ذهب الخوارزمشاه من بعقوبا إلى قلعة دقوقا، ولمّا عاداه أهلها سخرها وقتل البعض من أهلها، وعندما سمع أن مظفر الدين على رأس عشرة آلاف جندى قادم فى الطريق ويقصد أخذه بغتة أرسل بمن يستطلع الوضع.

تحرك جلال الدين بقادة شجعان مع عدد من فرسان مهرة من طريق جبلى وحمل على جيش مظفر الدين فجأة فأسره وفرق جيشه ولكنه راعى حرمته بعد الأسر ثم استبقاه فى منصبه فى حكم إربل مقره السابق مما أخجله من سبق الجرأة فى تجهيز الجيش وطلب الاعتذار واستغفر ربه. وقد قالوا إن السبب الأساسى فى الصفح عن مظفر الدين أنه توخى العدل وأسلوب الإدارة بما أدى إلى إخماد الفتن وتأمين الطرق وانعكس على رعيته بالأمن والهدوء.

ولدى عبور الأنحاء الغربية من كردستان دخل شهاب الدين سليمان شاه حاكم إحدى القلاع خدمة السلطان وزوّجه من أخته.

وفى أثناء توجه الخوارزمشاه صوب همدان عن طريق كردستان أخبروه قرب "الوند" أن "يغان الطايسى" القائد الذى كان قد أعرض عن غياث الدين وتمرد عليه وهرب إلى آذربيجان، ثم ولّى وجهه شطر العراق قادمًا من آذربيجان يقيم فى هذه النواحى فتحصل عليه الخوارزمشاه فى همدان وصفح عنه بواسطة من زوجته التى كانت ابنة للسلطان محمد الخوارزمشاه وأختًا لجلال الدين وغياث الدين فدخل ضمن عداد أمراء السلطانية. ومن هنا قصد جلال الدين ناحية آذربيجان. وقد ظن بعض من المؤرخين أن هزيمة "يغان الطايسى" قد حدثت بعد فتح مراغه.

تسخير آذربيجان:

كانت رسائل عديدة قد وصلت إلى الوزير شرف الملك من أهل مراغه شكاية من ظلم الجرجيين وتعديهم طالبين أن يذهب السلطان إلى ناحيتهم ويخضعها، فتوجه جلال الدين من همدان إلى مراغه دون حرب ونزاع وسيطر على زمام الأمور ثم عزم على التوجه إلى تبريز، وأخذ نواحى آذربيجان الأخرى وبعث بالرسل إلى سلاطين آسيا الصغرى والشام وولاتها طالبًا منهم المساعدة فى دفع أعداء الإسلام.

وعندئذ ذهب السلطان من مراغه إلى اوجان، وبقى هنالك عدة أيام، والتحق جمع من أهل تبريز بخدمته ورغّبوه فى أخذ تلك المدينة، وكانت آذربيجان فى هذه الأيام تحت حكم الأتابك أزبك بن الأتابك محمد جهان بهلوان الذى تزوج من ابنة طغرل الثالث آخر ملك سلجوقى، وكان يقضى وقته فى الشراب، فوجد الجرجيون فى هذا فرصة مواتية للهجوم على ممتلكاته، وحملوا فى سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م على شروان مرة وعلى آران وآذربيجان مرة أخرى غير أن دفاع المسلمين الشديد فى هذه الأنحاء أقعدهم.

ولمّا عرف الأتابك أزبك أن الخوارزمشاه قد وصل حوالىّ تبريز هرب إلى كنجه تاركًا المدينة فى أيدى زوجته الملكة. وصل السلطان إلى تبريز وأغلقها. وفى هذه الأثناء جاء إلى خدمته الرئيس نظام الدين بن أخى شمس الدين الطغرائى الذى كان شحنة فى تبريز إذ بقيت محاصرة سبعة أيام، ودعت الملكة أعيان المدينة قائلة لهم، إن سلطانًا كبيرًا قد حاصر مدينتنا، وإن أتابكها الحاكم قد هرب، وإن أهل المدينة ليست لديهم الطاقة على المقاومة، فإذا رأيتم أنه من المصلحة أن نسلم إليه المدينة فلنرسل جمعًا من المشاهير والقضاة بشرط ألا ينزل السلطان بحريم الأتابك والأعوان والأقارب أى أذى ولا يضر أحدًا فوافق الأعيان على وجهة نظرها. أرسل قاضى القضاة عز الدين القزوينى الذى كان من علماء عصره وأعيانه جمعًا من الحجاب إلى السلطان وطلبوا الأمان وتعاهدوا على ألا ينزل السلطان ضررًا بالملكة وأعوان الأتابك، وأن يذهبوا حسب ما يريدون وقبل السلطان، وفى اليوم التالى ذهب إلى خدمته أركان المدينة وأعيانها محملين بالهدايا وسلموا المدينة فى شهر رجب من عام ٦٢٢ هـ /١٢٢٥م للخوارزمشاه، وعلى الرغم من أن السلطان كان قد أصابته نفرة من أهل تبريز، ويعدّهم شركاء فى سفك دماء العسكر الخوارزمى وإرسال رؤوس القتلى إلى التتار إلا أن اتفاقًا كان قد عقد قبل ذلك واعتبر هذا من باب تقصير أهل المدينة وعدّ إيفاد الملكة لتابعيها الخصوصيين تاج الدين قليج، وبدر الدين هلال إلى مقره صفحًا ولم يتعرض لمتصرفاتها؛ بل تصرف مع أهل تبريز برحمة، وشرع فى تعمير خراباتها واستحداث الجديد من المبانى وقرأ الخطبة باسم الخليفة فى المدينة. ثم استعد للحرب مع الجرجيين.

المبحث الثالث عشر

الحرب ضد الجرجيين

كما قلنا استعد السلطان جلال الدين للحرب ضد الجرجيين بعد استقراره فى تبريز وإيفاد الرسل إلى ملوك الأنحاء المجاورة لدعوتهم إلى مؤازرته، وتحرك قاصدًا نهر "ارس" فى جانب بلادهم.

عرف الجرجيون فى هذه الأثناء بهجوم الخوارزمشاه على ديارهم وهم الذين كانوا قد ضاقوا ذرعًا بهزيمتهم السابقة، وكانوا يظنون أن تسلطهم على أجزاء من آذربيجان قد صار سهلاً بفرار الأتابك أزبك حتى إنهم عقدوا النية على التوجه إلى بغداد بعد تسخير آذربيجان تمامًا ليخلعوا الخليفة وتنصيب أحد الزعماء المذهبيين مكانه، ولما عرفوا أن الخوارزمشاه بصدد الهجوم على ديارهم أرسلوا إليه ما يفيد أن التتار بعسكرهم وشوكتهم عندما مروا بجانب ديارهم قد انتبهوا واحتاطوا فى عبورهم وألقوا السلاح فى مقابل الجرجيين الشجعان فمن الأفضل لك؛ ألا تتعنت وتتعرض للفرسان الجرجيين المستأسدين وبلادهم.

وحينما وجدوا أن التهديد لا يجدى نفعًا وأن السلطان مصمم على الهجوم اضطربوا وهلعوا وجمعوا جيشًا ضخمًا وهجموا على بلاد آلان، فحمل جلال الدين عليهم، ولمَّا وصل ناحية نهر "ارس" رأى أن فى تقدم المقدمة التى كان يقودها "ايلچى پهلوان" قد توقف فى الزحف بحجة أن العدو قد اقترب بجيش ضخم، عبر السلطان النهر واسترد مدينة دوين "نوين" التى تقع فى جنوب بحيرة كوكچه الحالية "سوان القديمة" وكان الجرجيون قد استولوا عليها فى زحفهم السابق.

كانت جرجيا حينئذ فى يد امرأة اسمها روسودان (٦٢٠-٦٤٥هـ/ ١٢٢٣-١٢٤٨م) فأرسلت أخوين من قادتها المعروفين يدعوان "إيوانى وشلوه" بجيش ضخم لمنع الخوارزمشاه الذى التحم بالجيش الجرجى فى محل "جرنى"[١] من بلاد أرمينيا الواقعة فى

---

(١) يبدو أنها هى جروزنى الحالية .

جنوب بحيرة سوان واستعرت حرب ضروس آلت مرة أخرى إلى تصدٍّ حاسم بفعل شجاعة جلال الدين، وقضى على مابين أربع وعشرين ألفا من الجرجيين، وأسر القائدين الجرجيين، وقيدهما بالسلاسل.

واصل السلطان جلال هجومه حتى أبخاز[١] (حوالى حدود النواحى الجنوبية للقفقاز والشمالية لنهر "ارس") وكان قصده أن يتقدم صوب تفليس. ولكن وصلته فى هذه الأثناء رسالة من الوزير شرف الملك بأن شمس الدين طغرايى وابن أخيه نظام الملك قد شرعا فى التمرد، وقصدا قتله، وأن جمعًا من أهل تبريز قد نهضوا إلى تأييد الأتابك أزبك بهذه المناسبة. فعاد السلطان مضطرًا إلى تبريز. وصفح قبل التحرك عن عسكر ميمنة جيشه الذين كانوا قد تهاونوا فى الحرب ضد الجرجيين وقرر أن يبقوا فى نفس المكان، ويأتوا على بلاد الملحدين الجرجيين، ومعهم الولاة المتولين الذين كانوا قد تجمعوا لديه حتى يحددوا لهم الطرق والمضايق والعوائق. وهكذا فعل أمراء العسكر، واستباحوا هذه الديار فى ثلاثة أشهر، وابتلوا الناس ببلاء شديد، وظلموا الجرجيين إلى حد أن الجرجى الذى أسروه وباعوه عبدًا كان يباع بدينارين أو ثلاثة ولا يجد من يشترى. ووصل جيش إيران إلى نقاط لم يكن قد وصلها من قبل.

وبوصول السلطان إلى تبريز؛ حث شرف الملك جمعًا من أوباش المدينة على أن يشهدوا كذبًا على الطغرائى وابن أخيه نظام الدين فقتل السلطان الأخير بهذه النكاية، وصادر أموال الطغرائى التى كانت فى حدود مائة ألف دينار، وقيَّده، وأرسله إلى سجن مراغه. ولم يكتفِ شرف الملك بذلك حتى مهر أمر قتله بالخاتم السلطانى وأرسله للتنفيذ. غير أن نائب البريد الذى كانت تربطه بالطغرائى علاقة ودّ، أعطاه حصانًا وهربه. غير أن السلطان عرف بعد ذلك أن الطغرائى وابن أخيه لم يرتكبا ذنبًا فأعادهما إلى تبريز، وردّ إليه عوائد أملاكه. وكان يستدعيه للمشورة فى مجالسه.

أقام الخوارزمشاه بعض الوقت فى تبريز؛ واستدعى ثلاثين من علماء الولايات كانوا قد جاءوا إليها كمقر للسلطان بحلول شهر رمضان فقرر أن يأتى واحد منهم إلى باب القصر السلطانى، ويقف على المنبر ويعظ الخلق، وكان يشارك فى مجالسه. وفى

---

(١) يبدو أنها أنجازيا أو أبخازيا الحالية.

أيام الإقامة فى هذه المدينة أحسن السلطان وفادة القائدين الجرجيين اللذين كانا قد حبسا فى أثناء الحرب، وأعطاهما حكم سلماس وأورمية واشنو، وكان هدفه من ذلك أن يعاوناه فى قمع الجرجيين. وأرسل "أورخان" أيضا على رأس جيش إلى كنجه، ولكن ظهر فيما بعد خلاف بينه وبين الوزير شرف الملك، وبدأت العداوة بينهما.

أحداث مؤسفة أدت إلى سوء السمعة:

لدى إقامة السلطان جلال الدين فى تبريز تلقت نسوة من مدينة خوى رسالة من ابنة طغرل زوجة الأتابك أنها مستعدة للزواج منه وتدلل على طلاقها من الأتابك أزبك بشهود فقبل السلطان شرط إثبات الطلاق، وعندئذ شهد قاضى "ورزقان" من ضواحى تبريز ومعه عدد آخر أن الأتابك أزبك كان قد تعاهد مع غلام من غلمانه أنه إذا قتله تكون الملكة طليقة منه وتتحرر، وعندما حنث بالعهد وقتل الغلام وقع الطلاق اضطرارًا وتحقق أن الملكة ليست له. على أثر ذلك شهد القاضى عز الدين القزوينى قاضى المدينة بوقوع الطلاق وضرورة التفريق. أرسلت الملكة مالاً كثيرًا إلى بلاط السلطان على سبيل المنح والعطاء، وعقد السلطان عليها. وهنا قصد مدينة خوى للقائها، وأدخل مدينتى سلماس وأورمية وتوابعهما ضمن حوزته.

ومن الإنصاف القول إن مثل هذه الأعمال من رحال خاصة سلطان فاتح تجاه مواطنيه ومغلوبيه إنما هى أسلوب غير محمود لابد أن يسجله التاريخ.

لم يضر الأتابك أزبك أخذ جلال الدين لتبريز فى البداية وتسلطه على آذربيجان لضعفه وإيثار السلامة، وقال الديار لسيدها فليأخذ كلٍ ما يريد، ولكنه عندما سمع بزواجه من الملكة وعرف بوجوده معها اضطرب اضطرابًا شديدًا ومرض ومات بعد أيام.

وقد عدّ المؤرخون والنقاد كثرة زواجات جلال الدين من سلوكياته المشينة، أما ما هو غير ذلك فلم يكن من الممكن أن يتوافق مع هذه الصغائر ويستنتج من حياته أنه كان يتصرف وفق أسلوب القدامى من ملوك وشيوخ وزعماء وقادة. ومنْ ثم لم تكن مصاهرات الخوارزمشاه ببنات أو شقيقات الملوك والأمراء والقادة المشهورين ليست إلا لتقوية عرى الصداقة وإصلاح ذات البين والتآزر بقدراتهم. وليس هذا هو النحو الذى اختاره. فإذا ما صادفنا زواجا له بابنة طغرل السلجوقى فإنما جاء هذا الزواج لأنها كانت

زوجة لرجل آخر وأنه ينبغى طبقًا لتعاليم الشرع بما كان يقتضى أن يتم التحقق من طلاق الزوج لها وانفصاله عنها رضاء وليس أنهم حرروها بموجب شروط واهية.

أى أن الأتابك أزبك فقط هو الذى كان يستطيع أن يطلق الملكة ابنة طغرل وليس بترتيب قاضى الوقت. وسنعيد الكلام ثانية فى نهاية الكتاب عندما نُحكّم التاريخ فيما يتعلق بجلال الدين.

انبعث نداء الحرب ضد الجرجيين من جانب السلطان جلال الدين بعد عيد الفطر مرة أخرى، فأعدّ من المشاة والفرسان جيشًا كبيراً، وأرسل "شلوه" و"ايوانى" اللذين كانا يقصدان المعاونة فى ظاهر الأمر وينتويان الإيقاع به والقضاء عليه فى الخفاء برفقة الجيش وبعد أن زار الملكة فى مدينة خوى - كما قلنا سابقًا - توجه إلى جرجيا، وترأس الجيوش فى "دوين" وهنا أرسل "ملك طشتدار" برسالة إلى ملكة جرجيا، حيث تأخر الطشتدار فى الطريق عند شاطئ نهر "كر" يومها، والتقى صدفة بقسيس ثمل من مبعوثى شلوه وعرف أنه يحمل رسالة منه إلى ملكة جرجيا تفيد أنه سيرشد عسكر السلطان عبر طريق وادى (ماركاب) على أن ترسل الملكة جيشًا إلى هذا الوادى حتى يحاصر عسكر السلطان بمساعدة بعضهما البعض ويقضى عليهم وأنه كان قد أرسل الرسائل إلى بقية الأمراء الجرجيين فى الخفاء بهذا النحو.

وعندما وقف ملك الطشتدار منه على هذا السر قتل القسيس وعاد فورًا إلى السلطان وأخبره بالخدعة التى كان كلٌ من "شلوه وايوان" قد فكرا فيها بالاتفاق مع الجرجيين فأمر السلطان أن يحضروا إليه شلوه وايوان والأمراء الجرجيين كما اجتمع حوله القادة والأمراء الآخرون بناء على أمر منه ورتبوا مجلسًا للشورى، وقال السلطان مخاطبًا شلوه على سبيل الاختبار: أى طريق أنسب لمواجهة الخصم؟ أجاب شلوه الذى لم يكن يدرى بإفشاء رسالته بناء على الخدعة التى كان قد نسج عراها وكان يعرف بالوقت المناسب لتنفيذها، أن الطريق هو "ماركاب" فهو أقرب الطرق وأفضلها صوب تفليس وبذلك نصل إليها أسرع لقصر المسافة فى غفلة من جيش الخصم وتستسلم المدينة. قال أمراء السلطان إن طريق "غرس" أنسب. قال "شلوه": إن طريق "غرس" تعلوه القلاع الحصينة والعبور منه صعب وتسخير القلاع سيطول، وبالجملة عدّ إصراره على معارضة الأمراء دليلاً آخر على سوء نيته. وما إن تأكدت خدعته أمام السلطان حتى

نهض مستلاً سيفه وأنزل به ضربات قاتلة وفصل جسمه إلى قسمين، وقضوا على جميع الأمراء الجرجيين بأمر منه، ورأى من الصواب بعد التشاور مع أعوانه أن يهاجم الجرجيين بغتة عن طريق ماركاب بالذات وحتى يعرفوا برسالة "شلوه" التى أرسلها إلى الأمراء الجرجيين الآخرين ويولوا وجوههم شطر وادى ماركاب، عبر من هناك ودلف بهذا القصد مع صفوة من الفرسان وزبدة من القادة وثلة من رجاله الشجعان ودهم الجرجيين صباحًا. واشتد أوار الحرب واستعر لهيبها واستمرت لليوم التالى واتجه الجرجيون إلى صحراء لورى حيث نشبت حرب ضروس، وهُزم الجرجيون الذين كانوا قد غفلوا ومات عدد كبير منهم. وأعطى الخوارزمشاه الأمان للجميع بمن فيهم سكان قلعة "عليا"، وبقى طيلة شهرى المحرم وصفر فى المعسكر غير أن جنده ضاقوا بالبرد ذرعًا.

فتح تفليس:

خرجت ملكة جرجيا من تفليس قبل وصول جلال الدين إليها، وعهدت بالدفاع عن المدينة إلى اثنين من قادتها يدعوان "بوتزو" و "ممنا". وفى أوائل ربيع الأول عام ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، خرج الخوارزمشاه للصيد برفقة عدد من الفرسان، وما إن علم الجرجيون بالخبر وأن السلطان بدون عسكر قصدوه. ولما شاهد السلطان حركة الجيش من بعيد أقبل على الحرب وأقعد جماعة كثيرة بمفرده قاضيًا فى كل جولة على عدة أشخاص. وفى هذه الأثناء عرف عسكر السلطان بالواقعة فأرسلوا جمعًا لمساعدته بينما وصل مدد إلى الجرجيين. وفى هذا الوقت اغتنم اورخان الفرصة وهاجم تفليس وسحب العسكر الجرجى للحرب ضده وضعف العبء على السلطان. وما إن عرف جلال الدين بحيلة "اورخان" الحربية هاجم بفوج من خاصة أعوانه مكبرين صفوف الأعداء مشتتًا نزالهم. وعندما رأى الجرجيون الطرق المؤدية إلى المدينة وقد مهدت، وأنهم يواجهون السيف والسهم من جهتين اتجهوا ناحية نهر "كر" ونزلوا إلى الماء فغرق نصفهم ونجا النصف الثاني وسبحوا إلى الجانب الآخر. الأمر الذى أضعف ثبات سكان القلعة والمدينة. وعندئذ ألقوا بخزائن الملكة فى الماء وطلبوا الأمان فأمَّنهم السلطان الذى ولّى وجهه شطر العمران يغير عليه وعهدوا بأديرة ومعابد وكنائس تفليس ونواحيها التى كانت قد اكتظت صناديقها عبر عهود قديمة بالذخائر والنفائس كعوائد إلى بيت المال، وغنم الحشم والخدم غنائم كثيرة ومتاعًا وفيرة وحرر مسلمى تفليس الذين كانوا يعيشون فى كنف الجرجيين ما

يزيد عن المائة عام. ولهذا السبب عدّوا الخوارزمشاه مثل السلطان "محمود الغزنوى" من الغزاة الكبار، واعتبروا ظهوره موهبة فى الدفاع عن الإسلام. ولكن برواية التاريخ فإن فى أعمال جلال الدين وغارة جنوده ومذابحهم فى هذه الديار شبه بأعمال المغول وچنكيزخان فى خراسان. ويرى المسيحيون أن حملته هى أقوى ضربة نزلت بالمسيحية فى القفقاز، ويعدونها نظيرًا لسفك الدماء فى أورشليم على يد "تيتوس" إمبراطور الروم.

الهجوم على كرمان:

كانت الأخبار تصل من العراق قبل فتح تفليس وتزامنًا معه أن براق الحاجب قد امتنع عن دفع الخراج، وشرع يكاتب المغول ورفع علم العصيان. وكان "شرف الدين على بن فضل تفرشى" وزير العراق يرسل خبر تصرفاته إلى السلطان على التوالى، وكتب رسالة وقت أن كان جلال الدين فى أنحاء أبخازيا أن براقًا قد خرج من كرمان؛ فعزم جلال الدين على مهاجمتها حتى يبعد البراق، وترك أخاه غياث الدين هناك ليختار ستة آلاف من الفرسان المهرة للسير نحو هذا القصد، واتجه برفقة أخيه تحقيقًا لهدفه، وقائلاً لشرف الملك الوزير: أن ابقَ فى تفليس.

ومن أجل عبور السلطان رمموا الجسر الذى كان مغلقًا فى حدود سرمارى على نهر "ارس"، وما إن وصل إلى هناك أمر سنجاق خان بأن يغير على مدينة أخلاط فبقوا ثلاثة أيام يغيرون عليها وينهبونها وعادوا بغنائم وفيرة، وحمل الخوارزمشاه بنفسه على أنحاء كرمان وظل طيلة الليل والنهار فى حركة دائمة ولم يكن ليهدأ لحظة، ويقولون إنه طوى هذه المسافة فى سبعة عشر يومًا، وما إن وصل إلى حدود كرمان لم يكن قد بقى من جنده أكثر من ثلاثمائة فارس. وجاء البراق الحاجب الذى كان قد سمع طرفًا من حديث إلى المدينة وتحصن بها. وما إن وصل السلطان أرسل الهدايا وطلب الصفح فاضطر الخوارزمشاه إلى العودة قاصدًا أصفهان حتى يستريح أيامًا ذلك أنه لم يملك وسيلة لتسخير المدينة، وكان جنوده قد قعدوا عاجزين عن التحرك.

وقد نظم كمال الدين إسماعيل الأصفهانى الشاعر المعروف (١) قصيدة يهنئ فيها السلطان بالوصول إلى هذه المدينة منها ما ترجمته:

---

(١) انظر رسالة الدكتور حربى أمين حول هذا الشاعر، ١٩٧٨م، جامعة عين شمس، لم تنشر بعد.

عـــــاد بســـــيـط الأرض عامـــــرًا؛

بيمـــن قــــدوم جيــش سلطان الدنيـــــا

جلال الدنيا والدين منكبرتى ذلك السلطـــان؛

الذى قيضـــه ربـــه سلطانا على الدنيـــــا

وفى هذه الأثناء نما إلى سمع الخانات والقادة الذين كانوا حفظة على خزائن السلطان أن الجرجيين قد حاصروا شرف الملك الوزير فى تفليس فتردد الخانات بين المحافظة على الخزائن، أو أن يذهبوا لمساعدة الوزير غير أن "مورخان" الذى كانت بينه وبين الوزير عداوة قد هب لمساعدته ورافقه عدد من الأمراء والخانات واجتمع خمسة آلاف، وعندما عزموا على التوجه وصل خبر مفاده أن محاصرة تفليس لم تكن أكثر من شائعة.

مارس شرف الملك الغارة على الجرجيين فى غياب السلطان بل أسرف فى الأموال، ولم يكن قادة العسكر المرافقون على نحو طيب، ومن ثم كانوا يفسدون عليه استقرار عمله وراحة باله. وفى هذه الأثناء نقصت الأقوات فأرسل شرف الملك عسكره إلى حدود الأناضول وأخلاط للغارة فشرعوا ينهبون ويسلبون غير أن "حسام الدين الموصلى" الحاجب قد أغار على هؤلاء الجنود، ولم يجد شرف الملك من حيلة فى هذا الخضم؛ إلا أن يدعو السلطان إلى أن يعود من العراق. وفى هذه الأثناء وصل ملك الخواص "تاج الدين قليج"، وأخبر بعودة السلطان من العراق ووصوله إلى نخجوان، فبالإضافة لدعوة الوزير كانت أخبار حصار تفليس وتمرد الجرجيين فى العراق قد نمت إلى أذن السلطان واستنهضته إلى التوجه صوب آذربيجان وأعطى شرف الملك أربعة آلاف دينار للمبشرين بوصول السلطان، وحمل جلال الدين متعجلاً على مدينة "آنى"(١) وحاصر إيوان القائد الجرجى الذى كان مع بقية الجيش هناك بعد الهزيمة، كما حاصر قسمًا من الجنود منطقة قارص، ولكن عندما طالت فترة الحصار فضّه السلطان عن مدينة بندان واتجه إلى تفليس، ثم عاد إليها بعد الهجوم فى حدود أبخازيا وأمر أن تتفرق العسكر فى أنحاء جرجيا وتقوم بالغارة والسلب.

---

(١) بجانب أرپاچاى من روافد نهر ارس جنوب شروان.

وكان الغرض الأساسي لدى جلال الدين هو مفاجأة الحاجب على، فقد كان يبذل جهودًا مكثفة للحفاظ على مدينة أخلاط غير أنه على الرغم من أن جلال الدين قد هاجمه غفلة فإن جمعًا من جامعي الأخبار كانوا قد أطلعوه على تحركه وأن عملاً قبل الحرب قد حدث وهو أن جنوده عندما وصلوا إلى حدود هذه المدينة قتلوا كل من وجدوه وسلبوا كل من شاهدوه في الطريق، وشرعوا في السلب والنهب داخل المدينة. مما جعل أهل المدينة على قلب رجل واحد وقضوا على عدد من الجنود وطردوا ما تبقى منهم. ولذلك اختل عقد الجيش من حيث نقص الإمداد وبقى الخوارزمشاه ما يقرب من أربعين يومًا في هذه الأنحاء ثم عاد أدراجه ثانية.

السلطان جلال الدين والأيوبيون:

تحدثنا في السابق عن الملوك الأيوبيين في آسيا الصغرى وحرى بنا الآن أن نشير إلى علاقتهم بجلال الدين فلم يكن أحد من أبناء الملك العادل أبى بكر بن أيوب على صفاء مع الآخر فقد كان الملك المعظم حاكم دمشق مشدودًا محبًا لجلال الدين، وكان يفتخر باللباس وامتطاء صهوة الحصان الذى كان قد أرسله له الخوارزمشاه، وهذا الكدر في العلاقة بين الإخوة كان يثير السلطان على تسخير مدينة أخلاط أو خلاط[1] التي كانت تحت تصرف أخيه الملك أشرف. وكما رأينا حمل السلطان على هذه المدينة وعاد بالكيفية التي شرحناها فيما سبق. وبعد عودة الخوارزمشاه ذهب الملك أشرف لدى أخيه الملك المعظم وتصالح كلٌ منهما مع الآخر واتفقا على حفظ المتصرفات الأيوبية، وأخبرا الملك الكامل باتفاقهما أيضًا ووجّها نظره لخطر السلطان جلال الدين، ومن ثم انتظر الجميع أن ينتهي فصل الشتاء، ويدركوا خطة جلال الدين في الهجوم على أخلاط أو إقلاعه عنها. وأمر جلال الدين أن يتفرق جنوده في أنحاء دافئة ويغذّون الدواب بالكلأ كي يستعدوا في ربيع عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م للهجوم على أخلاط.

في هذه الأثناء حنث ابن حاكم أرزنة الروم الذى كان قد تزوج ملكة جرجيا ودخل بعد فتح تفليس في خدمة السلطان بالتعاون مخدوعًا من مجموعة من المناوئين الجرجيين وأخذ جانبهم، وحتى يؤدى لهم خدمة أطلعهم أن تفليس خالية من العسكر والحاكم

---

(١) تقع على ساحل بحيرة وان الواقعة في شرق آسيا الصغرى.

وتسخيرها سهل جدًا. وكان جمع بناء على دعوته وآخر بناء على نداء المسلمين الذين كانوا قد عانوا ضررًا من العسكر الخوارزميين قد قصدوا تفليس مشاة وفرسانًا بسبب أخذ مدينتين من جرجيا هما "قارص"[١] و"آني"[٢]. وعندما رأى "قره ملك" صنيعة جلال الدين ذلك أخلى المدينة، وبعث شرف الملك الوزير الذى كان مقيمًا فى كنجه برسائل متتابعة وأعلم الخوارزمشاه بالحادثة فدلف السلطان إلى تفليس. أما الجرجيون الذين لم تكن لديهم طاقة المقاومة فقد أضرموا النار فى المدينة ثم رحلوا عنها، فأراد السلطان أن يتقفى أثرهم ولكنه سمع أن أتباع "ايوان" قد سدّوا الطرق ووصلوا إلى حدود "اشنو وخوى وسلماس وأرومية" وأغاروا على ضواحى تبريز وسلبوا غنائم كثيرة. فنهض السلطان إلى دفع الترك وهو الذى كان يقصد تعقب الجرجيين دون أن يعطى أهمية لهجوم الأتراك وحمل عليهم فجأة مشتتًا شملهم، وعندئذ اتجه إلى "خوى" ليلتقى بملكته غير أنه شاهد حول المدينة جمعًا من غلمان وعبيد الأتابك أزبك برفقة سنقرجق (سنقرجه) المنشى وأحد الأتباع المخلصين للأتابك ووفرة من العسكر الذين كانوا بمعيته وقد اجتمعوا فى صحراء "خوى". ولمّا وجد أن لا طريق للعودة خاطر بالهجوم عليهم وفرّق هذا الجمع وتعقبهم مضيّقًا عليهم الخناق فطلبوا الأمان مستسلمين. ومن هنا توجه السلطان إلى كنجه وعلم أن الجرجيين الذين كانوا قد أضرموا النار فى تفليس قد انسحبوا وتفرقوا تمامًا.

بدخشان والأتابك الصامت (خاموش).

فى أثناء عودة الخوارزمشاه من مدينة أخلاط إلى كنجه دخل ابن الأتابك أزبك المدعو قزل أرسلان فى الطاعة، وكان قزل أرسلان قد اقترن بفتاة من أحفاد "علاء الدين أحمديلى" ٥٨٤-٦٠٤هـ/ ١١٨٧-١٢٠٧م من حكام نواحى آذربيجان ومراغه الجنوبية، وأنجب منها طفلاً. ولما كان قد وُلد بصمم وبكم كانوا يقولون له الأتابك الصامت "خاموش"، وكان ضمن الهدايا التى قدمها السلطان جرابًا مرصعًا بالجواهر، ووضع عليه قطعة من ياقوت بدخشان بحجم كف اليد حفروا عليها اسم "كيكاوس" بطل إيران الأسطورى. ولذلك كانوا يطلقون على ذلك الجراب جراب "كيكاوس"، وأضاف السلطان

---

(١) تقع على بعد مائتى كيلو متر من أرزنة الروم.

(٢) تقع على بعد ٢٤ كيلو مترًا من تارجى.

عدة جواهر على ذلك الجراب وضع بينها جوهرة كيكاوس، وكان يتمنطق به فى الاحتفالات وأيام العيد، وعندما حمل التتار عليه فى مدينة "آمد" عام ٦٢٨ هـ /١٢٣١م، فوقع ذلك الجراب فى أيديهم مع جواهر أخرى وأرسلوه إلى "اكتاى قا آن" ابن چنكيز.

بقى الأتابك (الصامت) خاموش مدة فى جهاز الخوارزمشاه ولكن رعايته لم تدم وانتهى أمره بخواء اليد فابتعد بناء على ذلك عن خدمة الخوارزمشاه بدون إذن وذهب عند علاء الدين حاكم قلعة الموت، ومات هناك بعد شهر وكانت زوجة الأتابك خاموش عندئذ فى حصن "روئين" من قلاع مراغه وفى الوقت الذى كان السلطان جلال الدين قد ذهب فيه إلى أصفهان لمواجهة المغول حدث أن أرسل الوزير شرف الملك جنودًا لتسخير حصن روئين ضمن تسخير بعض القلاع فى أنحاء آذربيجان وآران.

ولما كانت هذه المرأة تفتقد طاقة المواجهة فقد ارتضت أن تتزوج من الوزير شريطة أن يؤمّن القلعة وتوابعها من أذى الجنود، ونصّب الوزير خادمه الخاص "سعد الدين الدواتدار" حاكمًا على القلعة وأرسله إلى هناك، ولكن حصن "روئين" كان به آلاف المنازل التى كان قد توارثها السكان فقد توارثوها أبًا عن جد، ولمّا رأى سعد الدين أنه لم يكن ليقوى بوجود هذا الجمع على إخراجهم من القلعة فقد تسارعت الحادثة بأن أعلن أهل القلعة عصيانهم وتمردهم. وفى هذه الأثناء عاد السلطان جلال الدين من العراق وعندما كان الوزير مشغولاً بتسخير واحدة من القلاع فى حدود بحيرة أورمية تزوج زوجة الأتابك خاموش التى كانت خطيبة للوزير.

وقد صار ابن الأتابك خاموش بالتفصيل الذى سنراه لفترة سلطانًا بواسطة عناد جمع من أتباع الأتابك أزبك وعبيده.

قتل أورخان:

قتل أورخان الذى كان من أقارب السلطان ومن قادته المشهورين واحتفظ طوال الوقت بمهمة المحافظة على ميسرة الجيش، وكان ذا شهرة فى الكرم والعدل فى عام ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦م فى عهد علاء الدين محمد الإسماعيلى المعروف بخداوند كار ووالد ركن الدين خورشاه آخر حاكم إسماعيلى لـــ "قلعة ألموت" على يد كمال الفدائى

الإسماعيلى فى "خوى". فهاجم جلال الدين غاضبا للانتقام حدود قلعة الموت وقومس[١] التى كانت من بلاد الإسماعيلية وخرّب العمران وقتل الأهالى. وبالتزامن مع هذا الحال جاءت جماعة من المغول إلى دامغان ولمّا كان عددهم قليلاً فقد غلبوا وتحولوا إلى أسرى لدى الخوارزمشاه. وكان أن فدا الإسماعيلية دامغان بثلاثين ألف دينار خراجا مسلّمًا به، وأقر بدر الدين مبعوث الموت أنه بين جنود السلطان فدائيون كثيرون، وسأل شرف الملك بإصرار مبعوث الموت عن أسماء الفدائيين وغرضهم من الاغتيال. وعندما وقف الخوارزمشاه على الأمر أمر أن يحرقوا خمسة من فدائى الإسماعيلية الذين كانوا قد عرفوا ودلفوا إلى جنده أمام خيمة الوزير، ولم يفلح إلحاح الوزير وتشفع الآخرين، واضطروا فى النهاية أن يلقوا هؤلاء الخمسة الأبرياء فى النار. والغريب أنه حين حرقهم كانوا يصيحون: "أرواحنا فداء لـــ (خداوند گار)" ومرادهم من لفظ خداوند گار علاء الدين حاكم الموت.

وعقب هذه الحادثة جاء مبعوث آخر من الموت يدعى صلاح الدين طالبًا دية هؤلاء الخمسة وفى النهاية نقص عشرة آلاف دينار من خراج دامغان بأمر من شرف الملك بهذه المناسبة وانتهت بذلك الحادثة.

---

(١) ناحية سمنان ودامغان وبسطام الحالية فى إيران.

المبحث الرابع عشر

حرب الخوارزمشاه فى أصفهان

عندما جاء السلطان من "اوجان" إلى "سراب"، واحترق خمسة من الفدائيين توجه إلى تبريز كى يستريح، وفجأة وصل من خراسان أن التتار ينوون عبور نهر جيحون بقيادة بعض من القادة المحنكين للهجوم علـــى ممالك إيران الغربية، فرأى الخوارزمشاه بعد التشاور مع القادة أنه من المصلحة أن يشتبك مع المغول خارج مدينة أصفهان؛ لأن عدة الجنود وعتادهم من ناحية، وتجميع العسكر من ناحية أخرى كان أيسر. ومن ثم ذهب إلى هذه المدينة وأرسل أربعة آلاف فارس كطليعة إلى "دامغان" وبينما كانوا يبلّغون خبر التتار يومًا بيوم إلى السلطان كان المغول يتقدمون وقد كمنت الناس استطلاعًا ونهضوا لوصول المليك وشاهدوا جيشًا وقادة محنكين وأطلعوه على أن عسكر المغول قد نزلوا فى شرق أصفهان فى قرية "سين" التى يفصلها عن المدينة يوم واحد سيرًا على الأقدام، ولما كان المنجمون قد قالوا إنه ينبغى التأخر عن الحرب ثلاثة أيام بسبب النحس الظاهر لتبدأ فى اليوم الرابع حيث طالع السعد؛ فقد استمع السلطان لنصحهم بهدوء.

لم يشرع جلال الدين فى الحرب بينما الأمراء والخانات والقادة والعسكر مضطربون لاقتراب المغول. وقد حكى – كما هو مذكور فى التاريخ – عن متانة الأعصاب والشجاعة اللتين أبداهما الخوارزمشاه. والقصة أن القادة المشهورين والعسكر الشجعان ورؤساء الجيش المقتدرين ذهبوا بمعيته فى النهاية، فتحدث إليهم فى كل باب وساق المطالب حتى يُظهر أن أمر الحرب مع التتار بسيط ولا أهمية له فى نظره، وأراد بذلك أن تقوى القلوب فيتبدل الخوف والهلع إلى اطمئنان وسكينة(١). وبعد ذلك شرع فى المشورة وتحدث عن الحرب وميدان المعركة وترتيب العسكر فى الميمنة والميسرة والقلب وفى النهاية رتب القادة والرؤساء، وقال: العمل الذى نقصده والبلاء العظيم الذى حل برؤوسنا إذا أنجزناه بعجز ويأس سيؤدى بنا إلى الفناء، فما أفضل من أن نصبر ونصطبر ونرابط. ثم أقسم الحاضرون على ألا يهربوا من الميدان ويفضلوا البقاء على

---

(١) معنى ذلك أن رفع الروح المعنوية ليست شيئا جديدا فى التاريخ الحديث؛ بل هى قديمة قدم التاريخ.

العار والخزى وأقسم هو معهم على هذا النحو. تحدد يوم المواجهة وتآلف واجتمع الجميع قلبا ولسانا على السمع والطاعة، وقالوا: "يقيننا أنه إذا انتصرنا فهذا فخر لنا وإذا قُتلنا فقد حصّــلنا الشهادة وسنناضل ما دمنا أحياء".

طلب السلطان قاضى أصفهان[١] وأمر أن يتسلح المشاة فى أصفهان؛ ذلك أن العامة فيها كانوا على قدر من الجلد ونصيب وافر من المهارة فى العمل. وعندما لاحظ عسكر التتار كل هذا ظنوا أن الخوارزمشاه متخوف من الحرب ومُعرض عنها فأرسلوا ألفين من الفرسان إلى جبال اللر "بختيارى" كى يغيروا على هذه الأنحاء، ويوفروا الأمداد بشرًا ودوابًا لحصار أصفهان. وعندما دخل هؤلاء الفرسان إلى جبال بختيارى أرسل جلال الدين ثلاثة آلاف فارس فى إثرهم ليجهزوا عليهم فى المضايق والمسالك فقتلوا كثيرًا منهم وأسروا المئات وعهد السلطان بجمع منهم إلى قاضى المدينة فقتلوهم فى المضايق وخنقوا الباقى فى فناء القصر بأيديهم وألقوا بأجسادهم خارج المدينة طعاما للكلاب.

أسد الزمان:

صار اليوم المعهود لدى السلطان هو التجهيز خارج المدينة وترتيب الجنود صفًا صفًا وتعيين الميمنة والميسرة والقلب وبذلك دخل فى تهيئة المعركة وجهًا لوجه مع التتار الذين أوقفوا طبقًا لأسلوبهم جماعة راكبة وأخرى مترجلة فى مكان مزدحم وآخر موزع وثالث به أفراد وأفراد. وقد أسعد السلطان كثرة أفراد جيشه ورأى فيهم أضعاف جنود العدو، وهنا وهن الخصم فى نظره وأمر أن يعود مشاة أصفهان؛ لأن المسافة بين جناحى الجيش اليمين واليسار كانت كبيرة بما لا يسعف أن يعرف أى منهما الخبر عن الآخر.

اشتعلت الحرب فى الثانى والعشرين من رمضان عام ٦٢٥ هـ /١٢٢٨م ورغم أن غياث الدين أخو السلطان قد ولّى هاربًا من ميدان المعركة مع جمع من العسكر كان يقودهم "جهان بهلوان ايلچى"، واستقروا فى ميمنة الجيش بينما كان السلطان مشغولاً فى مواجهتهم، ولم يستطع أن يتعقبهم فإن هذه الميمنة أعاقت زحف عسكر ميسرة الجيش التترى وأجبرتهم على الحرب وتعقبتهم حتى كاشان، وقتلوا كل من وجدوه وكانوا يظنون

---

(١) كان أغلب قضاة أصفهان من أسرة آل صاعد الحنفىّ المذهب، وهى تتصل بأصلها فى نيسابور، وكان أفرادها على قدر كبير من حب العلم وأهله ورعاية للشعر ورواده.

أن ميسرة جيش السلطان قد أنزلت ضربة بالخصم. وفى الوقت الذى رأى فيه السلطان هزيمة المغول فى وقت كان الغروب قد حل فيه غاشيًا ساحة المعركة المبتلة جاءه واحد من القادة وقال بلهجة عتاب: تمنيت طويلاً أن يطيب الحظ ويأتى يوم نقتص فيه من العدو، والآن وقد تحقق فيه هذا الأمل فلماذا يجب أن نضع اليد على اليد خانعين؟!، إذا أعطينا الفرصة للخصم فى أن يطوى الطريق فى يومين فلن نعد قادرين على صده، وعندما سمع السلطان هذا اعتدل جالسًا وفكر فى الحرب. أما المغول الذين كانوا قد رأوا الحرب فى البداية ضروسًا والعمل شاقًا والعدد كثيرًا فقد وضعوا طبقًا لعاداتهم القديمة جماعة من خيرة فرسانهم فى كمين خلف تل، فى الوقت الذى مرّ فيه الخان من تلك الأرض المبتلة وعندما غربت الشمس فتحوا الكمين عليه ودخلوا من اليمين واليسار وأدخلوا الميسرة على القلب واختلط الجيشان ببعضهما ودخل المغول من خلف القلب وتزحزح علم السلطان وكانت الميمنة تجدُّ فى إثر الميسرة، كما أن أيًا من الطرفين لم يكن له علم بالآخر وبقى السلطان فى القلب.

وتدافع حاملو الأعلام ورافعو الحراب إلى الميدان متتابعين، وعلى الرغم من هذا فقد ثبت الخانات والأمراء والقادة فى الميسرة التى كان عسكرها قد اهتزوا من جراء هذه المباغتة حتى الممات، وتمزق جسد "اخش ملك" ابن خال السلطان من السهام والحراب فى ساحة المعركة واستشهد، كما قضى على عدة قادة آخرين وعرف الجميع فى هذه المواجهة أى مقام كان لـــ "أورخان" فى ميسرة السلطان وماذا كان يحدث لو لم يقتل بخنجر فدائى إسماعيلى؟، فما من يوم حدث للميسرة نصر ورونق وفتح إلا عن طريقه، وما من وقت فى حياته عقدت قيادة ميسرة السلطان له إلا وانتصرنا.

والقصة؛ أن السلطان بقى فى القلب دون سند وانقطع حبل عسكره والتف العدو حوله من كل ناحية وسُد طريق الخلاص، ولم يبقَ إلا أربعة عشر رجلاً من خاصة عبيده. وفى هذا الوقت رأى حامل علمه وهو يهرب فأهلكه بجرح حربة وحمل على الأعداء بتفوق، فكان يسقط الواحد من صهوة جواده ويمزق الآخر من معدته ويطيح برقبة الثالث ويجرح المهاجمين إلى أن فتح ثغرة فى الدائرة لنفسه ورفاقه، وخرج من مضيق الموت.

يقول النسوى: "حكى واحد من أمراء التتار الذى انفصل عنهم بعد ذلك والتحق بخدمة السلطان أنه عندما تبين الخوارزمشاه بهذا الجلد وتلك الرجولة طريقًا للخروج من المعركة تحرك القائد التترى تيانيال "يانيال" فى إثره سريعًا وكان يخاطبه من شدة الإعجاب والدهشة قائلاً: لتبق سالمًا فى كل مكان، فأنت أسد زمانك وشجاع أوانك".

وفى إثر هذه الحادثة تفرق قلب الجيش السلطانى وميسرته واستقر جمع فى فارس وآخر فى آذربيجان ونفر فى كرمان وجاءت مجموعة إلى أصفهان بينما عاد جنود الميمنة بعد يومين من كاشان، وكانوا يظنون أن أقسام الجيش الأخرى قد انتصرت مثلهم. ولكنهم عندما رأوا توزع العسكر تفرقوا هم الآخرون أيضًا وجاء المغول حتى ظهير أصفهان، غير أنهم عادوا على عجلة واضطراب بسبب الخسائر الثقيلة التى كانوا قد منوا بها والصدمات التى كانوا قد رأوها ووصلوا إلى الرى خلال ثلاثة أيام واتّجهوا إلى نيسابور دون توقف وذهبوا إلى خراسان وما وراء النهر معسكرهم الأصلى. لم يصل عن الخوارزمشاه خبر طوال ثمانية أيام، ولم يكن أحد يعلم هل هو حى أم ميت أم أسير أم أنه قد أسلم الروح فى معركة؟، وكان الناس فى المدينة عندئذ فى حيرة غريبة بسبب حرب التتار والجهل بمصير السلطان رغم أنهم قد نجوا من أذى المغول.

وأوشك عامة أصفهان أن يمدوا اليد إلى مال وحريم الخوارزمشاه غير أن قاضى أصفهان واجه ذلك بشدة وطلب مهلة حتى عيد الفطر كى يتحقق عن حاله، وتقرر إذا لم يعرفوا شيئًا عن السلطان فسيجلسون على العرش مكانه الأتابك "يغان طايسى" الذى لم يكن قد ذهب إلى الميدان يوم الحرب بسبب المرض وعندما خرج الناس يوم العيد إلى المصلى وصلت بشارة وصول السلطان بسلام إلى الناس وخرج عامتهم لاستقباله وسعدوا وحضر السلطان الصلاة.

وكان أن أقام فى وادٍ لامتداد الحرب إلى لرستان والتحق به الهاربون من الجيش فرادى وجماعات وكان أن اجتمع جمع وعادوا إلى أصفهان وأقام السلطان عدة أيام فى تلك المدينة واستقبله قادة الميمنة فى جيشه، وهم الذين كانوا قد أبلوا بلاء حسنًا بحفاوة كبيرة وأنعم عليهم بالألقاب والخلع ولكنه كان غاضبًا من أغلب الأعيان والحشم، وأمر أن يستدعوا الخانات والقادة الذين لم يسبق أن أدوا عملاً يوم الحرب، وأنزل بهم العقاب وسيّرهم حول سوق المدينة وعندئذ ذهب صوب الرى لكى يشتت المغول، وأرسل جمعًا من الجنود أيضًا إلى خراسان كى يبلغوا أهلها بأبعاد قوته.

السبب فى اختلاف غياث الدين والخوارزمشاه:

كما رأينا سابقًا بقى غياث الدين مع جمع من خواصه فى خدمة الأخ وكان السلطان ينظر إليه نظرة شفقة وأخوة حتى حدث فى يوم خلال مجلس للشراب يجمعه ونصرة الدين محمد بن حسين خرميل فى أصفهان أن عاتبه على اختيار قائد تخلى عن خدمة غياث الدين ودخل فى خدمة نصرة الدين. وقال غياث الدين لنصرة الدين: "إنه لا ينبغى أن تستميل حارسًا لجانبك فأجاب نصرة الدين الذى كان رجلاً عاقلاً وظريفًا ومجاملاً ومتحدثًا وخلوقًا وطيب المزاج ومن أخص ملازمى السلطان على البديهة والجواب الحاضر وقد تولى منصب الشحنة فى أصفهان". أجاب على سبيل المطايبة أن القائد لابد أن يقدم المقابل حتى يدخل الخدمة.

اضطرب غياث الدين وهو ثمل من مزاحه ورأى السلطان أن أخاه قد تغيرت أحواله فأشار بعينه أن يخرج نصرة الدين من المجلس وبقى غياث الدين حتى نهاية اليوم وازداد سكره وبينما كان يعود إلى المنزل حدث أنه مر بمنزل نصرة الدين. فأرسل شخصًا يقول أتريد ضيفًا؟، فهرول نصرة الدين وأنزل غياث الدين عن جواده ودلف الاثنان إلى المنزل وبدأ مجلس الشراب وبعد عدة كؤوس وصل السكر ذروته وعزم غياث الدين على العودة – وكما هو المعتاد– أجلسه المضيف على الجواد وصار فى خدمته، وبينما هو يودعه لعدة خطوات فى ركبه استل غياث الدين فجأة خنجرًا وغرسه بين كتفيه، فصاح أتباع نصرة الدين: قُتل الملك. وتطايرت قطع من الأسطح هنا وهناك واستنهض غياث الدين جواده وسلك ممرًا ووصل إلى البيت، ولدى علم الخوارزمشاه بالخبر ذهب صباحًا لعيادة الجريح وأمر أن يحضروا الجراحين ولكن الأمر كان قد تجاوز حده إذ وصلت الضربة إلى العظم، وأسلم نصرة الملك الذى كان على رتبة ملكية روحه إلى بارئها. فأصدر السلطان أمره أن يجمع كل الأعيان والأشراف فى أصفهان لتقديم العزاء مرتدين الخرقة الصوفية. أما غياث الدين فلم يذهب إلى بلاط السلطان خجلاً من فعلته لسبعة أيام فطلب أن يحضروه خارج البلاط واستجوبه قائلاً: لقد نقضت العهد بقتل صديقى وطالما حنثت بالعهد فأنت ناقض لعهدى، ولكن سأعهد بالحكم للقاضى كيما يحكم بالقصاص فتوسط جمع من أعيان البلاط وأحضروه إلى خدمة السلطان. فلم يملك رفع رأسه ولم يستطع إطلاق لسانه بالاعتذار. وخاف من أخيه إلى أن أشرف المغول على أبواب أصفهان.

عاد يوم الحرب – كما رأينا – فجأة فهرب بعض أعوانه واتجه غياث الدين إلى خوزستان حيث يعيش حماه. غير أنهم حضوه على التوجس خيفة من السلطان بأن يغادر ويذهب تاركًا أمه وأعوانه فى شوشتر، وعندئذ أرسل إلى الخليفة وعبَّر عن رغبته فى الطاعة بواسطة وزيره "كريم الشرق" وعاد الرسول بوعود طيبة وثلاثين ألف دينار، لكن عندما سمع غياث الدين بعودة السلطان إلى أصفهان وعودة المغول إلى خراسان أظلمت الدنيا فى عينيه فذهب إلى قلعة الموت من خراسان حيث اختار الإقامة. وفى هذه الأثناء ذهب الخوارزمشاه إلى الرى، واشتد الأمر على غياث الدين وجاء رسول من جانب علاء الدين صاحب الموت عارضًا الوساطة لدى السلطان الذى أعطى الأمان للأخ، وأكد عليه العهد والقسم فأرسل تاج الملك نجيب الدين يعقوب الخوارزمى رئيس الغلمان مع جمال الدين مسئول الغسيل برفقة الرسول إلى الموت وبسبب الوساطة التى أداها علاء الدين بدّل لقبه من "الجناب الشريف" إلى "المجلس الشريف" وطلب منه أن يعيد غياث الدين إلى البلاط. ولكن بوصول ممثلى السلطان، اضطرب غياث الدين من الارتباط بأخيه، وطلب من علاء الدين جوادًا وعتادًا وخرج فهاجمته جماعة من جنود السلطان الذين كانوا حوالى الموت بقيادة مجهزة ووصلت إليه فى حدود همدان، وأوشكت على أسره، ولكن "جهان بهلوان ايلجى" خرج من الكمين وشتتهم وتوجه غياث الدين إلى خوزستان، وأرسل إليه نائبه براق الحاجب رسولاً بأمل وطمع فى الوفاء ضاربًا معه العهد والقسم، وتقرر اللقاء فى صحراء أبرقو، وذهب غياث الدين إلى هناك ووصل البراق على رأس ثلاثة أو أربعة آلاف فارس.

وأقام عدة أيام شرط الخدمة. ولمّا لم يصل عدد أتباع السلطان غياث الدين إلى الخمسمائة فرد، ورد فى خاطر البراق أن يتزوج من أم غياث الدين فجاء تصرفه مع غياث الدين دون لياقة، ورغم أن غياث الدين كان غاضبًا فى داخله من مطلب البراق فإنه لم يجد بدًا من القبول فى الظاهر وترك لأمه الاختيار ورغم أنها أُكرهت على ذلك فقد قبلت على مضض وتزوجت البراق، وذهب جمع من أمراء البراق وأتباعه خفية إلى غياث الدين قائلين لقد نوينا أن نقضى على هذا الرجل؛ لأن تصرفه معك قد خرج عن حد الأدب وأن أقواله وأفعاله لا ثقة فيها؛ إلا أن غياث الدين لم يكن مستعدًا أن ينقض العهد، وأطلع أحد جواسيس البراق ضمن ملازمى غياث الدين على ما دار خفية فقتل البراق كل هؤلاء الأمراء وطوق غياث الدين وأمه بحبل وخنقهما، ولم يبق على "كريم الشرق"

الوزير و"جهان بهلوان ايلجى" أيضًا وقضى عليهما. وقد قال البعض أنه حبس غياث الدين إلا أنه هرب من السجن إلى أصفهان فقتل بأمر من الخوارزمشاه ولكن الرواية الأولى أكثر صدقًا.

قتل بازرجان الإسماعيلى:

فى الوقت الذى أقام فيه السلطان جلال الدين فى أصفهان أصدر أمرًا وأرسله مع "تاج الدين قلج" ابن القاضى جاندار الذى كان من أخص أتباع البلاط إلى الوزير وأطلعه على هذا المضمون بأن جاسوسًا من التتار قد رافق بازرجان الإسماعيلى إلى بغداد واتجه من هناك إلى الشام، وأن على الوزير أن يجِّد فى أسره.

وكان قصد السلطان من أسر هذا الرجل المغولى أن جهاز الخلافة وملوك الشام وآسيا الصغرى من أن مراودة المغول بل مراسلتهم للمغول إنما هى من باب الطعن وأن إبداء رسول التتار الحجة والبرهان هو من باب الشماتة بما لا يمكن إنكاره، وشرع شرف الملك فى تفتيش القوافل إلى أن وصلت قافلة الإسماعيليين فقتل كل أفرادها الذين كانوا أكثر من السبعين فردًا وسلب أموالهم.

وعندما عاد السلطان من العراق جاءه رسول يدعى أسد الدين مودود من طرف علاء الدين حاكم الموت الإسماعيلى معترضًا على تصرف الوزير السيئ ومطالبًا بأموال التجار الإسماعيليين. فأمر السلطان حاجبه الخاص وشحنة الديوان ابن اينانج خان أن يأخذ الأموال المسلوبة ويضعها تحت تصرف الرسول، وحث شرف الملك على أن يدفع دية التجار.

الفصل الخامس عشر

أحداث آذربيجان واران

بينما كان السلطان يتوجه إلى أصفهان لمحاربة المغول اصطحب معه الوزير شرف الملك، ولكنه علم من آذربيجان وهو فى أطراف همدان أن عددًا من أمراء وأتباع الأتابك أزبك مثل ناصر الدين اقش المعروف بـــ "كوچلك" و"سيف الدين بكلك سديدى" مع جمع آخر كان السلطان قد هزمهم في حدود خوى ثم أعطاهم الأمان قد عادوا للتمرد ضد السلطان، وقصدهم فى ذلك أن يولوا ابن الأتابك خاموش أى حفيد الأتابك "أزبك" السلطنة، ويخرجوه بذلك من قلعة قوطور ويقرون الأوضاع فأرسل الخوارزمشاه بسماعه هذه الأخبار شرف الملك إلى تبريز(١).

قبل الوزير المهمة بصلاحيات كاملة فيما يخص الأملاك الخاصة وإقطاعات اران وآذربيجان، وعندما وصل إلى مراغة علم أن المعارضين خارج مدينة تبريز فأرسل مملوكه الكبير وحاجبه "ناصر الدين قشتمر" على رأس جيش لمحاربتهم فالتقت الجماعتان فى حدود هخوارقان فهزم الأتابكة وأسر قادتها وأحضرهم إلى الوزير والحبال فى رقابهم وأخذهم فى مجلس قاضى المدينة ثم شنق "أقش" و"بكلك". أما "سنقرجق المنشى" فقد تحرر لشفاعة بعض من الكبار. وكان الوزير شرف الملك الذى رغب فى أن تكون الملكة ابنة طغرل زوجة له قد عهد إلى واحد من أعوانه من أهل "باخرز" بأملاكه وإقطاعاته، فقصد هذا الباخرزى أن يتحكم فى الملكة، وكان يكتب إلى الوزير بأخبار سيئة بل يحضه على الانتقام منها. ومن أجل هذا الهدف أخبر شرف الملك السلطان بأن الملكة تتعاون مع الأتابكة، وأنه قد قصد مدينة خوى من أجل أسرها بشخصه، ولما لم يكن لدى الملكة القدرة على المقاومة فقد ذهبت إلى قلعة "تلا" على ساحل بحيرة أورمية، وأخذ شرف الملك خزائنها وجواهرها الموجودة بالمدينة وبدأ يتهيأ للحصار، وكان هذا موجبًا لنفور الملكة الشديد.

---

(١) هذا يشبه ما حدث فى العراق فى الأيام الأخيرة من حكم صدام بما يثبت بأن العصور كلها واحدة.

وفى البداية أرسلت الملكة رسالة إلى الوزير مع أحد أعوانها وكان رجلاً عالمًا وفاضلاً يدعى سيد شريف صدر الدين، غير أن الوزير لم يقبل وساطته رغم أنه كان يعرف بمكانته العلمية، ولم يتوانَ عن تسخير القلعة ولم يسمح أن تذهب الملكة إلى خدمة السلطان وأرسل واحدًا من الأشرار فى "كزين" يدعى تاج الدين صاحب بن حسن.

ساق هذا الرجل لدى عودته قطعان الماشية الخاصة بالملكة من المراعى واستباحها. ولم تجد الملكة من حيلة إلا أن تتوسل للحاجب على حسام الدين الذى كان حاكمًا على مدينة أخلاط من طرف الملك الأشرف - وكما نعلم - أن السلطان جلال الدين كان قد دفع بجيش صوب هذه المدينة قبل التوجه إلى أصفهان. وفى الحقيقة كان الحاجب يظن أن عداء السلطان وتوسل امرأة مثل الملكة فى استعداء زوجها إن لم يُحمل على أنه من قبيل النفور والنفاق؛ فإنما جاء غصبًا نتيجة افتتان وقسوة شرف الملك وحسمه. وعلى كل حال لجأت ابنة طغرل إلى الحاجب شريطة أن تعهد إليه بعد أن يتواءم الأمر بقلاعها ومتصرفاتها. وبينما كان شرف الملك منشغلاً بمحاصرة القلعة سمع بمجىء الحاجب على رأس جيش، ولما كان عسكره قليلاً انسحب نحو تبريز ووصل الحاجب إلى "تلا" وسخَّرها واصطحب الملكة معه عام ٦٢٥ هـ/١٢٢٨م.

وهنا نقطة أخرى توجه الذهن إليها أيضًا وهى جزاء السوء إذ لا يستطيع إنسان أن يُجنِّب عمله العقاب. فهذه المرأة التى كانت زوجة للأتابك أزبك ودخل عليها السلطان جلال الدين واستقرت فى عداد حريمه إذ بالحاجب يستدرجها نحوه.

ويعد البعض من المؤرخين مجىء الحاجب بمساعدة الملكة إنما كان نتيجة لعدم التفات السلطان لهذه المرأة التى كانت تتدخل فى الأمور؛ بل استخدام النفوذ طوال حكم الأتابك أزبك، ويقولون إن هذه الحادثة وقعت أثناء تجهيز جيش السلطان من أجل دفع الإسماعيلية وقبل حرب أصفهان.

والنهاية؛ أنه لم يجد فرصته للانتقام بسبب هجوم المغول وذهابه إلى محاربتهم وبالتزامن مع هذه الأحوال ذهب رسول يلقب بـــ "عماد الدين" من جانب سلطان سلاجقة آسيا الصغرى علاء الدين كيقباد إلى شرف الملك ونزل منه منزلة الشفقة والتقدير، وقدم الهدايا التى كان قد أحضرها إلى السلطان جلال الدين ووزيره ثم عاد من حيث أتى. وأوشك شرف الملك بعد عودته إلى تبريز أن يفتح آذربيجان واران فأخذ قلعة "دزمار"

بخداع قادة العسكر هناك والوعيد والتهديد ثم سخر قلعة "كهرام"، ولمّا عرف بأن سيف الدين قشقرى حاكم كنجه من طرف الخوارزمشاه قد مات ذهب إلى هناك واستولى على قلعة "جار برد" وأيضًا قلعة أخرى فى هذه الأنحاء، وكانت هاتان القلعتان من توابع اران وكان "شمس الدين كرشاسب" نائب سيف الدين يحكم الاثنتين، ثم ولّى وجهه شطر قلعة أخرى وأمر جمعًا من جنوده بتسخير "روئين" من قلاع أنحاء مراغه، وعلى النحو الذى ذكرناه سابقًا كانت زوجة الأتابك خاموش قد سلمت بشرط التوافق مع الوزير والحفاظ على القلعة وتوابعها، والنهاية فإن الشخص الذى ذهب إلى مكان الزفاف كان الخوارزمشاه وليس شرف الملك الوزير.

أرسل شرف الملك جمعًا من الجنود لتسخير قلعة "شاهق" التى كانت تقع وسط بحيرة أورمية، وعندما سمع أن السلطان قد تزوج من زوجة الأتابك خاموش السابقة التى كانت مرشحة له خطيبة، أعاد عسكره قبل الهجوم غاضبًا، فى الوقت الذى كان أهل القلعة فيه عاصين ومتمردين ولذلك لم تُسترد تلك القلعة وبقى أهلها على تمردهم.

ومما لا شك فيه أن القراء يدركون أن هذه الحادثة وقعت بعد عودة السلطان من أصفهان وسنشير إليها لاحقًا، وفى الوقت الذى توجهت فيه الملكة بصحبة الحاجب إلى أخلاط - كما ذكرنا - ذهب شرف الملك الوزير إلى حدود اران لأخذ القلعة وتسخير الأنحاء، وأقام فى "موغان" بالتزامن مع تسخير بعض القلاع كما سبق قوله. وشرع فى التطاول والغارة وسلب أموال التركمان وقطعانهم، ثم أرسل رسالة إلى شروانشاه؛ لكى يرسل خمسين ألف دينار خراجا، غير أنه امتنع عن أدائه، فذهب الوزير بشخصه على رأس أربعة آلاف فارس إلى ساحل نهر "كر" ووجه الوزير الفرسان للغارة ونهب الممتلكات الشروانشاهية التى كانت قد وفرت وسائل التحصن وأحكم قلعة المدينة بما لا يمكن معه إلحاق الأذى فعاد إلى آذربيجان خاوى اليد .

وكانت مدينة نخجوان فى هذا الوقت تحت تصرف ابنة الأتابك جهان بهلوان، وكانت قد تبنت واحدا من عبيدها يدعى "آى تغمش"، واجتهدت فى تربيته. ولكن هذا المملوك عصى فى ذلك الحين ولى نعمته بل أمه المدّعاة ناسيًا حق أنعمها ودخل فى خدمة شرف الملك وأغراه بتسخير نخجوان. ولدى عودة شرف الملك من حرب شروانشاه أرسل فيلقًا يأسر الملكة، ويجلس آى تغمش مكانها. غير أن الملكة التى كانت قد راقبت

أى تغمش ومقاصده، وأحاطته بالجواسيس وتجهزت للحرب، فقد هاجمت رسل الوزير بغتة.

ذهب الوزير فى إثر هذا الجمع إلى حدود نخجوان، ولما لم يكن له من وجهة إلى المدينة فقد نزل فى الصحراء، ولكن الملكة على خلاف تصرفه أرسلت له هدايا ومددًا معاتبة وقالت: "كنت أرسل الخراج المقرر كل وقت ولم أقصد فى وقت ما العناد والتمرد فماذا كان من إيذائى بجريرة عبدى وتحريضه علىّ ؟"، فلم يحر الوزير جوابًا وأبدى أعذارًا غير مقبولة وذهب من هناك إلى قلعة "شميران"، واختار الإقامة فى سفح القلعة التى تقع أعلى تل، وحدث أن قطعوا رأس غلام من غلمانه هناك فغضب الوزير وأمر أن يحدثوا ثقبا ويأخذوا القلعة. وكلما بذل أهل القلعة من جهد فى طلب الأمان واستجداء الصلح لم يُجدِ هذا نفعًا. وهنا انطلق صوت من الطبل ونفخ فى البوق، ووصل حسام الدين خضر صاحب الركب وفخر الدين سام صاحب القلب على رأس عسكر من الطريق، فلم يملك جند الوزير المعدودين الطاقة على المقاومة وفضلوا الهرب ولم يجد شرف الملك الفرصة لضبط العسكر وتجهيزهم. فنهب المهاجمون لوازم مجلس الوزير الفضية والذهبية الذى هرب فى اتجاه "مرند"، بينما كان المهاجمون يتقفون أثره وبقى فى "مرند"، وذهب فى الصباح إلى تبريز. وفى هذه الأثناء حمل الحاجب على حاكم أخلاط وعلى خوى وخلّص ناصر الدين منادى شرف الملك هناك .

ودخل الحاجب المدينة وأغار على عدة ضواحٍ منها بوحشية ثم حمل على نخجوان وأخذها وسخر "مرند" أيضًا وبعث بمقدمة جيشه صوب تبريز، وقصد شرف الملك ظهير المدينة غير أن الناس الذين كانوا يخشون غضب الخوارزمشاه منعوه واحتفظوا به فى المدينة إلى أن يحل فصل الربيع.

وفى فصل الربيع ذهب الوزير إلى حدود اران وحصّل مالاً من سكان قلعة أو اثنتين كخراج بالتهديد، وأخذ من ابن شقيقة "ايوان" عشرة آلاف دينار مطالبة وحرر عددًا من الأمراء المسلمين الذين كانوا فى الحبس .

وفى هذه الأيام قصد جمع من المتمردين بزعامة رجل من غلمان الأتابك أزبك أن يعيدوا الملك خاموش - كما قلنا - إلى السلطنة مما استوجب حدوث الفتنة؛ فاضطرب شرف الملك ما إن سمع هذا الخبر وشاهد تمرد بعض الولايات وعصيانها، خاصة أن

جمعًا من الهاربين من حرب أصفهان قد وصلوا فى ذلك الحين وأخبروه عن مصير الخوارزمشاه المجهول بعد الحرب. ومع هذه الحال لم يقلع عن الجهاد، وأرسل يبلغ الأنحاء ويطلع حكامها أن السلطان قد انتصر فى الحرب، ثم خدع غلام الأتابك عن طريق مبلغ من المال، وأدخله فى طاعته وأرسله إلى "خوى" من أجل الانتقام من الحاجب على، وعندما وصل إلى "مرند" التحق به ثلاثة من الأمراء فى ميسرة جيش السلطان كانوا قد هربوا فى حرب أصفهان، وساندوا شرف الملك وأخبروه أن السلطان قد خرج سليمًا من الحرب، وأنه اتجه إلى مدينة الرى فى إثر التتار. وصل الوزير إلى خوى ووجد أن "بدر الدين سرهنك" نائب الحاجب فى هذه المدينة والحاجب نفسه يقيمان فى قلعة أخرى. ولذلك ضرب الحصار حول المدينة واتجه إلى تلك القلعة فذهب الحاجب ما إن عرف بحملة الوزير صوب "بركرى" من قرى أرمينيا التى تقع شمال شرق بحيرة "وان"، وفيها أنزل جنود شرف الملك هزيمة ساحقة بالحاجب، كما قُتل الملك أشرف الأيوبى فى الحرب وهرب الحاجب منها متحصنًا بالمدينة.

حصّل عسكر الوزير غنائم كثيرة من ضمنها طبل الحاجب وعلمه فأرسلهما الوزير إلى السلطان فى حدود العراق بشرى للفتح، واتجه بعده إلى ناحية آذربيجان، وأغار على خوى وأخلى نخجوان ومرند ومدن رأس الطريق من المتاع والقطعان وابتلى الأهالى بمحن عديدة؛ بل إنه تزيّد فى هذا الشأن حتى إنه جعل وجه المغول فى النهب والسفك مشرقًا - كما يقول المثل - وما إن وصل إليه خبر وصول السلطان خفّ لاستقباله.

وبالتزامن مع مجىء السلطان وصل هودج الملكة ابنة الأتابك سعد أتابك فارس التى كان السلطان قد تزوج منها فى أصفهان أيضًا ذلك أن أختها التى كانت قد تزوجت من السلطان قبل ذلك توفيت فى كنجه بيوم سابق على قتل "أورخان".

وعندما ذهب جلال الدين من العراق إلى آذربيجان سمع بحكايات عن تعسف الوزير وبؤس الناس وسوء المعاملة التى كان قد مارسها مع الملكة، وعرف أن الناس لم تعد لديهم القدرة على دفع الخراج من كثرة النهب والإثارة وتجهيز الجيوش والشدائد التى مرت بهم؛ فتكدر من الوزير لهذه الأسباب غير أنه وجد من المصلحة ألا يعلن عن غضبه، وأمر أن يشرعوا فى ترميم الخرابات وأن ينقذوا العسكر من بؤسهم وأن يسقطوا الضرائب لثلاث سنوات. وعندئذ حاصر "عز الدين بلبان خلخالى" الذى كان قد تمرد فى

نواحى خلخال وقطع الطرق إلى قلعة "فيروز آباد". ولكنه ذهب إلى بلاط السلطان حاملاً سيفه وكفنه لما لم يجد فى نفسه طاقة المقاومة وسلم قلعة "فيروز آباد" ومعها الجواهر فعهد السلطان بالأولى إلى حسام الدين تكين تاش مملوك الأتابك سعد، والثانية إلى واحد من مشايخ الترك ووضع الخزائن والمتاع فى موغان وتوجه إلى أخلاط للانتقام من الحاجب "على سبكبار"، وعندما وصل إلى "ارجيش" تراكم سقوط الثلج واشتدت البرودة. فغيّر الخوارزمشاه وجهته صوب طوغطاب وقام العسكر على نهب الأنحاء وواصلوا حملتهم طوال عشرة أيام فى هذه الأنحاء والأطراف ووصلوا فى حملتهم حتى أرزنة الروم وآذوا الناس كثيرًا.

وفى أثناء إقامة السلطان فى طوغطاب وصلت رسالة من علاء الدين كيقباد السلجوقى تدور على الاتحاد والوحدة غير أن خبرًا مفاجئًا مؤداه أن "بلبان" خلخالى قد أشاح بوجهه عن ملازمة البلاط وأنه قد هرب إلى أخلاط وأعطى حاجبه عدة وعتادًا وأمده بالعسكر وأرسله إلى آذربيجان حتى يثير هذه الأنحاء ويمنع هجوم السلطان على أخلاط. شرع بلبان فى قطع الطريق فى جبال زنجان، وفى الوقت الذى كان جلال الدين يرسل كاتبه إلى الموت أرسل إليه رسالة بتأمينه وإذا أراد فإنه يستطيع أن يذهب إلى العراق غير أنه خُدع وذهب إلى أصفهان حيث قتلوه هناك وأرسلوا رأسه إلى السلطان.

ذهب الخوارزمشاه من طوغطاب إلى مدينة خرتبرت ونهبها وأغار على توابع أخلاط وخربها. وكما يذكر على سبيل المثال أنه غنم سبعة آلاف بقرة.

عاد عسكر الخوارزمشاه إلى موغان بغنائم وفيرة وبقى هو فى خوى شهرًا. وهناك عرف بتصرف الوزير السيئ فى حق الملكة ومصادرة أموالها وأساليبه تجاه الجوارى، وتحقق أن الخطأ لم يكن من الملكة فذهب إلى تبريز بعد ذلك. وفى فصل الشتاء ذاته شاهد بعينه الخراب وأن الناس على اضطراب وتشرد.

أمر جلال الدين أن يُمنح الناس خراج ثلاث سنوات وأن يجتهدوا فى تعمير المدينة وكلما كان يسمع شكوى فى إثر شكوى عن تعسف وزيره وظلمه لم يكن يواجهه بل يترك كلامه بلا جواب، ولم يكن يلتفت إليه كما ينبغى. وذات مرة أمر أيضًا أن يفتحوا مخزن غلاله وأن يصرفوا ما بداخله إلى المخابز والحظائر، فظن جمع من الناس أن حكومة الوزير قد انتهت من جراء أفعال السلطان. لكن عندما ذهب السلطان إلى موغان وجاء

شرف الملك إلى مجلسه. اهتم الخوارزمشاه به فى الظاهر وأمر أن يعطوه أرضا وإقطاعا فى مختلف أنحاء الديار مثل الوزراء السابقين بينما لم يكن هذا التقليد مرعيا حتى ذلك الزمان فى حق هذا الوزير. غير أن هذه الرعاية عجّلت بزوال حكومة الوزير كما سنرى لاحقا.

طوائف القبچاق والخوارزمشاه:

بعد حرب أصفهان بدا للخوارزمشاه أن يطلب المساعدة من سلاسل طائفتى القبچاق والقنقلى؛ ذلك أن هذه الطوائف لها علاقة صداقة منذ القدم مع الخوارزمشاهيين وأن قدرة هذه السلاسل تنبع من قوتها. وقد سعى جنكيز خان الذى كان يدرك هذه الرابطة المعنوية كثيرًا إلى القضاء على الطوائف المذكورة.

أدلف السلطان جلال الدين واحدًا من أمراء الترك ويُدعى "سرجنكشى" له أسرة وأقارب فى القبچاق، فرغبوا فى هذا الاتحاد راضين ومساعدين للخوارزمشاه وجاءوا بخمسين ألف فارس صوب "دربند" باب الأبواب، إلا أن عبورهم من دربند القفقاز لم يتيسر فاضطروا أن يرسلوا واحدًا من رؤسائهم يدعى "كوركا" مع ثلاثمائة فارس إلى شرف الملك الذى كان يقيم فى موغان عن طريق بحر الخزر.

وعندما كان الشتاء؛ بقى الوزير وكوركا هناك، وبعد زوال البرد ذهب السلطان إلى موغان ووصل كوركا إلى خدمته.

أنعم السلطان عليه ووعده أن يعيد فتح طريق "دربند" أمام عسكره وكتب للأتابك أسد الذى كان يدير أمور "دربند" بسبب بنوة حاكمها له، فوصل أسد إلى السلطان برغبته فأحسن الخوارزمشاه وفادته وتقرر أن يرافقه الحرس حال عودته، ويسخروا هذه الناحية، وذهب ستة آلاف فارس برئاسة اينال خان وسكرخان وخاص خان صوب "دربند". ولكن من سوء الحظ أن هؤلاء الرؤساء حبسوا الأتابك أسد بحجة أنه قصد الذهاب دون تصريح ثم شرعوا فى الإغارة والإتاوة خارج حصن "دربند". واستطاع الأتابك أن يخلّص نفسه من أسرهم بالتحايل وعندما نهض الأسد الجريح إلى دربند وقطع الطرق وصار تسخير "دربند" مستحيلاً صارت مساندة أتراك القبچاق متوقفة بفعل القادة وراحت أدراج الرياح ولم يأتِ تفكير الخوارزمشاه ومحادثاته بفائدة.

اغتنم شرف الملك الفرصة فى هذا الوقت، ولمّا كان قد أدرك البعض من تغير السلطان ناحيته فقد انتوى التكفير عن ذنوبه والدخول فى خدمته من جديد، فعبر نهرًا بمركب واستولى بمساعدة عسكره على ناحية "كشتاسفى"(١) وأخرج عمال شروانشاه من هناك.

كان هذا الوزير قد فصل قبل ذلك ثلاثة روافد عن نهر ارس لزراعتها بأسماء "شرفى"، "فخرى"، و"نظامى" فى إشارة إلى ألقابه "شرف الملك فخر الدين نظام الملك" وفى هذه المرة فصل نهرًا آخر بعد العودة من فتح كشتاسفى بفعل نار مشتعلة وإحراق حطب على الرغم من البرودة الزائدة، وأسماه سلطان جوى "نهر السلطان" وأجّر ما حوله، وحصّل عائدًا وافرًا للسلطان. وناحية كشتاسفى هذه يسرت للخوارزمشاه فتح ولاية جرجيا، وحرر ابن صاحب أرزنة الروم وسلطانشاه بن شروانشاه من الحبس وأعطاهما إقطاع السلطان.

فتح لورى:

بعد أن أقام الخوارزمشاه فى موغان أرسل واحدًا من أتباعه اسمه "كوج ايه" على رأس عسكر، وجمع غلمان القصر إلى "لورى" التى تقع فى غرب "اران" وسخر هذا القائد هذه الناحية ونهبها وتمركز حوالى بحيرة "تاج" مدة بالغنائم التى استحوذ عليها وفجأة دهمه الجرجيون ليلاً وحملوا على ذلك الجزء من الجيش الذى كان قد توقف فى غرب البحيرة وقضوا على بعضه وأسروا جمعًا آخر. أما عسكر القسم الشرقى من البحيرة فلم يلحق به أذى.

وعندئذ عرف أن ملكة جرجيا المدعوة "رسودان" وقائدها "أيوانى" قد جهزا جيشًا ضخمًا من القبائل الجرجية والأرمينية والآنية والزكية والسوانية والقبچاقية والسريرية للحرب انتقامًا من هزائم سابقة وحذرا ملوك الروم والشام والأرمن ونواحيها من خطورة جلال الدين المستأسد على ممتلكاتهم ومتصرفاتهم وأغروهما خفية بقصد الملكة ونيتها .

---

(١) تقع بين نهرى ارس وكر.

استوجب وصول الخبر فى اجتماع هؤلاء القوم أن ذهب الخوارزمشاه مرة أخرى صوب جرجيا وأقام فى "مندور" وعندما وقف على أن الجرجيين وهذا العدد من القبائل الذين هبوا إلى الحرب يفوقونه عددًا أصابه القلق والاضطراب واستشار وزيره وأركان حكمه فى الأمر. قال الوزير: "لما كانت قواتنا قلة أمام قوة العدو فمن الأفضل أن ننسحب من "مندور" ونمنع عنهم الماء والحطب والعلف لكى ييأسوا ويعجزوا ويتفرقوا بينما نطلب المساعدة الحربية من الأنحاء المختلفة ثم نزحف عليها ونشتتهم". فغضب الخوارزمشاه الذى اعتمد طوال الوقت على قوته وحدة سيفه من هذا الفكر وتناول الدواة من أمامه وقذف بها الوزير وأجبره على دفع خمسين ألف دينار تعويضًا عن هذا الرأى الخاطئ، وقال: "على الرغم من أن الأمر صعب فالحل هو التوكل والحرب". اعتمد السلطان فى هذه المرة على شجاعته وجهز الجيش وولّى وجهه شطر ميدان الحرب. وعندما التقى الجيشان واستعدا للنزال ذهب أعلى تل لاستطلاع جيش العدو. ووجد أن عسكره بالنسبة للعدو كما النهر أمام البحر، ولفت نظره رايات طوائف القبچاق فى الطرف الأيمن لجيش الجورجيين، ورأى أن عشرين ألفا منهم قد اتفقوا معهم فى الحرب، فلم يتوان عن إرسال واحد من قادته الترك إليهم بخبز وملح يبلغ إياهم بأنه ينبغى أن تتذكروا أننى على عهد أبى السلطان محمد الخوارزمشاه الذى كان قد أخذ جانبكم وقيد نفسه بالخضوع لكم فأية إيثارات ونخوات أبذلها؛ كيما تتخلصون. فهل جزاء هذا الآن أن ترفعوا السيف فى وجهى؟.

وما إن وصلت الرسالة إلى مسامع القبچاقيين وأدركوا حقّ السلطان فى رقابهم فكروا فى الانفصال بجندهم عن الجرجيين ورحلوا، مما أثّر فى تقوية جانب جلال الدين وإضعاف روح العدو المعنوية كثيرًا. وعندئذ طرح الخوارزمشاه فكرًا آخر إذ أرسل إلى القائد الجرجى "ايوانى" بأنكم اليوم قد وصلتم على هذه الحال من طريق بعيد فليأتِ الشباب المحارب إلى الميدان ويلقوا نظرة على الجيش ويستريحوا ؛ حتى ننهض إلى الحرب فى الغد جماعة جماعة. قبل "ايوانى" هذا الاقتراح. وكما سنرى الآن فقد منح الخوارزمشاه بذلك قوة أخرى لجيشه القليل وصار النصر والفتح له مسلمًا.

تذكر بطولات قديمة:

ما أقل أن يُلفت النظر فى قصص سلاطين العالم الإسلامى المشهورين وبالأساس فى عصور إيران التاريخية تجارب حربية بأسلوب الأساطير القديمة من حيث الحرب فردًا بفرد، فتجهيز الجيش من كل طرف مسرحًا للمشهورين والقادة والأبطال واحدًا أمام واحد بآداب خاصة فى دخول الميدان وبالترتيب وحلول النوبة بآلات الحرب والهجوم على الآخر بإلقاء الدبوس إلى المغامرة بالجراب والضرب بالسيف، ثم بالنزال عندئذ للرجل الغالب فى الميمنة أو الميسرة وتمزيق المبارز المغلوب بالخنجر، وعلى هذا النحو الالتحام بمبارز آخر، وهذا ما يلاحظ كثيرًا فى مصادرنا القديمة من الشاهنامه المنظومة إلى مصادر مثل رسالة الحرب "داراب نامه" و"رموز حمزه" و"اسكندر نامه" وغيره من المنثور. وما أجمل وصف الفارس ولباس حربه وبيان شكل فرسه وسرجه ومنازلة الفارس وإنشاد الهتافات كل لحاله وتبادل الطعان من الحراب واصطكاك السيوف وجرح الدبابيس. وهذه الصفات إنما هى جميعًا من أكثر جوانب الحرب إثارة على اتساع المكان خاصة أنه فى الكتب القصصية صُبت هذه الأوصاف فى قالب من العبارات الرشيقة والكلمات العميقة الجامعة المانعة.

جاء إلى الميدان بطل من جنود جرجيا الشجعان كان يبدو فى القوة والضخامة كجبل فاتجه إليه الخوارزمشاه متنكرًا منازلة للعدو ورماه بحربة ثقبت جانبه لتخرج من الجانب الآخر فسقط من على فرسه وأسلم الروح. كان للقتيل ثلاثة أبناء ذهبوا إلى الميدان واحدًا بعد الآخر فقتلهم جلال الدين. وهنا نهض مبارز قوى ضخم آخر إلى الميدان حاملاً حربته، وكان جواد السلطان قد خمدت طاقته من كثرة التجوال ولم تعد لديه قدرة الوثب والهجوم بينما كان المبارز الخصم يحمل والسلطان يرد بيدين قويتين وتتابعت حملات العدو على هذا النحو، وأنزل ضربات بالخوارزمشاه ولكن لم يقع الطعان، وعندما اشتد الخطب سقط السلطان من هجوم الخصم فجأة من أعلى الجواد الذى يلهث فطعن ذلك الرجل الذى طرحه أرضًا وأسلم الروح وفغر الجيشان أفواههم دهشة من مهارته وحذقه، وانكسر الجرجيون واسترد أتباع الخوارزمشاه وعيهم واستعادوا قلة من أفراد الجيش وحملوا على الخصم دفعة واحدة. أما الجرجيون الذين كانوا قد رُوعت دواخلهم فقد ولّوا وجوههم نحو التفرق.

وقد ذكروا أن البطل الذى قتل بيد الخوارزمشاه هو وأولاده الثلاثة كان هو نفسه "ايوانى" قائد الجيش الجرجى. والخلاصة أن الخوارزمشاه، قد ذهب فى إثرهم، وأقام خارج "لورى" واسترد أسرى البحيرة المأخوذين ليلاً، وعاد بالغنائم التى كان قد اغتنمها من أنحاء جرجيا.

ذهب السلطان بعد التغلب على الجرجيين فى إثر وصول شكاوى المسلمين إلى قلعة "واهرام" الجرجية وتوزع عسكره فى أقاليمه وشرعوا فى سلبها وأخذ الخوارزمشاه قلعة "شجان" قهرًا وغلبة، ثم حمل على قلعة "على آباد" واستولى عليها سريعًا من واهرام الجرجى وأمر بالقتل والغارة ثم حاصر قلعة "كاك" واستولى عليها بعد ثلاثة أشهر وهكذا ذهب بعدها إلى مدينة كاغذوان أو قاقزوان فى شمال أرس وهزم الجرجيين الذين كانوا قد اتحدوا وتجمعوا للحرب حوالىّ "پچنى" من متصرفات "آراك بن ايوانى" مرة أخرى واستسلم الجرجيون الذين كانوا قد ضاقوا ذرعًا بالهجوم المتلاحق وقدموا مالاً كثيرًا للسلطان، واتجه الخوارزمشاه الذى كان متعجلاً إلى أرمينيا لتسخير أخلاط وسحق الحاجب على.

صوب أخلاط:

أرسل الخوارزمشاه المتاع والعدة والعتاد الحربى برفقة الأمراء والخانات من كاغذوان صوب أخلاط قائلاً: ليذهبوا صوب المدينة بهدوء وذهب هو مع شرف الملك إلى نخجوان سريعًا. وفى "پچنى" - كما رأينا - هزم الجرجيين. وكمن عندئذ ليلاً مع الحجاب والغلمان فى ممر، وفى الصباح أغاروا على متاع الرعية وساقوهم إلى نخجوان هم ودوابهم إلى حد أن سعر البقرة القوية انخفض إلى دينار، وعندما وصل إلى نخجوان تزوج من صاحبتها التى كانت ابنة الأتابك جهان پهلوان، وأقام لعدة أيام وشرع فى إدارة أمور خراسان ومازندران.

فى هذا الوقت وصل مبعوث عز الدين أيبك نائب الملك الأشرف فى أخلاط، وكان شيخًا تركيًا عاقلاً ومتحدثًا، وقال إن عز الدين يرسل رسالة من الملك الأشرف يقول فيها إن الحاجب على قد تصرف مع المليك على خلاف الأدب وقد كُلفت من جانب الملك بأن أعزله من حكومة أخلاط وأنصب نفسى مكانه وأطلب الصفح من السلطان عن أعماله

السيئة. غير أن الخوارزمشاه لم يتصرف إلا بالخشونة مع المبعوث على الرغم من هذا التواضع واللطف الذى كان "عزالدين أيبك" قد أبداه وبعض منها يرجع إلى عداوة خفية من عز الدين تجاه الحاجب على. ولم يجب عليها إلا بالغلظة والعتاب. وكانت الرسالة التى أرسلها على نحو أنه إذا كان عز الدين بصدد البحث عن رضائى فيجب عليه أن يرسل الحاجب إلى بلاطى. وعندما وصلت هذه الرسالة قتلوا الحاجب على، وقضوا على ذلك الرجل الذى كان يدافع بتصميم عن مدينة أخلاط ومحيطها دونما سبب. ومع هذا الحال لم ينفك الخوارزمشاه عن محاصرة أخلاط وتسخيرها، ولم يكن ممكنا لعزالدين الحاكم القوى - مهما أراد - أن يمنع السلطان عن أخذها وتخريبها على الرغم من طلب الصفح. أغار الخوارزمشاه على المدينة وأقام عشرين عراضة حولها وأحكم آلات أخذ القلعة وشرع فى حرب الحصون.

المبحث السادس عشر

تسخير مدينة أخلاط

أحداث حصار أخلاط:

على طول الفترة التى كان الخوارزمشاه وجنده قد نصبوا الحصار حول أخلاط فى حلقة محكمة تلقى المدافعون والمهاجمون الضربات المنهمرة من السهام وأحجار المنجنيق، وكانت عبوات المحاربين المشتعلة تتساقط عليهم، فوقعت حوادث نشير إلى أهمها:

كان للخوارزمشاه ولد عمره ثلاث سنوات من أخت شهاب الدين سليمانشاه حاكم "أيوه" وهى المرأة التى كان قد تزوجها بعد العودة من الهند والهجوم على بغداد فى طريقه إلى آذربيجان. وبعد مرور فترة الحمل وولادة طفل كانوا قد أطلقوا عليه اسم قيمقار "قيقمار" أخبروا السلطان وحملوه إليه. ومات هذا الابن خارج مدينة أخلاط فى نفس العمر، وقالوا إن مرضعة ابنة الخوارزمشاه تلك التى كانت أمها ابنة أتابك فارس قد سمته وأهلكته.

هذا الابن كان الابن الثانى لجلال الدين الذى ندرى به، أما ابنه الأكبر وله من العمر سبع سنوات أو ثمانٍ فقد قتلوه فى حرب السند أمام جنكيز، وأيضًا كان له ابنة من بنت الأتابك سعد. وفى هذه الأثناء مات "دوشى خان" ابن "اخش ملك" ابن خال السلطان الذى كان قد استشهد فى حرب أصفهان وقالوا إن "دوشى" كان ابنًا لجلال الدين؛ ذلك أن أمه التى كانت جارية كان جلال الدين نفسه قد منحها لـــ "أخش ملك" وولدت قبل المدة المقررة دوشى؛ فأقام السلطان عزاء كبيرًا إثر موته وذهب إلى الخيمة التى كانوا قد وضعوا فيها النعش دون موكب أو تشريفات ملكية.

وقد حدثت وفاة شمس الدين محمد الجوينى صاحب الديوان فى هذا الوقت وكان من الصدور الكبار، وقد أخذ رتبته "صاحب الديوان" فى أواخر عهد السلطان محمد الخوارزمشاه، وظل فى هذا المنصب طوال عهد جلال الدين وعندما توفى أعطوا وظيفته لجمال العراقى نائب وزير العراق.

وفى أثناء الحصار جاء رسل من الأنحاء كان ضمنهم واحد من الترك يدعى علم الدين قصب السكر جاء من طرف الملك مسعود من ملوك أرتقيه ٦١٩-٦٢٩هـ / ١٢٢٢-١٢٣٢م مع غلام أسود رسولاً للملك منصور صاحب ماردين. وكان كل من الملكين قد كتبا مظهرين الطاعة ومؤيدين للاتفاق والاتحاد، كما أرسل الخوارزمشاه أيضًا الفقيه نجم الدين الخوارزمى برسالة طالب فيها أن يقرأوا الخطبة باسمه كإثبات جدية فى تصرفاتهم غير أن هذا الرسول بقى فى هذه الأنحاء حتى وقت هزيمة السلطان فى حرب بلاد الروم.

وأيضا وصل لخدمة السلطان "شمس الدين آلتون آبه چاشنى كير" و"كمال الدين كاميار بن إسحاق" قاضى ارزنجان من جانب علاء الدين كيقباد صاحب بلاد الروم بقدر من التحف والهدايا، غير أنهما لم يجدا حسن الوفادة ولم يوفقا فى المقاصد التى بعثا من أجلها، وكان من جملتها أن له رغبة فى ابنة الشهريار من أجل السلطان السلجوقى وتسليم ركن الدين جهانشاه صاحب أرزنة الروم وكان له مع ابن عمه علاء الدين كيقباد عداوة. ولدى تسليم الهدايا لم يكترثا برسم الملوك لجلال الدين ولقياه كما الرعية التى تقدم هدايا إلى السلطان. وسمع الرسل إجابات غير سارة. وقال شرف الملك الوزير كلمات حادة لهما؛ بل وصل الأمر إلى حد تهديدهما فذهبا برفقة ممثلى جلال الدين. ولما كان علاء الدين كيقباد قد عرف قبل وصول هؤلاء الرسل برفض الخوارزمشاه للمطالب، ورأى أن الملك الأشرف راغب فى الاتحاد معه، لذلك فقد أوقف عمل الرسولين وعقد اتفاقًا مع الملك الأشرف عدوه السابق؛ ذلك أنه كان قد أدرك أنه لا يمكن أن يدخل فى صداقة مع الخوارزمشاه المغرور الجسور.

وفى هذه الأيام وصل إلى خدمة السلطان ركن الدين جهانشاه بن طغرل صاحب أرزنة الروم وابن عم علاء الدين كيقباد السلجوقى وعدوه وكان يعيش حتى ذلك التاريخ تحت إمرة الملك الأشرف، ويُحسب على أنه من أنصار الحاجب على حاكم أخلاط، وأحضر برفقته التحف والهدايا وكان من ضمنها أدوات حرب واقتحام قلاع. وهو الذى كان السلطان كيقباد قد طلب تسليمه من الخوارزمشاه، ولدى وصوله منحوه مكانًا فى خيمة خاصة فى الميدان غير أنها سقطت لضعف فى قائمها، فاعتبر أركان الدولة هذا من باب الفأل السيئ واضطربوا.

نذكر ممثل بلاط الخلافة فنقول بدايةً إن الناصر الخليفة العباسى مات فى آخر ليلة من رمضان عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥م، وخلفه الظاهر بأمر الله الذى أرسل ممثلين إلى الخوارزمشاه مشفوعين بالهدايا فأعادهما الخوارزمشاه برفقة رسوله المحمل بخلع وهدايا، غير أن الخليفة كان قد مات قبل عودة الرسل إلى بغداد، فلم تستقر العلاقات بين جهاز الخلافة وبلاط الخوارزمشاه. وفى الرابع عشر من رجب عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥م تولى الخلافة أبو جعفر المنتصر بالله، وأرسل رسولاً يدعى سعد الدين الحاجب وحمّله رسالة مفادها أن السلطان يعهد لبدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل، ومظفر الدين كوكيرى صاحب إربل، وشهاب الدين سليمانشاه حاكم "ايوه" و"عماد الدين پهلوان" ابن "هزارسف" ملك الجبال فعليه أن يعهد لهم بديوان الخلافة وأن تُقر قراءة الخطبة باسم الخليفة ثانية بعد أن كانت قد أهملت فى ديار الخوارزمشاهيين منذ عهد السلطان محمد. وفى هذه المرة أصدر الخوارزمشاه أمرا بأن تقرأ الخطبة باسم المستنصر الخليفة، ثم بعث حاجبه الخاص "بدر الدين طوطق" ابن "اينانج خان" برفقة سعد الدين وخاطب الخليفة فى رسالته بعبارة يا أمير المؤمنين وولى أمر المسلمين، وطلب لنفسه لقب " السلطان " ووصل الرد على هذه الرسالة والطلب فى وقت حصار أخلاط مقرونا بهدايا كثيرة للسلطان والوزير والأمراء والخانات. ولكنه كان قد امتنع عن إعطاء لقب "سلطان"، وكان أن خاطبوه الخاقان "وجناب ملك الملوك العالى".

طلب رسول بغداد فك الحصار ولكن السلطان لم يقبل بينما كان الأخلاطيون قد تخلوا عن التراهات بأمل طلب الشفاعة أثناء توقف الرسول لأنهم أدركوا أن توسط مبعوث الخلافة لم يجدِ نفعا وتفوهوا ببذاءة وسباب. وفى هذا الوقت اشتد القحط والغلاء فى المدينة وابتلى جمع من أهل المدينة ونحل جسدهم من الجوع وخرجوا منها فأمر الوزير بأن يحضروا بضع بقرات كل عدة أيام ويعطوها لهم يسدوا بها رمقا، ولكن هذا القدر من اللحم لم يكن ليمنح الطاقة لهذا العدد المتضرر جوعا. ومات جمع وتفرق آخر فى الأنحاء.

وذات مرة والحصار قائم، توجه مجير الدين يعقوب ابن الملك العادل أبى بكر أيوب إلى قلعة المدينة طالبا لقاء السلطان، فذهب السلطان إلى أسفل القلعة، قال مجير الدين: "اشتد الكرب على الناس من الجوع وإذا ما وافقت فلترفع هذا الألم وتلك الشدة

بحرب المواجهة الشاملة ولنخلص العسكر والناس"، فقبل السلطان على الرغم من أن شرف الملك الوزير لم يوافق على الحرب بسبب فجاجة مجير الدين أمام السلطان الذى حضر فى الموعد الذى كان مضروبًا فى مقابل بوابة بدليس؛ فإن مجير الدين قد تلكأ فى المجىء ففتح الأخلاطيون وابل السهام وسب اللسان على الخوارزمشاه الذى عاد أدراجه مضطرًا.

ولنتذكر هذه الحادثة أيضًا أن البنت الكبيرة للسلطان محمد الخوارزمشاه - كما رأينا فى البداية – كانت قد تزوجت من عثمان خان سلطان السلاطين حاكم سمرقند وبعد قتله واجتياح خوارزم من جانب المغول أسرت هى وتركان خاتون واختارها دوشى خان "جوجى خان" ابن جنكيز زوجة له، كانت هذه المرأة تكاتب أخاها جلال الدين بين الحين والآخر وتطلعه على الأخبار. فى ذلك الوقت وصلت رسالة منها ممهورة بخاتم فيروزى للسلطان محمد أن الخان الكبير "اوكتاى قا آن" قد تلاطف مع دوشى وأمر أن يتعلم أولاده القرآن وأن يطلعهم ويطلعه على شجاعتك واتساع ملكك ويبدى ميله للسلم ويرغب فى أن يكون نهر جيجون حدًا فاصلاً بين ممتلكاته وبينك. هذا؛ فإن كانت لديك طاقة المواجهة أمامه فلتشحذ همتك وعدتك وإلا فهذه هى الفرصة المناسبة للسلم. ولكن الخوارزمشاه دون أن يتأمل فى نصيحة أخته بقى مشغولاً بمحاصرة أخلاط وتسخيرها.

تسخير أخلاط

استمر المحاصرون عشرة أشهر فارتعد الناس من الضيق والقحط والندرة فى العلوفة وشرعوا فى أكل لحم الكلاب والقطط والأحصنة والجمال ولكنهم كانوا يثبتون مع كل هذه المشقات والمصاعب ويصبرون على البلاء ولم يكن الجند يتوانون مطلقًا عن كل جهد وإلقاء الأحجار على المدينة وسلب البلاد والأطراف وتضييق العلوفة على المحاصرين. وفى النهاية عندما أرسل إسماعيل ايوانى أحد أمراء المدينة شخصًا إلى الخوارزمشاه ليلاً؛ ليعلمه أنه مستعد لأن يسلم قلعة المدينة بشرط أن يعهد إليه بإقطاع قلعتها وأبلغه بتسليم سلماس وعدة أماكن أخرى فأنزل إسماعيل حبلاً من القلعة دلف به عسكر السلطان براياتهم وبيارقهم أعلى القلعة.

كمن الآخرون المتسلحون فى المخابئ، والتى كانت تضاء بضربات المنجنيق، وما إن حل الفجر حمل العسكر الكامنون من أماكنهم بسبب أحجار المنجنيقات التى تنهال. وعلى الرغم من أن الأبراج كانت قد امتلأت بعدة وعتاد الخوارزمشاهيين فقد بذل الجند المدافع عن المدينة والعسكر المصطف جهدًا حربيًا وأوشكوا على أن يخرجوا المتهالكين من القلعة، غير أن جمعًا من الكامنين خلف المدافعين أحاطوا بهم. فهرب الأخلاطيون، أما العسكر القيمريون وأمراؤهم مثل أسد الله بن عبد الله المهرانى وحسام الدين فلم يبتعدوا عن الأبراج ولم يفقدوا ثباتهم حتى ولو تم أسرهم، ولجأ عز الدين أيبك حاكم المدينة ومجير الدين يعقوب وتقى الدين عباس أبناء الملك العادل أبى بكر بن أيوب إلى قلعة اراك فى المدينة يوم الأحد ٢٨ جمادى الآخرة عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م فى حوزة الخوارزمشاه. وبعد ثلاثة أيام نزل مجير الدين وتقى الدين طالبين منحه الأمان إلا أنه كان غاضبًا منه. وبعد ذلك علم أنه يرتبط سرًا بحكام بعض الأنحاء التى تدخل فى حصار بعض مجموعات جنده بموجب مكاتباته التى كانت قد تمت وبأمر من الخوارزمشاه أرسله إلى قلعة "دزمار" وقرر فى أثناء العودة من حرب الروم أن يضعوا نهاية لحياته. فقتله واحد من غلمان الحاجب على قصاصًا لمخدومه. وبالجملة لم يكن لدى الخوارزمشاه نية للنهب بعد تسخير المدينة، أما الخانات والأمراء فقد وسوست لهم أنفسهم أنه إن لم يكن للعسكر نصيب من نهب المدينة فسيفقدون الطاقة والثبات.

إذن وافق الخوارزمشاه، وحملوا المتهالكين والجياع الذين أنهكتهم ضراوة الحرب ظلامًا وعذابًا ومات بعض منهم. ولم تكن هناك حاجة إلى سفك الدماء. ومع هذه الحال لم يكن صعبًا سلب الذخائر ونهب المال. وأعاد الخوارزمشاه فى هذا الصدد خاطر الغزو المغولى الشرس فى الأذهان مرة أخرى، فقتل أسد بن عبد الله مهرانى أيضًا، أما حسام الدين قيمرى فقد هرب بالحيلة.

أرسل الخوارزمشاه خطاب الفتح إلى جميع الولايات. غير أنه ندم على خراب المدينة فأمر أن يشرعوا فى تعميرها وترميم ما وقع فيها من خرابات مرة أخرى وقرر صرف أربعة آلاف دينار من الخزانة لتعمير قلعتها، وعهد بتوابع أخلاط أيضًا لأمرائه.

كانت الحادثة الأخرى التى تثير الأسف فى فتح أخلاط أو هى فعل سيئ آخر من السلطان جلال الدين أنه اغتصب زوجة الملك الأشرف أخت "ايوانى" القائد الجرجى

المعروف التى كانت تقيم فى أخلاط انتقاما من الحاجب على إذ كان قد حمل برفقته ابنة طغرل الثالث وزوجة الخوارزمشاه من خوى إلى أخلاط.

جاء بعد تسخير أخلاط رسل من البلاط العباسى وهم محيى الدين بن الجوزى وسعد الدين بن الحاجب برفقة نجم الدين أوداك أمير آخور وجمال الدين على العراقى اللذان كانا رسولين للخوارزمشاه إلى العباسيين وكان الخليفة قد رغب فى طلبات أخرى بأن يبعث السلطان إخوة الملك الأشرف إلى بغداد. فأرسل تقى الدين فقط واحتفظ بمجير الدين، ثم أرسل وزيره مع عسكر العراق ومازندران لتسخير قلعة منازجرد.

المبحث السابع عشر

التقدم والتقهقر

بعد أن سُخرت أخلاط من جانب الخوارزمشاه تعاون الملك الأشرف مع علاء الدين كيقباد السلجوقى وأمراء الموصل وحلب والجزيرة ضده واتفقوا على اتحاد قوى، ونهض الملك الكامل ملك مصر أيضًا لمناصرتهم، ولكنه لم يتمكن من اللحاق بهم بسبب هجوم الصليبيين على سواحل الشام ومصر واضطراره إلى العودة.

أسرع ركن الدين جهانشاه بن طغرل صاحب أرزنة الروم الذى كان من أبناء عمومة علاء الدين كيقباد وعلى عداوة معه إلى خدمة الخوارزمشاه وأخبره أن ملوك الشام والروم قد اتحدوا ضده مضيفا أنه من الصواب أن يهجم السلطان عليهم فرادى قبل اتحادهم ويفرق شملهم.

استقر الرأى على أن يسرع ركن الدين إلى مقر حكومته فى أرزنة الروم ويشرع فى جمع العسكر بينما ذهب السلطان إلى مدينة "خرتبرت" (١)، ومن هناك يسدان الطريق على عسكر الروم. ذهب السلطان إلى "منازجرد" أو "ملاذكرد" فى جنوب أرزنة الروم وبعد خمسة أيام عزم على التوجه بجنده صوب خرتبرت حتى يطبق هناك مع عسكر ركن الدين على العدو ويفصلان علاء الدين كيقباد والملك الأشرف قبل اتحادهما وذهبوا بأبواقهم وعصيهم الحمراء التى كانت علامة على اتحاد العسكر والقائد فى جهاد الخوارزمشاهيين إلا أن السلطان مرض عند خرتبرت ولزم الفراش.

كانت رسائل ركن الدين تصل متتابعة بأن السلطان يقصد الروم والشام قبل اتحاد الجيشين. ولدى تحسن صحته قليلاً عزم على التحرك. ولكن حدث من سوء التدبير أو سوء الصدفة أن تحركه وقع بعد انضمام الجيشين القويين ببعضهما. وكان من عدم التدبير الآخر أن أوقف شرف الملك بخيل ورجل على حصار منازكرد وأمر قائدًا آخر بتسخير

---

(١) يقولون لها اليوم خربوت وقد أسماها المسلمون حسن زياد، وتقع فى الشمال الشرقى من ملاطية وشمال غرب آمد "ديار بكر".

بركرى "بارجرى" ولم يحضر مرة أخرى، ومن سوء حظه الآخر أنه لم يستدع عددا من جنوده العراقيين والمازنداريين والآرانيين والآذربيجانيين الذين كان قد منحهم ترخيص العودة. وتحرك دونما تأخر وتوقف وبعث اوترخان على رأس ألفين من الفرسان كاستطلاع، واصطدم جند المقدمة فى "ياسى جمن" بجيش أرزنجان وخرتبرت ثانية وقُتل أفراد كثيرون من ذلك الجيش. وكان هذا الجيش يتحرك بقوة ستة آلاف جندى لمساندة جيش الشام. وما إن انتهت عدة أيام بعد ذلك إلا والتحم جيش الخوارزمشاه وجيش ملوك الشام والروم.

وفى يوم السبت الموافق ٢٨ رمضان عام ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠م، أمر الخوارزمشاه أن يتمنطق جميع الجند بالسلاح ويرتبوا الصفوف، واتجه هو أعلى تل وألقى نظرة على فرسان العدو المحتشدين وعدتهم وعتادهم وبرؤيته الفرسان والمشاة وحملة المشاعل والأقواس بدروع من جلد البقر والغنم وبقية العتاد أطلق آهة من أعماقه وقال متحسرا: "لو أن هذا الجيش بهذه العدة وذلك العتاد الحربى لى لكنت قد أسرعت دون تأخير لحرب المغول وانتقمت منهم".

وكان الخوارزمشاه فى هذا الوقت مازال يشكو من المرض الذى لم يتحسن منه كما ينبغى فاستراح بداية فى هودج، ولكنه ما إن شاهد أن الجيش يلاحق ميمنته التى كانت قد انتصرت بداية بحملات متعاقبة ويوقع الميسرة على الميمنة ويدفع الاثنتين صوب سهل ضيق، إذ به ينهض ويطلب فرسًا ليمتطيه، ولكنه لم يقوَ على الإمساك بالعنان لضعفه فتقهقر الفرس تلقائيًا ووجد أتباعه أن من المصلحة أن يستريح لساعة، ولذلك استردوا أعلامه ومظلته وعندما رأى جند القلب ما حدث عدّوا ذلك دليل الهزيمة، وولوا وجوههم شطر الانسحاب، ولدى رؤية جلال الدين هذا الوضع لم ينهض للحرب واتجه صوب الأعلام وفصل المنجنيق والراية والبيرق وربطها بأهداب السرج وولّى هاربًا، أما العدو الذى جبن زمنًا من هذه الحالة المباغتة. فقد كان يتصورها حيلة حربية ويظن أن الخوارزمشاه يقصد أن يدخل صحراء واسعة ويحمل عليهم دفعة واحدة.

لذلك نادى المنادى ألا يتحرك أحد من مكانه وألا يذهب فى إثر الفارين، غير أن أوصال الانتظام فى جيش الخوارزمشاه كانت قد تقطعت، واتجه السلطان الهارب إلى خرتبرت وأخلاط وقُتل وأُسر جمع من قادة الخوارزمشاه كما أُسر ركن الدين صاحب

آرزنة الروم أيضًا. أما السلطان "علاء الدين كيقباد" الذى كان ابن عمه فقد عفا عنه وحرره. وذهب جلال الدين إلى منازجرد لجمع العسكر الذين كانوا قد هربوا صوب جرجيا وطرابزون وأرسل شرف الملك الذى كان له الشرف فى فتح منازجرد "ملاذكرد" على رأس العسكر لصد تقدم العدو والحفاظ على قلعة كيوان وابتدأ هو بمدينة أخلاط، فأخذ ما أمكنه من الذخائر والدفاتر، وأحرق الباقى لعدم توافر وسائل النقل، واتجه إلى "خوى" ونهب القادة والأمراء الذين كانوا يحملون الخزائن إلى موغان وهربوا فوصل قسم من الأموال فقط إلى موغان مما نهبوا.

سلام بعد حرب:

لم يكن ليضيع من خاطر حكام النواحى المجاورة لإيران مطلقًا أن جلال الدين الخوارزمشاه هو الملجأ مقابل طوفان المغول والتتار والسد المحكم بين هؤلاء القوم وبينهم. وكانوا يعلمون جيدًا أن أحدًا غيره لا يقوى على المقاومة والحرب ضد هؤلاء القوم الغزاة الغاصبين المغيرين، فإذا ما نهضوا لمحاربته ووقفوا ضده فلن يكونوا بمنأى عن سطوته وتسلطه وغزوه، وأدركوا أنه بالتهادن والانفراد وطبع الجهاد وتسخير البلاد والنزال معه فإما أن يرسلوا الجيوش لمواجهته أو يشغلوه فى فتح القلاع والمدن، وعليهم إذن أن يحصنوا هذه القلاع وتلك المدن بالعسكر والعتاد خفية حتى يصعب عليه اكتساح الممالك.

بعد هزيمة الخوارزمشاه وهروبه من "ياسى چمن" تذكر الحلفاء على الرغم من الانتصار وجوب حماية السلطان المنكسر. يقول النسوى: "شرع الملك الأشرف الذى مثّل حجر الزاوية فى الاتحاد مع علاء الدين كيقباد وهزيمة السلطان فى مكاتبة للوزير شرف الملك، فأرسل له ما مفاده "إن مليككم حامى الإسلام والسد المحكم بين المسلمين والتتار، وليس خافيًا علينا حجم الهزيمة التى حلت بحوزة الشرع والدين بسبب موت أبيه"، ونحن ندرك ضعف هذا السلطان وهزيمته كضرر عام. وأنت نفسك رأيت حلو الأيام ومرها وتجرعت غصص الدهر وعرفت النفع من الضرر فلماذا لا تدعو السلطان إلى سلوك الطريق المستقيم توخيًا للصواب ولا تشوّقه إلى الوحدة والاتحاد؟، ومن جانبى وعلاء الدين كيقباد والناس أن أحقق ثباتًا وتعاونًا بصفاء فيه رضاء الخوارزمشاه فتضيع الوحشة والنفور والعداوة".

كان طلب هذه المصالحة بعد الهزيمة وخصوصًا بسبب وصول الأخبار بتحرك جديد للمغول صوب آذربيجان أكثر تناسبًا واغتنامًا، فرضى السلطان وتوجه الرسل حتى وصل شمس الدين تكريتى كآخر مبعوث إلى بلاط الخوارزمشاه، فرفع السلطان يده عن أخلاط ونواحيها بوساطته وعهد بها إلى الملك الأشرف، أما بالنسبة للنقاط التى كان قد أخذها من متصرفات علاء الدين كيقباد فقد تسامح معهم.

وبذلك اضطرته حملة التتار إلى أن يتصالح مع السلطان السلجوقى كما تقرر ألا تكون متصرفات الطرفين محلاً للتعرض، وأن تُحدد ناحية "سرمارى" جزءًا من ممتلكات الملك الأشرف وعاد التكريتى بعد عقد الصلح، وأرسل السلطان رسلاً إلى بغداد والشام وبقية الأنحاء مبلغًا أنه إذا قصدتها فى مقابل مواجهة الجيش المغولى الكثيف ولا أجد المساعدة لجيشى وانتهيت أنا على يد هؤلاء فلن يقوى أحد منكم على المقاومة بمفرده وعندئذ سيستبين خبر موافقتكم، وبوصول فوج أو فوجين من العسكر من جانب كل واحد للمساعدة. فبالأشاوس سيخاف التتار وستتبدل حربنا التدافعية إلى حرب للهجوم. ولمّا كان الخوارزمشاه نفسه قد غرس بذور الحقد والقتل العام فى القلوب، وأضرها بفتح المدن وتجهيزه الجيوش وقتله وسلبه فى غير موضع فلم يجد نفعًا من هذه المحاولات والجهود والمطالب.

قلنا سابقًا إن الخوارزمشاه كان قد نصّب قبل سفره إلى إيران قادمًا من الهند نائبًا عنه هو "جهان بهلوان أزبك باين" فى تلك الديار، وأقام فى الهند لسنوات إلى أن قصده "شمس الدين التتمش" وأخرجه منها ووصل إلى العراق، وحوّل السلطان إليه عشرين ألف دينار لوجوده فيها، وأمر ما إن يهدأ الشتاء هناك له أن يصل إلى خدمته غير أن هجوم المغول جعل الفائدة التى تتحقق لــ "جهان پهلوان" محالة، بل إن السلطان جلال الدين قُتل فى إثر هذا الهجوم كما سيأتى تفصيله.

وفى هذه الأثناء، أرسل جلال الدين كاتبة النسوى إلى العراق لأخذ خراج الموت. ولم يكن النسوى قد عاد بعد حتى سمع خبر وصول المغول إلى "اسفرايين" قادمين من أنحاء خراسان، وذهب شرف الدين على نائب العراق إلى الرى لترتيب الأوضاع، وأمر بأن يرسل عددًا لتوديع الكاتب وحفظ مال الخراج غير أن المغول قد نزلوا بها وهرب وزير العراق إليها، واضطر النسوى أن يواجه الخطر، ويتجه إلى آذربيجان، والتقى مع

وزير مازندران نصرة الدين ومحمد الطغرائى مبعوثا السلطان، ووصل برفقتهما إلى تبريز وأوصلوا خراج الموت سالمًا وآمنًا إلى هناك.

سلطنة اوكتاى قاآن:

وهنا نجد أننا نتذكر بالمناسبة حملة التتار وعلتها إذ أعلن جنكيز اختيار ابنه الثالث "اوكتاى قاآن" قبل موته فى عام ٦٢٤ هـ /١٢٢٧ م فرتب المغول بناء على ترتيبهم مجلسًا على شاطئ نهر كرولن لترسيم سلطنة اوكتاى قاآن، واختاروه فى هذا الاجتماع الحاشد فى قيام خانية القآنى، ولمّا كان رجلاً لين الجانب سوىّ النفس فقد أمر بالتشاور مع الأمراء والقادة الذين كانوا قد اشتركوا فى المجلس لوضع نهاية للغزو، فاتجه جيشان للشرق والغرب أحدهما صوب الخطا أى الصين الشمالية والآخر صوب إيران لسحق جلال الدين الخوارزمشاه وإنهاء فتح إيران الغربية. وكان قائد الجيش المتجه إلى إيران هو "جرماغون نويان". وقد اختار جمعًا من فرسان التتار وجماعات من الجنود والقادة الترك والمغول فى خوارزم وخراسان بحشد ما يقرب من مائة ألف جندى، ووصل عن طريق اسفرايين والرى إلى العراق، ولما كان معلومًا ضعف السلطان بعد حرب الروم بدأ الهجوم دون تباطؤ على الرغم من فصل الشتاء.

أما الخوارزمشاه الذى كان فى "خوى" ويظن أن المغول سيقضون الشتاء فى العراق فقد اتجه إلى تبريز وأرسل جنده إلى "دشت مغان" وأدلف بطلاً يدعى "يزغو أو ترغوى " ليستطلع وضع التتار فاصطدم هذا الرجل فى صحراء تقع بين "زنجان" و"ابهر" بالمقدمة من جيش التتار، ولم ينجُ أحد من مرافقيه الأربعة عشر، إلا هو فقد هرب بالحيلة وذهب ناحية تبريز. أما السلطان الذى صار فى مواجهة مثل هذا العدو القوى بوضعه المتردى وقبل توافر معلومات كاملة عن مركزه الحربى والمالى بعد الهزيمة الأخيرة فقد بعث سريعًا رسول الملك الأشرف وعلاء الدين برفقة مختص الدين بن شرف الدين على تفرشى نائب العراق، واستبقى شرف الملك الوزير وحريمه فى هذه المدينة إذ لم يسمح المجال المحيط بإرسالهم إلى واحدة من القلاع الحصينة، واتجه هو مع خواصه والأتباع ما سمحت به العجلة إلى ناحية "موغان" لجمع العسكر. وعند الليل نزل فى ناحية "بشكين مشكين" الحالية فى قصر نوافذه وبواباته مسدودة مما اعتبره السلطان فألاً سيئًا. وفى الصباح ذهب إلى موغان. ولمّا كان العسكر قد تفرقوا أرسل جندًا بسهام مشحوذة. وعلى

الرغم من أن حاكم إحدى القلاع قد أبلغ أن جماعة من المغول قد استقروا فى صحراء زنجان كما أن كاتبه قد أكد أن هؤلاء هم مقدمة المغول. ولمّا كان الخوارزمشاه قد سد أذنيه من كثرة الأقاويل عن سماع الحقيقة فقد قال إنهم جاءوا من أجل تسخير زنجان، وسعد بهذا التصور الواهى وقصد الصيد، وأمر كاتبه الذى تصادف أن كان فى موكبه هو ومجير الدين يعقوب أن يكتب أمرًا إلى نائب شرف الدين الوزير فى أردبيل وأمرًا آخر إلى حسام الدين تكينى تاشى حاكم قلعة "فيروزآباد" مبلغًا أن شحنة خراسان وشحنة مازندران قد بعثا لدى علمهما الخبر كتمهيد حتى يحشدا جماعات مسلحة من الجند لمساعدتكم فى أردبيل وفيروز آباد، ويتعقبون تحرك المغول كاستطلاع.

هذان الشحنتان النذلان توجها إلى منزليهما بدلاً من الإقدام وإنجاز المهمة؛ وبذلك بقى السلطان الذى كانت عينه على طريق وصولهما لتلقى خبرًا من جانبيهما متغافلاً، وصار فجأة ممتحنًا بهجوم المغول فى شيركبود.

هجوم التتار فى شير كبود

أرسل جلال الدين حال وجوده فى موغان رجالاً لجمع العسكر، وانشغل هو وأتباعه بالصيد فى انتظار وصول الطلائع – كما تقدم – ولم يكن برفقته عندئذ أكثر من ألف من العسكر. وذات يوم نزل بالقرب من قلعة " شيركبود " التى كانت حصنًا أعلى تل فى "موغان"، وحفر خندقًا عميقًا يحيط بها لا يمكن الذهاب إليه إلا بجسر. وفى منتصف ذات ليل تزاحم التتار على خيمته، فهرب جلال الدين من بينهم وتعقبه التتار فاتجه نحو نهر "ارس"، وتفرق جنده دفعة واحدة، وأرسل الخوارزمشاه مجير الدين الذى كان برفقته إلى الملك الأشرف برسالة مفادها أن ينهضوا متساعدين لدفع فتنة التتار المتصاعدة بأسرع ما يمكن وأن يمده بالعسكر والمال، وأمر شرف الملك أن يبعث رسولاً بمعية مجير الدين غير أن شرف الملك الذى كانت قد أخذته حالة من العصيان، وعذب بالحبس جمعًا من أصحاب الديوان كانوا قد ذهبوا إلى خدمته طلبًا للمال وأرسل بدلاً من الرسول والمبعوث من جانب السلطان تابعه معين الدين القمى وأعطاه رسالة على خلاف مقصد السلطان. ولذلك لم يقدم الملك الأشرف المساعدة. وبهذا العمل الوقح من جانب الوزير تبدل السلم والصفاء بين ملوك آسيا الصغرى والشام مع الخوارزمشاه إلى التوتر مرة أخرى.

بوصول جلال الدين إلى أرس، أوحى بهذا إلى المغول أنه يهرب ناحية كنجه، أما هو فقد جد فى السير وعاد إلى آذربيجان وحل بصحراء "ماهان – أورمية" وقضى شتاء عام ٦٢٨ هـ/١٢٣١م هناك. ووفر عز الدين صاحب قلعة "شاهق" كل ما كان يلزم من المواد التموينية وأحسن الوفادة كما كان ينقل أخبار التتار أيضًا. وعندما انقضى الشتاء أعلمه عز الدين أن المغول قد عرفوا بمكان إقامته فى ماهان، وأنهم قد عزموا على تعقبه فذهب السلطان إلى "إيران"، ودعا شرف الملك من قلعة "حيزان" لمقابلته. وكما أشرنا سلفًا أن شرف الملك ظن أن السلطان قد هرب إلى الهند لدى فراره من موغان وأنه كان قد طغى بسبب قسوة الخوارزمشاه ومنعه من الإسراف والاستهلاك وأمر أن يحملوا حريم السلطان إلى قلعة "سنك سولاخ" التى تقع أعلى "خرسنكى" وضبط خزائن الشاه وإيداعها فى قلاع حسام الدين قلج أرسلان وأمر ألا يعطوا منها شيئًا حتى جلال الدين نفسه، ثم كاتب ملوك الأطراف وأظهر الطاعة والاتحاد لهم ودعا جلال الدين فى رسائله بالظالم والمخذول.

لمّا كان جلال قد عرف تصرفات وزيره فقد أمر أمراءه بألا يطيعوه وطلبه للحضور فى اران من القلعة التى كان قد تحصن بها، فما كان من شرف الملك إلا أن ندم بنفس السهولة التى كان قد عصى بها وحمل كفنه وذهب إلى السلطان فدعاه السلطان إلى مجلس شراب غير أن هذا الصنيع بدعوته إلى الشراب لم يكن له سابقة فى طول عصر السلطنة الخوارزمشاهية مما استشرف معه العقلاء أن دولة الوزير فى نهايتها وأنها بصدد وقت زوالها. وفى حملة المغول على السلطان فى موغان كان كاتبه النسوى الذى ذهب لإيداع أسير من التتار فى قلعة "شيركبود" وبقى هناك ليلة بما جعله ينفصل عن الخوارزمشاه ويذهب إلى كنجه، ثم يعود بعد مدة متخفيًا ليطلع السلطان على عصيان الجرجيين وتمرد العامة على جنده والخوارزميين بعامة فأرسله الخوارزمشاه إلى اران لجمع الجند فكان ينتقل من صحراء إلى أخرى ومن قلعة إلى قلعة جمعًا للعسكر وحشدًا لهم ثم رجع بعد مدة. وبذلك جمع الخوارزمشاه جيشًا حوله من أنحاء متفرقة فراجع المغول – بعلمهم الخبر – جيشهم فى اوجان غير أن هذه المراجعة استوجبت غضب "جرماغون" قائد الجيوش المغولية وبيّن لهم أنهم كانوا يستطيعون القضاء بسهولة فى مثل هذا الوضع على السلطان جلال الدين الذى كان ضعيفا بلا عدة وعتاد، ثم أمر أن يرسلوا قائدًا آخر مع جمع من العسكر لتعقب الخوارزمشاه وإفساد أمره على أى نحو يكون.

قتل الوزير شرف الملك

ذهب السلطان من المكان الذى يقيم فيه إلى "جاربرد" من توابع أران وأمر أن يحتفظ صاحب القلعة بشرف الملك هناك، وكان قصده من ذلك أن يبقى شرف الملك محبوسًا إلى أن ينصرف التتار ثم يعيده إلى الوزارة بعد ذلك بشروط؛ إلا أنه بسبب عصيان حاكم القلعة وباعتذار ابنه فإن السلطان الذى كان سيئ الظن بوزيره، ويظن أن عصيان الحاكم يجوز أن يكون بإيعاز منه قبل اعتذاره بشرط أن يرسل رأس الوزير إليه وهكذا فعل الحاكم.

كان شرف الملك رجلاً جوادًا وشفوقًا، وكانت المواجب التى أعطيت فى عهده أكثر حتى من عطايا عصر محمود الغزنوى وآل سلجوق غير أنه كان على غير نصيب فى الكتابة والإنشاء وفنيهما، ولم يكن على اطلاع على العلوم والمسائل التى ينبغى على الوزراء أن يكونوا عارفين بها، كما كان ضعيفًا فى الصداقة ومذبذبًا فى العداوة، ولم يكن يعمل بصوت العقل والتدبير الصحيح.

ولو كان هذا الوزير رجلاً متعقلاً وثابتًا وبعيد الفكر وواقفا على شئون الإدارة والاقتصاد، حسن الرؤية فى نيته لتغير حال فاتح مثل الخوارزمشاه السلطان الجسور، ولجاز أن يثبت التاريخ فى صفحاته عندئذ وقائع وأحداثًا أجدر.

العودة إلى تسخير كنجه :

قتل غوغاء كنجه الخوارزميين على إثر حملة التتار - كما قلنا - وأرسلوا رءوسهم إلى المغول، وجعلوا المدعو "بندار" أميرًا عليهم، وشرعوا فى إيذاء الناس ومصادرة أموال الخلق. أرسل الخوارزمشاه كاتبه النسوى وحاجبه الخاص "خان بردى" ليحثا هذا الجمع على الطاعة فذهبا إلى ناحية "شيز" القريبة من كنجه. ولكن الخلاف لم يتلاش رغم جهودهما. ولمّا يئسا من متابعة الموقف اتجه السلطان نفسه إلى هذه الناحية. قدم السلطان إثر وصوله رسولاً كدليل على تثبيت المفاوضات، وطلب الأمان غير أن بندار والمعاندين لم يسيروا فى هذا الاتجاه، وخرجوا مقاتلين بقصد الحرب وعندما وصلوا إلى سرابستان حيث يقيم أطلقوا عدة أسهم هناك فاستعد السلطان وحمل عليهم، وأعادهم إلى داخل المدينة بهجمة واحدة، ودخل هو المدينة أيضًا، ومنع الجنود من الغارة، فقط

تمرد ثلاثون من زعماء الغوغاء ومدبرو الفتنة على باب القصر وقتلوا بندار فى وضع مزر [١]، وبقى السلطان سبعة عشر يومًا فى كنجه واستقر رأيه بعد التشاور مع الأمراء والقادة على أن يطلب المدد من ملوك الأطراف وحكامها. ولكن جمعًا من المعارضين رأوا – جهلاً – المصلحة فى أن يطلب المدد من الملك الأشرف، وأخلى السلطان كنجه عقب هذا التفكير المعارض ذاهبًا إلى أخلاط ومغيرًا فى طريق العودة على بلاد الجرجيين مدمرًا إياها فزاد القلوب المتألمة ألمًا، وجعل الناس أكثر عصيانًا وعداوة فى هذا الوضع الدقيق الذى لازمته الشفقة من الصديق والعدو. وعلى إثر إرسال رسول إلى الملك الأشرف مع هذا الحقد القديم والإجراءات التى كان شرف الملك الوزير قد اتخذها فى وقت عناده ضد السلطان جعلت جهوده بلا فائدة، وأبطلت رأيه هو وأصحاب الرأى. وسافر الملك الأشرف إلى مصر حتى لا يكون فى الشام وبقيت الرسل الذين لم يلتقوا به فى دمشق، وكان يرسل متتابعًا أننى سآتى إلى خدمة السلطان قريبًا بجيش كبير، ولكن لم يتحقق هذا الوعد أبدًا. وكتب مختصر الدين الذى كان رئيسًا لهذا الوفد إلى الخوارزمشاه صراحة أن الملك الأشرف لن يعود من مصر، ولا ينبغى أن يأمل السلطان منه مساعدة.

وصل الخوارزمشاه فى الطريق إلى قلعة "بجنى" التى كانت قصرًا لـــ "آواك" ابن ايوان الجرجى فجاء من القلعة للخدمة مؤديًا الهدايا. وذهب من هناك إلى "ولاشكرد" غير أن الجميع تعرضوا للموت من شدة الحر والقحط وكثرة الذباب فاضطر الخوارزمشاه نفسه أن يلجأ إلى حجر "يده" على طريقة المغول لاستدرار المطر فى صحراء "ولاشكرد" على الرغم من أن نزول المطر بهذا الصنيع مردود بحكم العقل، فحدث بالمصادفة أن الأمطار انهمرت غزيرة إلى حد أن الأرض اخضرت، وأزالت القيظ وطردت الذباب عن العسكر. وحسن أن تعلموا أن المغول كانوا يخرجون إلى الصحراء ويقدمون الطقوس معتقدين أنهم بهذه الوسيلة سيستسقون المطر وقت أن يمتنع ويشتد القحط عن طريق حجر كانوا يسمونه "يده" وهنا أرسل الخوارزمشاه كاتبه إلى الملك المظفر شهاب الدين الغازى أخى الملك الأشرف الذى كان يحكم قسمًا من بلاد الجزيرة كسروج وجبل جور وحانى وميافارقين والرها "اروفه" طالبًا منه المساعدة فى دفع المغول وراغبًا فى مساندته فى طلب المدد من حكام آمد وماردين وبقية النواحى.

---

(١) تمامًا ما تفعله قوات الحلفاء فى العراق لدى التمثيل بضحاياهم كما حدث فى سجن أبوغريب.

يقول النسوى: إن السلطان كلفنى بهذه المهمة فى حضور جمع قائلاً: "ينبغى أن تبذل جهدًا وافرًا إذ إن جلب مساعدتهم ومساندتهم هو أفضل شيء"، ولكنه قال لى خفية أنه يعرف جيدًا أن نفعًا لن يعود من هذه الرسالة وهذا الرجاء، وأن الملك المظفر وبقية الحكام لن يكونوا فى محل المساعدة والمساندة وأن إصرار الأمراء ورؤساء العسكر بلا جدوى فى هذا الصدد. ثم قال: أعلم السبب فى اختيارى لك من أجل هذه المهمة فعندما تعود وتيئسنا من مساعدتهم وتريق ماء الوجه وتثبت للجميع أنه لم يعد يحق لأحد أن يقترح طلب المساعدة من هؤلاء الأعداء المدّعين للصداقة فإن جميع العسكر والرؤساء يوافقون رأيى بالذهاب إلى أصفهان؛ لأننا لن نرى وجهًا للراحة إلا فيها، ولا يمكن أن يكون لنا مطمع فى الحكام والولاة إلا هناك.

عندئذ أرسل ستة آلاف فارس ليغيروا على أرزنجان وخرتبرت فوصلت الأموال المنهوبة والمسلوبة إلى حد أنهم كانوا يبيعون العشرين خروفًا بدينار واحد ولا يشترى أحد!! وهذا الصنيع كان بسبب حقد كان الخوارزمشاه قد أبداه إزاء علاء الدين كيقباد فهو الذى حث الخوارزمشاه ضد الملك الأشرف على تسخير أخلاط، أما هو فقد ارتبط بالملك الأشرف وحملا على السلطان حليفين وهزماه. والقصة عندما وصل رسول السلطان إلى بلاط الملك المظفر، وطلب المساعدة منه لم يقبل، وكان عذره هو أن السلطان رغم أنه تعهد وأقسم على ألا يمد يده إلى أراضى علاء الدين وتصرفاته نراه مشغولاً بالنهب فى تلك الأنحاء؛ وعليه لايمكن الاطمئنان فى قول هذا الشخص وقسمه. والحقيقة هى أنه قد استبان فى مثل هذا الموقف نهاية لقصور الخوارزمشاه فمن ناحية يطلب المساعدة، ويقر بقوله وعهده ضمانًا للصداقة، ومن ناحية أخرى يحنث بالعهد والحلف المعقود ويعهد بأموال الناس للغنيمة والغارة سواء كان ذلك بفعل حقد قديم أو لإشباع بطون العسكر.

والحاصل أن الملك المظفر اعتذر عن المساعدة بهذه الحجة وبحجة أنه ينوب عن أخويه الملك الأشرف والملك المعظم وليس هذا من صلاحياته وأن عدد جنده قليل أيضًا.

وبينما كان مبعوث السلطان بصدد العودة إذ بالحمام الزاجل يحمل رسالة من مدينة "بركرى" بأن عسكر التتار قد جدّوا فى طلب السلطان هناك، وأنهم يتقدمون بسرعة صوب ديار بكر وآمد، إلا أن النسوى لم يتأخر رغم أن الملك المظفر كان يريد أن يحتفظ به، حتى يعلم نتيجة هجوم المغول فعاد ولحق بمقر السلطان فى جبل جوريه.

وكان الخوارزمشاه قد وصل فى هذا الوقت إلى "حانى" التى تقع على بعد سبعة فراسخ شمال ديار بكر. فى هذه الأثناء كان واحد من الأمراء التتاريين قد ارتكب ذنبًا ولجأ إلى الخوارزمشاه خشية العقاب، وأطلع السلطان على خطة هجوم المغول وأرشده إلى أن يضع فى مسيرهم قدرًا من القطيع والحشم والمال والمطالب؛ كى ينشغلوا فى نهب تلك الأشياء والأموال، فيفتح السلطان كمينًا عليهم، ويفرق شملهم فاتبع السلطان هذه الخطة، وجهز كمينًا، ووضع قسمًا من متاعه وأمواله فى معرض نهب التتار. وعندئذ سحب المغول إلى الكمين، ووضع أربعة آلاف فارس تحت تصرف خاله "اوترخان" لكى يذهب كمقدمة مقابل جيش المغول. وأوصلهم إلى مكان الكمين، وكان الكمين فى حالة كر وفر، أما "اوترخان" فقد عاد من منتصف الطريق لما اعتراه من خوف وجبن قبل المواجهة مع المغول، وأخبر أن المغول قد عادوا من منازكرد وسلكوا طريقًا آخر. وفى هذه الأثناء عاد رسول السلطان لدى الملك المظفر يعنى النسوى المنشى وأطلع السلطان على نية الملك المظفر وحججه فى الامتناع عن المساعدة، وذكر ضمنًا أنهم أخبروه بتحرك المغول صوب هذه النواحى بواسطة الحمام الزاجل، غير أن السلطان الذى كان قد خدع بفرية أوترخان لم يقبلها بعد.

وقال: لقد انسحب المغول من "منازكرد" وحقيقة المطلب هو أن أهل السوء كانوا قد جعلوه فى حال يتصور معه المغول أنه إن دخل السلطان متصرفات الشام فسيعقد اتحادًا مع حكامه. ولذلك سيتجنبون الحرب فى متصرفات حكام الشام ونواحيه وسينتظرون أن يعود السلطان بالجيش إلى أرمينيا حتى يواجهوه فى حدود أخلاط. ومهما قال المتفائلون إن انسحاب المغول بعد التحرك والقصد الحاسم إلى هذه الناحية يجب أن يكون دليلاً قاطعًا، ومن المحال أن يعود ذلك الجيش بلا سبب. فلم يقبل الخوارزمشاه، وعاد إلى مدينة "حانى". وعلى هذا النحو فإن الخطة الصحيحة والعاقلة، التى كانت قد رسمت لدحر الجيش المهاجم من ناحية جبل جور(١)وكان التوفيق فيها حاسمًا قد فشلت بسبب الثقة المفرطة فى أقوال أهل السوء وعدم قبول الصلاح فى مشورة المتفائلين.

وفى "حانى" استدعى السلطان رسوله إلى بلاط الملك المظفر حتى يتلو رسالة الملك المظفر أمام الأمراء والخانات، وأبلغ النسوى بناء على تلقين سابق وأيضًا بناء على

---

(١) يقع على بعد فرسخ شمال ديار بكر بين آمد وبدليس وأخلاط.

تغيير أوضاعهم أن الأمل فى اتحاد ملوك الشام وأعوانهم يعد من باب الجهل. وعلى إثر هذا التبليغ وبعد مشورة الجميع اتفقوا على أن يضعوا عدتهم وعتادهم فى "ديار بكر" ويذهب هو خفيفا مع حريمه إلى أصفهان ويدركون الجيش هناك. ولكن لم يسمحوا للسلطان أن يعمل من خلال هذا التفكير والرأى الصائب.

ومن الملاحظ أن رسول الملك مسعود صاحب "آمد" قد جاء إلى السلطان فى هذه الأثناء وحرضه على أن يتجه إلى ناحية الأناضول ومتصرفات علاء الدين كيقباد ويحتلها مضيفًا قوله: "لمّا كانت طوائف القبچاق صديقة للخوارزمشاه فيمكن أن يجمع جيشًا عظيمًا بالاعتماد عليهم وإجبار المغول على الفرار بهذه القوة والجيش الكبير"، وكان الملك مسعود قد تعهد بأنه متى رغب السلطان سيمده بأربعة آلاف فارس. نسى السلطان بسماع هذه الرسالة العدو الجار، وانصرف عن قصد الذهاب إلى أصفهان الذى كان قد تم بمشورة ورؤية الأصدقاء ونيته الأولى. وعلى أمل التسلط على الأنحاء المسلوبة والرغبة غير المؤكدة فى مساعدة الطوائف والأقوام القبچاقية. تحرك إلى ناحية آمد "ديار بكر"، ونزل قرب جسر حوالىّ مدينة آمد، وشرع فى الشراب مساء لعله بالخمر ينسى همومه. وفى منتصف الليل جاءه رجل من التركمان وقال: "إننى رأيت فى معسكر السلطان جنودًا لباسهم وأحصنتهم وسلاحهم يختلف عن جيشكم"، فلم يقبل جلال الدين كلامه مرددًا أن أناسًا ينشرون هذه الشائعة لأنهم لا يميلون إلى وجودى فى ديارهم، وواصل شرابه إلى أن ثمل فراح فى نوم لضيقه وذهب الخمر برأسه. فحاصر المغول جيشه فى الصباح، وتفرق العسكر، وأحاط المغول بخيمة السلطان، وهو نائم من سكره وفجأة جاء واحد من قادة العسكر ببيرقه وعسكره، وحمل على التتار، وأبعدهم عن أطراف الخيمة الخوارزمشاهية، ودلف واحد من الخواص وأيقظ الخوارزمشاه بردائه الأبيض، وصب الماء على وجهه وأجلسه على الجواد وأخرجه من ميدان الحرب.

نصح السلطان الملكة ابنة الأتابك سعد بالابتعاد فتشبثت بضفائر "آبه" أمير صيده ليحملها إلى مكان أحسن، ولما رأى أن التتار يجدّون فى إثره أمر قائده أن ينفصل بجنوده عنه، ويشغل المغول بالحرب، ويبتعد، وينجو بنفسه، ولكنه أخذ هذا القرار أيضًا بلا تدبر؛ لأنه بمجرد أن انفصل عن القائد انضم جمع من شجعان وأمراء الجيش إلى هذا القائد، وذهب مع أربعة آلاف فارس إلى "إربل" ومنها إلى أصفهان، وتسلط هناك وقتًا، وبعد ذلك أخرجه المغول من أصفهان، وأرسلوه إلى الحبس فى قلاع فارس.

اتجه جلال الدين بعد انفصاله عن القائد إلى قلعة مدينة "آمد" بينما كان جيش الخصم فى إثره، وكانت مدينة "آمد" نفسها مضطربة، وكان الناس يتصورون أن الخوارزميين يتحايلون، ولذلك سدوا بوابة المدينة فى وجهه فيئس الخوارزمشاه وعاد، وفى هذه الأثناء التحق به مائة من غلمان القصر والخواص ووصل بهؤلاء المائة وأمير الإصطبل ومحمود بن سعد الدين الجلاب واوترخان إلى مكان محصن، غير أنه صار فى معرض اللصوص قطاع الطرق وقُتل جمع من رفقائه، ووضعه خاله "اوترخان" مرة أخرى فى محل الخطر جهلاً؛ فقال: الطريق الذى عبر منه المغول آمن من كل ناحية ويجب أن نعبر من هذا الطريق، ووافق الخوارزمشاه على هذا الرأى الأبله ثم وصلوا إلى قرية من توابع "ميافارقين" وتوقفوا ليلاً فى مفترق هناك وانفصل اوترخان بخسة، وبالثقة فى خطاب الملك المظفر عن ابن أخته هناك وتركه فى زحمة من الأعداء وذهب.

ولما جنَّ الليل، اختفى الخوارزمشاه فى هذا المفترق عن أعين الأعداء، وعندما طلع النهار عرف به المغول، وأحاطوا به فدلف السلطان إلى موقع وهرب، ولم يجد مرافقوه مجالاً للهروب، وقتل من رفاقه من قتل وأسر من أسر وعندئذ أرشدوهم إلى مكانه، وأسرع خمسة عشر فارسا فى إثره فقتل الخوارزمشاه حال هروبه اثنين من الذين لحقوا به بينما عادت البقية التى لم تصل إليه.

المبحث الثامن عشر

فشل جلال الدين

يشرح النسوى منشى الخوارزمشاه حادثة موته هكذا؛ ففى الليلة التى اقترب فيها المغول من خيمته كنت مشغولاً إلى وقت متأخر فى تحرير الفرمانات والرسائل، ونمت فى أواخر الليل وفجأة جاء خادم يقول: "انهض فقد قامت القيامة" فارتديت ثوبى سريعًا ومضطربًا وخرجت وامتطيت جوادى ووضعت على صهوته ما أملك، ولدى الفرار شاهدت التتار وقد اجتمعوا على خيمة السلطان فلذت بغار هناك، واختفيت ثلاثة أيام ثم دخلت مدينة آمد، ولمّا كانت المدينة مغلقة وليس لأحد حق الدخول والخروج توقفت هناك شهرين ثم ذهبت إلى إربل وجئت بمشقة كبيرة إلى أذربيجان ثم إلى ميافارقين وتأكد لى هناك أن السلطان قد هلك على هذا النحو:

صعد السلطان أعلى جبل بعد قتل اثنين من جملة الخمسة عشر مغوليًا الذين كانوا يتعقبونه وقبض عليه أكراد كانوا قد سلكوا الطرق نهبًا وسلبًا ومعهم لباسه وجواده وسلاحه، ولمّا أرادوا قتله قال لزعيمهم سرًا إننى السلطان، فإذا حملتنى إلى الملك المظفر حاكم آمد، فسأعطيك مالاً كثيرًا، وإذا أوصلتنى إلى ناحية من متصرفاتى سأخلع عليك منصبًا ملكيًا وسأمنحك مالا كثيرًا ففكر زعيم اللصوص فى أن يصل به إلى حوزته ثم حمله بمعيته إلى العشيرة وأودعه لدى زوجته كى ترعاه، وعندئذ ذهب إلى الجبل كى يجمع فرسانه. وفى غيبته وصل كردى بيده حربة وسأل من هذا الخوارزمى؟، لماذا لا يُسحل؟، قالت الزوجة إنه الخوارزمشاه ويريد زوجى إيصاله إلى حدود حكومته فكر الكردى الوضيع وقال: ما دام هو السلطان فقتله واجب علىَّ فقد قتل أخًا عزيزًا علىّ فى حرب أخلاط وعندئذ أهلكه بجرح من حربته. وقد رثاه كاتبه النسوى: "فأضحى به جيب الزمان مشقوقًا، وسكر الحدثان مبثوقًا ولواء الدين مخفوضًا وبناء الإسلام منقوضًا، وأقشعت سماء شام أبناء الدين بوارقها، وخاف أحزاب الكفر والجحود صواعقها، فكم فى أقاليم الأرض له من وقائع فات فيها أنياب المنايا، وتخلص من أشداق البلايا حتى إذا حم القضاء كان هلاك الأسد الغالب على أيدى الثعالب فإلى الله تعالى المشتكى من صرف الزمان وريب الحدثين".

وبعد التأكد من قتل الخوارزمشاه، أرسل الملك المظفر صاحب ديار بكر شخصًا إلى الصحراء التى كان السلطان قد قتل فيها، وجمع الجواد الأصيل بسرجه وسلاحه وسيفه المشهور والعودة التى كان يربطها فى وسط شعره، وشهد أشخاص مثل أمير الإصطبل و"أوترخان" أنها له، وحمل الملك المظفر عظامه ودفنها(١).

إنه ما زال يعيش حتى ما يقرب ثلاثين عامًا خلت ويقولون إنه موجود ويجمع الخيول والسلاح ويحشد العسكر ويطلب المدد كيما يتهيأ للحرب. هذه الشائعات وإن كانت غير صحيحة إلا أن سببها تمثل فى الحب والإخلاص وأمل الناس فى أسد التاريخ والتى كانت تلهج بها خالصة، ولم يكن يراد أن يصدق موت هذا البطل الذى لم يسترح لحظة طوال حياته، وكان منافسا قويا للتتار والجرجيين والنصارى، وخمير القوة فى مختلف أنحاء إيران!! وقلما كان يأتى صباح إلا ويخرج شخص يدّعى أن أنا السلطان فيسعد الناس من خلال تلك البشرى، ويلقى المغول فى وحشة واضطراب حتى أنهم جعلوه أسطورة وقد توافق وزير العراق مع هذه الشائعات وتلك الأساطير، فكانوا يبشرون بها أحيانًا قلعة اتخذها السلطان مقامًا ويعلنون أن السلطان قد وصل إليها.

وفى عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦م بعد خمس سنوات من وفاة جلال الدين خرج فى اسبيدار(٢) شخص يقول أنا السلطان فأرسل أمراء المغول أشخاصًا كانوا قد شاهدوا السلطان، وكانوا يعرفون قسمات وجهه كى يروه، ولمّا عُرف كذبه قتل، وأيضًا وصلت جماعة من التجار إلى شاطئ نهر جيجون فى عام ٦٥٢هـ /١٢٥٥م بعد أربع وعشرين عاما من قتله، فكان أن قال واحد منهم إننى السلطان جلال الدين، فأخذوه وحققوا معه فأصر على قوله إلى أن قتل، ولكن انتشار هذه الشائعات أو ظهور هذه الادعاءات وتوجه العامة إليها كان من باب أنها أبرزت قتل الخوارزمشاه على أنه مرموز بالإيهام، وأن الناس لم يكونوا يرضون بموت رجل على شاكلته .

نعم؛ ورواية غير التى أثبتنا فيها كيفية قتله؛ فقد ذكروه أيضًا بصور أخرى. مثلاً كتب البعض أن الأكراد طعنوه طمعًا فى لباسه، وعندما لبست هذه الجماعة ملابسه،

---

(١) هذا الصنيع من الملك المظفر يدل على المنزلة التى كان يتمتع بها جلال الدين بين ملوك وحكام عصره.

(٢) من توابع مازندران.

وعادت إلى المدينة عرف بعض الخاصة رداءه وسلاحه فقتلوا رئيس هذه الجماعة بعد أن اطلعوا على كيفية الحادثة في موضعها. ولكن هذه الرواية هى ملخص الرواية الأصلية.

وفى بعض آخر أيضًا أن هذه الألبسة كانت ملابس أخرى للسلطان تحت تصرف خاصته وملازميه وليست الملابس التى كان يرتديها وقت قتله. وقد قالت جماعة إن الخوارزمشاه لم يُقتل؛ بل إنه تخفى فى لباس المتصوفة وظل يطوى أرض الكرد إلى أن مات.

وفى النهاية مهما كان وبأى كيفية كانت فزوال الخوارزمشاه بات أمرًا مؤكدًا فى حدود منتصف شوال ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١م وبذلك استراح السلطان جلال الدين منكبرتى(١) "الخوارزمشاه" من مكابدة الحياة.

---

(١) عاد المؤلف يقول لفظة "منكبرتى" مضيفًا إليها لفظة "الخوارزمشاه".

المبحث التاسع عشر

سيرة جلال الدين

كان قمحي اللون، بين الطول والقصر وبقيافة الترك يتكلم لغتهم وبالفارسية أيضًا، ويمكن إدراك جسارته من الوقائع والحوادث التي شرحناها. كان يعد أسدًا مفرقًا للصفوف ومحاربًا بل أشجع أبطال الجيش، وعلى وقار وصبر، ولم يكن يغضب سريعًا أو يفتح فمه بالسباب، ولم يكن يضحك إلا تبسمًا أو يثرثر كثيرًا يميل طبعه إلى توخي العدل والإنصاف كان يرعى العامة بالفطرة، ولكنه كان في أثناء الحكم وفترات الفتنة مضطرًا إلى الغضب والقهر.

هذا هو شرح كاتبه النسوي الذي كان يعايشه في الحل والترحال، ويرافقه في الانتصارات والهزائم والكر والفر، وإن كانت قصيرة ومجملة. أما ما ينطبق على خصاله الطيبة ويعذر أعماله السيئة؛ فالحقيقة أن كثيرًا من خصال السلطان الحسنة ما أكثر أن أدخلت سوءاته تدبيرًا وتشددًا وقسوة في باب النفور والكراهية. ولهذا السبب يجب أن تبحث كلٌ من هذه الأحداث جريانًا ومردودًا بشكل منفصل.

فجلال الدين هو ابن للسلطان محمد؛ أي إنه ابن ملك حكم ممالك واسعة وعامرة، ولكنه كان رجلاً قاسيًا وسيئًا في تدبيره وجبانًا وأسيرًا لهواه وأداة لتنفيذ رغبات أمه "تركان خاتون" وجنوده الترك.

كان جلال الدين في سوء تدبيره كأبيه بما كان يُحسب عليه إزاء أهواء "تركان خاتون" وعداوة غير قابلة للسلم من وجهة نظره، غير أنه في الشجاعة وامتشاق الحسام والقدرة على الحرب كما النار التي تنبعث من الرماد.

كانت أمه هندية الأصل تُدعى "أي چيچاك" وهذا الأمر واحد من الأسباب في حقد "تركان خاتون" عليه إذ كانت تريد أن يكون ولي عهد السلطان وخليفته شخصًا من أم تركية الأصل ومن قبيلتها "قنقلي" فكان أن اختار "أوزلاغ شاه" من أمه القنقلية في ولاية العهد لهذا السبب؛ بمعنى أنها كانت قد حثت السلطان محمد على أن يختار هذا الابن على خلاف المصلحة والعرف والجدارة.

وما أقل أن يكون لشجاعة الخوارزمشاه مثيلا بين ملوك العصور الإسلامية بعامة وفى العصور التاريخية الإيرانية بخاصة. فقط يمكن أن توضع أشخاص تعد على أصابع اليد مثل لطفعلى خان زند وأبى إبراهيم منتصر السامانى والشاه منصور فى مصافه. فأعمال جلال الدين تُذكّر أكثر بأبطال القصص الأسطورى القديم حتى زعماء التاريخ وسلاطينه، وإن لم يكن المؤرخون الثقات كالجوينى والنسوى الذين كانوا على صدق واطمئنان ومعاصرة أو على قرب من زمانه قد سجلوا ما ذهبنا إليه فإن صفة خرافتها كانت تتوازن مع سمة حقيقتها.

لكم أن تتصوروا زحف الطوفان القبلى المتصل للتتار بأعينكم وتتذكروا أن جيشا متعطشا للدماء كالنمل والجراد يحرق ويجتث ويسحل ويقتل فى كل مدينة وديار يصل إليها، بل يخلع كل ما هو حضارى وكل ما يرتبط بضرورات الحياة ويجعله عدمًا، بل هو دائم الغزو يستولى على قسم من الممالك ويجعل مواطنيه إما فى فرار أو تحصن فتستبد الوحشة والخوف بالقلوب، بل إن مغوليًا يمكنه قتل ما يزيد على العشرين دون أن تصدر حركة معارضة من هذا الجمع المغلوب ضد ذلك الغالب. وقد سمعتم دون شك أن واحدا من المؤرخين قد حكى بأنه قد أُسر مع جمع على يد مغولى ولم يكن معه سلاح حتى يقتلنا، وأمر ألا نبتعد عن مكاننا كى يذهب ويحضر أداة للقتل فقلت للآخرين إن عددنا يفوقه ونستطيع أن نقضى عليه فلم يجرؤ أحد على أن ينهض من مكانه، فقتلت ذلك المغولى وهربت.

هذه الحادثة البسيطة تحكى عن نهضة كبيرة ووضع سيئ لروح الناس، ففى مثل هذا الخضم وتلك الفتنة الكبرى أصبحوا جسدا بلا روح من الخوف. ومن هنا يجب التوجه إلى أعمال السلطان جلال الدين الجسورة والنظر إلى أنها ضمير الإرادة وعزم الجبال وشراسة الأسود، أو أن جسارته فى حرب السند وتبلده ولامبالاته فى حرب أصفهان وحرب عصاباته فى جرجيا وفراره من مضايق وعرة ومواقع دقيقة تجعل النظر يشخص لإنسان تنمحى معه كل هذه الجسارة والتؤدة والقسوة تلقائيًا، بل أن ينظر إليها بعين التغافل.

وليس أمرًا سهلاً أن يخرج من مواصلة الحروب والمعارك شخص على هذا النحو من الجسارة والحذق والشره فى اتخاذ القرار فاتحا أو سليمًا حتى فى الوقت الذى يبقى فيه

وحيدًا أمام الخصم المهاجم. وهذه النقطة مهمة للغاية لأنه ما من عدو لم ير الخوارزمشاه إلا ويشهد على التأسى به والاتعاظ ابتلاء، حتى فى اللحظة التى كان قد بقى فيها وحيدًا يسرع الخطى إلى الموت لم يتمكن المغول الغالبون من التغلب عليه. وقد ذكرنا سابقًا أن التاريخ قد استدل على سكون خاطر جلال وهدوء داخله قبل حرب أصفهان واجتياحه الماء فى حرب السند وحرب العصابات فى جرجيا على قوته وحسمه فى الأمور الصعبة وعدم اكتراثه فى شدائد الزمان واعتباره من شجعان الدنيا وقادتها المشهورين.

وفى سجل أعمال جلال الدين، اعتراف چنكيز أنه من زعماء التاريخ، وهذه الجملة لم تلقَ جزافًا فقد قال تعجبًا ودهشة بعد عبور جلال الدين نهر السند "هذا الشبل من ذاك الأسد" وأيضًا بقول واحد من قادة خان التتار فى حرب أصفهان وقت أن خرج الخوارزمشاه من زحام الجيش واصطكاك السيوف وانهمار السهام أنه لم يقل هذا الرأى عبثًا "لتكن أينما توجهت سالمًا فأنت أسد زمانك وشجاع أيامك".

قلنا سابقًا إن عبور جلال الدين لنهر السند كان عبور الوحشة والتخوف والقلق الچنكيزى إلى عالم الفناء فليس جزافًا إذن أن قال هذا المغولى المحنك لدى عودته من حرب نهر السند: سيفتح أولادى من بعدى المدن أما أنا فيكفينى أن أكون فاتح العالم، وبعدها عاد إلى منغوليا. لقد كان معنى كلام چنكيز وكنه فكره أنه بذهاب الخوارزمشاه من إيران إلى الهند وتفرق جنده وأسر رعيته أنه لم يعد من خطر على المغول الشجعان فى ممالكهم المفتوحة وحكم أولاده. فالحقيقة هى أن چنكيز كان يعد جلال الدين هو الوحيد من بين أبناء السلطان محمد وقادته الذى يُخشى منه كضارب لوجودهم وماحٍ لفتوحاتهم.

إن صلابة ودأب السلطان جلال الدين وحلمه ملازمان لشجاعته وتدخل فى جدارة صفاته، كما أن الرعاية التى كان يبديها من موقعه كسلطان يخلف أباه المقتدر تلفت النظر فى كل حال ومقام، فكان يحفظ ويقدر هذا العلو فى الكعب مع كل سلطان ومليك وحاكم.

فعندما كان يكتب رسالة إلى علاء الدين كيقباد السلجوقى سلاجقة آسيا الصغرى، أو إلى سلطان مصر أو ملك الشام كان يذكر اسمه واسم أبيه مقرونًا بلقب السلطان فهو أهم لقب يتداولونه لحكام ذلك العصر، ولم يكن ليرضى مطلقًا أن يشرع بذكر الصديق أو الأخ أو التابع على نحو ما كان معمولاً به فى وقته وزمانه أيضًا. وحينما كانت تصل منهم هدايا كان يتلقاها تلقى هدايا رعيته، أو لم يكن يقرها على نحو أقل من الهدايا

السلطانية، أو ما تخاطبه به الخلافة فى بغداد كلقب "الجناب الرفيع الخاقانى" فلم يكن هذا اللقب يعجبه وأصر دائمًا على أن يخاطبه الخليفة بلقب السلطان.

كان جلال الدين ذا همة مفتوحة وكبرًا كما النمر، ولكنه فى مقابل ذلك كان خاليًا من القدرة على حسن التدبير وإدارة الأمور المدنية والعسكرية. ولم يكن يعتمد على شىء إلا على السيف وقوة الساعد، ولم يكن يتوانى عن القسوة وسفك الدماء والقتل والغارة مثله فى ذلك مثل جميع قادة الترك. وربما أشار كاتبه إلى أعماله السيئة لدى توليه الحكم فى زمان الفتنة إذ اضطر للغضب واستخدام القهر بالضرورة فى نفس الوقت الذى يكتب فيه "عرف طبعه توخى العدل والبحث عن الإنصاف، وكان يرغب بالفطرة فى راحة الرعية" وهو فى ذلك مستقيم يبتعد عن التناقض إلا إذا كان فى الظاهر موجهًا وعاقلاً وقادرًا على إعمال الشدة والغارة وأعمال الظلم.

لا يبدو من السهل مطلقًا أنه كان باعتماده على النفس واتكائه على الشجاعة أنه بقادر على الحصول على الاتحاد والتساند الدائمين، فذات مرة وقع فى خصام مع الخلافة فى بغداد وملوك الشام وأمراء جرجيا وحكام الإسماعيلية وحكام أنحاء إيران والعراق المختلفة بل حارب الجميع، فلما اضطرب العامة تغيرت عوائد الخزانة وازداد العصيان والعناد بصفة دائمة اضطر لتأمين احتياجات الجنود وتكاليف البلاط والديوان إلى الغارة والجباية فصار لظلمه علة ولإيلام القلوب سببًا وضاق الناس الذين كانوا يظنونه المخلص ويعدونه الحاجز والحصن المحكم والدافع لانتصارهم الحاسم فى مواجهة المغول السفاحين. فلجأوا إلى التتار مستجيرين بهم من هذه الرمضاء إلى النار المغولية المحرقة، ورضوا بحكمهم خلاصًا لهم من لدغات سلطنته. نعم بل دعوا المغول إلى دفعه أحيانًا، وصاروا متفرقين اضطرارًا. وحسن أن تعلموا أن حكام إسماعيلية "الموت" كانوا قد أخبروا عن ضعف عسكره ونقص متاعه إلى آذان المغول.

وكما نعلم أن أعمال جلال الدين وجنوده من نهب واحتلال فى جرجيا كانت تذكّر بأعمال جنكيز وقومه التتريين فى خراسان وما وراء النهر. وكما قلنا أن المسيحيين يعدون هذه الحملة أكبر ضربة نزلت بالمسيحية ويعتبرونها شبيهة بسفك دمائهم على يد "تيتوس" إمبراطور الروم فى أورشليم القدس ونهب مدينة خرت برت وتوابع أخلاط إنما هو نموذج أخر على ظلم جلال الدين بل إن معدل ظلمه فى الغارة على هذه المدينة

يستبين من الغنائم التى كان قد اغتنمها إذ وصل إلى سبعة آلاف بقرة لفلاحين ورعايا محتاجين بل إن غارته على أخلاط أحيت فى الأذهان مرة أخرى خاطرة هجوم المغول المرة فى أذهان الناس والنتيجة أنه بحصار المدينة شاع التشرد والجوع والضياع ولم يجنِ جلال الدين من كل هذه السوءات سوى سوء السمعة بلا شك.

ولا ينبغى أن يُنسى أنه فى جميع هذه الأحوال هناك عوامل من قبيل طمع القادة وسوء التدبير وخطأ الأعوان وعصيان الوزير ومداراة الأخ وغير ذلك من أمور مرت بنا كانت عاملاً مؤثرًا فى تصرف السلطان جلال الدين ومصيره. ثم إن إدمانه وحبه للملذات من سمات نقصه فلم يقلع عن تعاطى الشراب بالتزامن مع الخطر والحوادث، ولم يكن يعرف حدًا فى التعلق بالنساء حتى فى الوقت الذى يقترب العدو منه أو يرى نفسه فى متناول يده، إذ كان يجلس فى مجالس الشراب والتسلى خاصة فى أيام حياته الأخيرة التى كان المغول قد تقصوا أثره فيها. وعندئذ كان ينتقل من مكان إلى آخر دائمًا ويمحو غم الأيام بشراب الخمر فيبدل سوء الحوادث فى وهم المزاج إلى ما هو جميل، وكان أمراؤه يقلدون هذا الصنيع منه فيجرهم الشراب إلى تناسى الدفاع وقصم ظهر الخصم. هذا الوضع أدخله واحد من أرباب الكمال فى نظم جيد، فقال بلغة رشيقة :

- يا أيها المليك كيف يكون النهوض من الخمر الثقيل!

؛ وكيف يكون النهــوض من السكر المتصل!

- فالملك ثمل والدنيا خراب والعدو شاخصٌ

؛ واضح ماذا سيكون من هذا الخضم!

والتفات الخوارزمشاه إلى النساء أيضًا من الأعمال التى تدخل فى الصغائر، وكما رأينا تزوج ابنة أمين الملك وابنة براق الحاجب وابنتى الأتابك سعد واحدة بعد الأخرى وأخت سليمانشاه وزوجة الأتابك أزبك وزوجة الأتابك "جهان بهلوان" السابقة وزوجة الأتابك خاموش السابقة كما اغتصب زوجة الملك الأشرف ابنة ايوان الجرجى، ولا نعرف عدد الجوارى والنساء اللائى لم يرد ذكرهن فى التاريخ. هكذا يسجل كاتبه "كان السلطان حريصًا على مضاجعة النساء، ولم يكن يعرف حدًّا فى هذا الباب"، ويكفى أن نسوق حديثًا عن كثرتهن بالتقريب.

وإذا كانت هذه المسألة ترتبط إلى حد بكسب صداقة واتحاد مع أمير أو قائد فلا عيب إلى هذا الحد بل كانت تعد من باب العقل والتحوط، فدائمًا ما كان الزواج بين رجلين مقتدرين أو طائفتين باعثًا على إيجاد الصداقة والاتفاق. ولكن إفراطه فى معاشرة النساء لم ينقص فمن بين النساء اللائى تزوجهن السلطان جلال الدين من بنات الأمراء والحكام تلك التى اغتصبها وهى زوجة شرعية للأتابك أزبك، فكانت أن حسبت عليه هذه الحيلة المضحكة والطلاق الجائر سوءة عمل، كما كان أسوأ منها مضاجعة زوجة الملك الأشرف بعد فتح أخلاط.

وكان البعض من أعمال الخوارزمشاه بعيدًا عن العقل. وأيًا ما كانت الأعمال شخصية إلا أنها تبدو أكثر سوءًا وذمًا لكونه زعيمًا وملكًا، ومن الجملة هذا الغلام الجميل المدعو قليج الذى وصل إلى خدمته فرارا من سيده عز الدين سكماز بأصفهان قبل تحرك جلال الدين منها، ويبدو أنه هو الذى لُقب بعد ذلك بملك الخواص وسمى بـــ "تاج الدين قليج" ووجد قربة زائدة فى بلاط السلطان، وصدفة مات هذا الغلام الخاص فبكاه الخوارزمشاه كثيرًا وفقد عقله، وسلك مسلك الجنون مرتكبًا من الحركات التى لا تأتى من صاحب عقل. وبدا لهذا السبب خفيفًا وذليلاً فى نظر العقلاء لتشييعه الجنازة مترجلاً وحثه أركان الدولة على المشاركة، فحضروا إلى تبريز من مسافة بعيدة، وبعد منازل منها أصروا على أن يمتطى فرسًا. وأجبر الأهالى فى تبريز على أن يتشحوا بالسواد وحضهم على التحسر والعزاء، وكان يستجوب كل من امتنع بشدة، وأبعد الأمراء الذين نهضوا للتشفع لهم ولم يودع جثمان الغلام الثرى، وكان يبكيه دومًا، فهل يستحق ذلك الغلام الشريد بموته كل هذا الغم والضرب على الخدود والامتناع عن الطعام والشراب؟، بل إنه كان يُرسل قدرًا من الأغذية التى كانوا يحضرونها إليه إلى قبر هذا الغلام الميت. كيف هذا؟ يا "سيد العالم"(١) مات الغلام والميت ليس بحاجة إلى مأكل ومشرب. ولكن كل من كان يردد هذا ينتهى أمره بالموت فورًا، بل إن ما كانوا يحضرونه من غذاء كانوا يعودون به ويقولون مضطربين: "إن قليج يقبل الأرض ويقول إن حالى أفضل من قبل برحمة السلطان". هذه الحركات المجنونة من السلطان آلمت الناس زادها ظلمه وغزوه الناقص وسوء تدبيره فجفلت القلوب منه.

---

(١) هكذا كانوا يدعون جلال الدين.

وبين أعمال جلال الدين وبطولاته التوسل إلى السحر والشعوذة وهو أيضًا من العجائب. وتفصيل ذلك هو أنه أثناء إقامته فى العراق وصل إلى خدمته رجل خوارزمى كان قد أفلت من قبضة المغول وأحضر رسالة من سراج الدين يعقوب السكاكى وبمعيته تمثال جذاب. ومفاد الرسالة إنه إذا دفنتم هذا التمثال فى بغداد فإن مقر الخلافة سيُسخر للسلطان. فانتهز الخوارزمشاه سفر القاضى مجير الدين الذى كان يرسله إلى بغداد كرسول له، وأعطاه هذا التمثال حتى يدفنه فيها، وهكذا فعل غير أن الخوارزمى عاد إليه مرة أخرى، وقال: إن رأى السكاكى هو أن يُقلب التمثال ومن ثم ينبغى إخراجه من التراب حتى يتم الفتح والنصر. فبعث السلطان مجير الدين إلى بغداد مرة أخرى تحت عنوان الرسول فى الظاهر وفى الباطن لإخراج التمثال من التراب، ولكنه لم يستطع أن يصل إلى المكان الذى كان قد دفن فيه التمثال على الرغم من محاولته ولم يتحقق هدفه على الرغم منه. وفيما يبدو أن بغداد لم تُسخر لجلال الدين لهذا السبب!

وعلى الرغم من كل هذه الأوضاع، لو أن السلطان جلال الدين الخوارزمشاه قد أحسن التدبير وأقلع عن سفك الدماء والقسوة، وتجنب سوء السياسة وحب النساء وشرب الخمر لكان قد وفق بلا شك بكل ما لديه من شجاعة وجلد وجسارة وبكل هذا الدفاع الجرىء والكفاح الدائم اللذين بذلهما من أجل تسخير متصرفات أبيه المسلوبة ودفع الأعداء المتزاحمين، والاستعداد الذى أبداه أمراء الأطراف الصغار للالتحاق بسلطان مقتدر، ولكان قد حقق أمانى الخلق فى التخلص من الخراب والمذابح المغولية.

وفى النهاية لا ينبغى أن يُنسى أنه لثلاثين سنة أعقبت وفاته ظل تذكر وهم هذا الأمل عالقًا بالأذهان يعنى أن هذه كانت هى الوسيلة لتحقيق الأمانى والرغبات. فكان أن توجع الناس؛ يظنون أنهم يحييون بالأمل ويتوهمون أنه مازال يعيش كما هم يعيشون.

ولكن من أسف أن سنواته الإحدى عشرة جعلت أهل كثير من الأنحاء التى كانت على استعداد للقيام ضد المغول الكفرة قد صارت طعمًا لامتشاق حسامهم، كما أنه بدل ديارهم إلى موطئ لحوافر دوابهم.

أيضًا بعثت جهالاته وخطاياه على ألا تؤتى تضحيات الناس أكلها بل تراق الدماء وتبدو الخرابات شاخصة بمعنى أنه لو لم ينهض لما أريقت ولما تبدت!!.

المصادر والمراجع:

١- تاريخ جهانگشا: تأليف علاء الدين عطا ملك الجوينى، مُؤلف فى حدود عام ٦٥٨هـ/١٢٦١م. وهو واحد من أربعة كتب تاريخية مهمة، بل أهمها فى التأريخ للمغول (الكتب الثلاثة الأخرى على التوالى هى جامع التواريخ تأليف رشيد الدين فضل الله، تاريخ الوصاف، سيرة جلال الدين).

كان علاء الدين الجوينى قرابة ١٥ سنة كاتبًا خاصًا للأمير "أرغون" حاكم إيران وجرجيا وآسيا الصغرى من جانب المغول، وبعد وصول هولاكو إلى إيران أصبح من أخص كتابه ثم أصبح حاكمًا على بغداد والعراق قرابة ٢٤ سنة من جانب هولاكو وأبنيه اباقا وسلطان أحمد.

٢- جامع التواريخ: تأليف رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبى الخير بن موفق الدولة الهمدانى كان المؤلف فى البداية طبيبًا لـــ أباقاخان، وبعد عشرين عامًا تولى وزارة غازان خان كما تولى وزارة أخيه الجايتو، وشرع فى تأليف جامع التواريخ بأمر غازان خان وأتمه بأمره. وقتل المؤلف عام ٧١٨هـ/١٣٢١م.

٣- سيرة جلال الدين منكبرتى – من تأليف محمد بن أحمد بن على بن محمد النسوى منشى السلطان جلال الدين، كان فى أكثر الأسفار والحروب ملازمًا لجلال الدين. وقد ألف كتابه فى عام ٦٣٩ هـ /١٢٤٢م بالعربية. وترجم السيد محمد على ناصح هذا الكتاب إلى الفارسية وطبعه فى تهران، وقد كانت هذه الترجمة الجيدة محلاً لاستفادتنا.

٤- طبقات ناصرى: عن منهاج الدين عثمان بن محمد الجوزجانى المعروف بمنهاج السراج، الذى ألف فى عام ٦٥٨ هـ /١٢٦١م.

٥- تاريخ المغول: المرحوم عباس إقبال آشيتانى.

٦- تاريخ عمومى إيران: المرحوم إقبال.

٧- حبيب السير: تأليف خواندمير.

٨- تاريخ گزيده: تأليف حمد الله مستوفى القزوينى.

٩- الكامل فى التاريخ: ابن الأثير.

١٠- معجم البلدان: ياقوت الحموى فى الجغرافيا.

١١- مقال پيتر آورى: مقال عن أسباب هجوم چنكيز، مجلة كلية الآداب، تهران عدد١، السنة السابعة.

١٢- چنكيزخان: هارلد لمب، ترجمة المرحوم رشيد باسمى.

المؤلف فى سطور:

محمد دبيرسياقى

- سيد محمد دبير سياقى من الرموز الثقافية فى إيران ألف وحقق أكثر من خمسين كتابًا فى الأدب و اللغة و التاريخ ونظم الشعر فى مضامين مختلفة.
- ترأس تحرير الموسوعة الإيرانية المسماة «لغت نامه» التى صدرت فى أكثر من خمسين جزءًا.
- شارك فى كثير من المؤتمرات داخل إيران وخارجها بدعوة كثير من المحافل العلمية.
- حضر إلى مصر أستاذًا زائرًا فى كلية الآداب جامعة عين شمس منذ سنوات مضت.

المترجم فى سطور:

أحمد الخولى

- أحمد السعيد الخولى أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس.
- ألف وترجم عددًا من الكتب والمراجع فى موضوعات تهم الدارس والمثقف والقارئ العادى.
- منحته الجامعات المصرية والعربية شهادات تقدير لمشاركته فى فعالياتها الثقافية.
- أسهم فى تحكيم الأبحاث والكتب بطلب من الجامعات العربية، وفى تخريج عدد من دارسى اللغة الفارسية فى العالم العربى.
- شارك فى كثير من المؤتمرات المحلية والعربية والإسلامية بدعوة من المحافل العلمية.

التصحيح اللغــوى: معتز العجمى
الإشــراف الفنــى: حســن كامل

السلطان جلال الدين منكبرتى هو أكبر أبناء السلطان محمد الخوارزمشاه. عُهد له بعد انقراض الغوريين بحكم ديارهم..

تحرك بعد حملة المغول إلى هرات فى أواخر عام 617 هـ/1218م ثم شرع بعد ذلك فى مواجهة المغول، وهزمهم فى البداية فَسُرَّ الناس لذلك، ولكنه بعد صدامات شديدة فر إلى الهند؛ كى يشرع فى جمع العسكر لمواجهة جديدة ضد المغول.

السلطان جلال الدين خوارزمشاه سيرة واحد من رجال تاريخ إيران المحاربين، أمضى إحدى عشرة سنة فى الكر والفر، ولم يكن فراره إلى الموقع من ضغط العدو إلا لإعداد طوق يحاصره.

يقول دبيرسياقى: كان يحسب فى حياته على أنه أمل الناس وملاذ البشر وسد محكم بينهم وبين العدو فباتت وفاته كما لو كانت لغزاً؛ فتعلقت الأنظار بظهوره مرة أخرى لسنوات طوال، ولكن كلما نمت إلى الأسماع هذه البشارة وهفت القلوب إليها تحول الأمل إلى سراب وما ذلك إلا لأن هلاك رجل محارب على شاكلته لم يكن ليُصدقه أحد أو يمر بخاطر.

هذا الكتاب بالإضافة إلى أنه فى شرح حال السلطان جلال الدين من ناحية وبيانِ حروبه فى مواقع مختلفة من ناحية أخرى، يرسم صورة حية لأوضاع المجتمع الإسلامى فى العهد المغولى.

تصميم الغلاف: سارة رجائى